المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

رحلة لاستكشاف أفريقيا

تأليف: الميجور/ دنهام والكابتن/ كلابرتون والرحالة/ أودني

الجزء الأول

ترجمة

عبدالله عبدالرازق إبراهيم

مراجعة

شوقى عطا الله الجمل

422

المشروع القومى للترجمة

رحلة لاستكشاف أفريقيا

(الجزء الأول)

تأليف : الميجور دنهام والكابتن كلابرتون
والرحالة أودنى

ترجمة : عبدالله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة : شوقى عطا الله الجمل



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٢٢
- رحلة لاستكشاف أفريقيا (الجزء الأول)
- الميجور دنهام والكابتن كلابرتون والرحالة أودنى
- عبدالله عبد الرازق إبراهيم
- شوقى عطا الله الجمل
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

Narrative of Travels and Discoveries
in
Northern and Central Africa
in the years 1822, 1823, and 1824
By
Major Denham F.R.S., Captain Clapperton
And the late Doctor Oudney
Second Edition
In two volumes
Vol. I
London
John Murray, Alberarle - Street
Printed by Thomas Davidson, white friars

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

مقدمة بقلم المترجم والمراجع

• تشرح ظروف رحلات كلابرتون ورفاقه لكشف نهر النيجر •

ترتبط رحلات كلابرتون وأودنى بالجهود التى بذلت للكشف عن نهر النيجر ومعرفة اتجاه مجراه ، والنيجر ثالث أنهار أفريقيا بعد النيل والكونغو ، وهو يمتد فى غرب القارة الأفريقية على شكل قوس يتجه من الجنوب الغربى حتى الشمال الشرقى ثم يتجه النهر من جديد تجاه الجنوب الشرقى حتى ينتهى عند المصب بدلتا كثيرة الفروع ، ويتصل به على مسافة غير قصيرة من المصب نهر بنوى (Benue) .

وقد تضاربت الأقوال طوال القرن التاسع عشر بخصوص نهر النيجر ومنابعه واتجاهه ، فرغم أن ابن بطوطة الذى قام برحلة من مراكش إلى تمبكتو أشار إلى أن النهر يسير إلى الشرق - فإن الرحالة ليو الأفريقى (حسن بن الوزان) الذى قام برحلة من فاس ووصل إلى تمبكتو فى القرن السادس عشر والذى أبحر فى النيجر إلى بلاد الهوسا ، الذى أتيحت له الفرصة لأن يبرز الشكوك التى جابت حول نهر النيجر نجده فى مشاهداته فى كتابه «تاريخ وصف أفريقيا» يشير إلى أن النيجر يسير نحو الغرب إلى المحيط الأطلنطى - وهكذا ظلت مشكلة النيجر واتجاهه قائمة حتى قامت رحلات أخرى، واهتمت الجمعيات العلمية كالجمعية الجغرافية البريطانية باستجلاء حقيقة هذا النهر .

ومن الرحلات الهامة فى هذا الشأن الرحلة التى قام بها الرحالة الاسكتلندى منجو مارك (Mungo Mark) فى ختام القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر والذى يعتقد أنه وصل فعلاً إلى نهر النيجر ، ووصل فى ١٩ نوفمبر ١٨٠٥ إلى ساماندنج قرب التمبكتو ومنها كتب آخر خطاب وصل لزوجته قبل أن تنقطع أخباره عن العالم .

أما الرحّالتان كلابرتون (Hugh Clapperton) وأودني (Walter Oudney) صاحبا هذه الرحلات موضوع هذا الكتاب فقد بدآ رحلاتهما في عام ١٨٢٢ حين وصلا إلى طرابلس بالغرب وكان برفقتهما شخص ثالث هو الميجور دنهام (Major Denham) .

وقد اتجهوا جميعًا صوب بحيرة تشاد لكن انفصل عنهم دنهام متجهًا للجنوب والجنوب الشرقي لكشف نهر شاري (Shari) بينما اتجه كلابرتون وأودني صوب النيجر عبر مناطق الهوسا برفقة تاجر عربي من فزان يدعى محمد الوردي فوصلوا إلى كوكا (Kuka) غربي بحيرة تشاد ، ثم غربًا إلى كانو (Kano) وكان ذلك في يناير ١٨٢٤ – وقد توفي أودني قبل وصولهم لكانو .

وقد أعطى كلابرتون وصفًا لكانو فذكر أنها كانت سوقًا تجارية كبيرة – لكنها ليست بالعظمة التي يذكرها بها التجار العرب – وأن المستنقعات المائية تفصل بين منازلها المستديرة، بينما تسبح الطيور المائية في هذه المستنقعات، والمدينة محاطة بسور ضخم له خمس عشرة بوابة تغلق ليلا ، وبها سوق في غاية النظام مقسم إلى أقسام يخصص كل منها لبيع سلعة معينة ، ويشرف على السوق شيخ من – قبل سلطان كانو يجبي المكوس من التجار.

هذا وقد اتجه كلابرتون غربًا إلى سوكوتو – كما يتضح من مذكراته – لكن لم يسمح له حاكمها بأن يكمل رحلته للنيجر الذي لم يكن يبعد أكثر من ١٥٠ ميلاً، فعاد إلى طرابلس ومنها إلى إنجلترا فوصل في يونيو ١٨٢٥ .

لكن قام كلابرتون بعد ذلك برحلة ثانية وذلك بتكليف من وزارة المستعمرات البريطانية بقصد الوصول إلى سوكوتو الواقعة بين بحيرة تشاد ونهر النيجر بقصد عقد معاهدة مع سلطان بللو – ورافقه لاندر (Lander) في هذه الرحلة .

وبدأ كلابرتون ولاندر هذه الرحلة من ساحل خليج غانا عند مدينة باداجري (Badagri) قرب لاجوس الحالية ووصلا إلى واوا (Wawa) حيث تعرف لاندر على أرملة ثري عربي تدعى زوما (Zuma) وأظهرت استعدادها للزواج منه – وقد تحدث في مذكراته كثيراً عن مطاردتها له – ثم عبرا النهر واتجها إلى الشرق صوب كانو ، ووصلاها في ٢٥ مايو ١٨٢٦ .

وسافرا إلى (سوكوتو) لكنهما وجدا السلطان مشغولاً بالاستعدادات للحرب ضد بورنو ، وغير مستعد للتفكير فى توقيع اتفاقيات مع إنجلترا أو غيرها .

وفى سوكوتو مرض كلابرتون وكان لاندر يقوم بتمريضه .

وفى ١٣ أبريل ١٨٢٧ مات كلابرتون ودفنه لاندر فى المدينة .

وعاد لاندر من الطريق نفسه الذى سلكه مع كلابرتون حاملاً معه أوراق سيده ليسلمها لوزارة المستعمرات ، ووصل إنجلترا فى أبريل ١٨٢٨ حيث كتب بعض ملاحظاته عن مغامراته فى أفريقيا - وهذه الملاحظات هى التى طبعت بعد ذلك مع مذكرات كلابرتون .

هذا على أن رحلة لاندر برفقة كلابرتون كانت مشجعة للطامعين فى الوصول إلى قلب القارة الأفريقية لاستغلال ثرواتها البشرية والطبيعية ، خاصة أن الثورة الصناعية فى أوروبا بدأت تفتح أبوابًا جديدة للنشاط خارج القارة الأوروبية .

ولهذا أرسل لاندر فى بعثة أخرى ، وبدأ هذه الرحلة الثانية فى يناير ١٨٣٠ ومعه شقيقه الصغير يوحنا (Johna) فوصلا إلى باداجرى (Badagri) فى آخر مارس ١٨٣٠ وسافر فى الطريق السابق نفسه حتى واوا حيث زار لاندر التربة العربية زوما ، ثم وصل إلى بوسا (Busa) واتجه إلى بلدة يورى (Youri) على النيجر وتحققا من أن النهر يأتى من الغرب متجهًا للشرق ، وساروا فى النيجر صوب مصبه متتبعين هذه المرة الضفة الغربية حتى وصلوا إلى دلتا النهر عند بلدة براس (Brass) ثم أبحروا إلى جزيرة فرناندو بو (Fernando Po) فوصلوا فى ديسمبر ١٨٣٠ ومنها أبحر لاندر وشقيقه إلى البرازيل فإنجلترا فوصلاها فى يوليو ١٨٣١ ومنحتهما الجمعية الجغرافية الميدالية الذهبية - وكتبا مشاهداتهما فى كتاب ظهر فى عام ١٨٣٢ فى ثلاثة أجزاء .

وقد أدت المعلومات التى نشرت عن هذه الجهات إلى فتح الباب للشركات التجارية، والمستعمرين والمغامرين من الأوروبيين للولوج من الساحل الغربى للقارة إلى داخلها .

هذا وقد قامت إنجلترا بعمل مسح لدلتا النيجر بعد أن وضعت أيديها على هذه البلاد .

شوقى عطا الله الجمل

عبد الله عبد الرازق إبراهيم

المقدمة

بعد وفاة الدكتور/ أودنى وقع على عاتقى والكابتن كلابرتون إعداد تقرير للجمهور عن رحلتنا فى الأجزاء الداخلية والوسطى من شمال أفريقيا ، وكان الرحيل المفاجئ لرفيقى فى المهمة الثانية قد ألقى الجزء الأكبر من الحمل علىَّ ، ومع هذا فإننى أعتقد لأننى لم أشاهد أيًا من أوراقه أن الكابتن كلابرتون قد دون خلال حياة الدكتور أودنى بعض الملاحظات بنفسه بعيداً عن خريطة الطريق الخاص بالرحلة وذلك من خلال الملاحظات اليومية لخطوط العرض وخطوط الطول عندما يجد الفرص المناسبة ، ولكن نظراً لموت رفيقه فى الرحلة إلى السودان فإن أخباراً عن رحلته وملاحظاته قد دونت بشكل منتظم، وقد تحولت كل هذه الوثائق الأخرى إلى السيد بارو مع إشارة بأن يشرف هو بنفسه على إعدادها للطبع .

ومن الطبيعى أن نسأل : لماذا لم تظهر أشياء أكثر من بضع ملاحظات من كتابة الدكتور/أودنى فى العمل ؟

وأستطيع أن أجيب على السؤال بأن الأوراق الوحيدة التى وضعت فى يدى تتكون من " رحلة من مرزوق إلى بورنو " ورحلة إلى ناحية غرب مرزوق، وكليهما لا يصلح للنشر نظراً لحالتهما السيئة، بل وتحتوى على أشياء بسيطة بعيداً عما وجدته فى يومياتى، ومع ذلك فإننى سجلت فى هوامش أجزاء من هذه الأمور كما أشاروا عليها. ولم أفقد أى ورقة من ملاحظاته، وأستطيع أن أقرر أنه نظراً للحالة السيئة التى وجد عليها نتيجة لمرضه واعتلال صحته منذ لحظة رحيله من مرزوق حيث أصيب بالبرد هناك والذى استقر فى رئتيه ولم يتركه أبداً .

وعندما وصلنا إلى كوكا عانى بعد ذلك من الحمى لدرجة أننا فقدنا الأمل فى استمراره على قيد الحياة وأن يعود إلى إنجلترا والتى كانت فعلا رأيه ، وعندما تحرك فى رحلته الأخيرة نحو السودان كان مرهقًا وفى حالة غير مناسبة لمثل هذه المهمة حتى

وقع شهيداً لحماسه بعد الرحيل رغم أنه لو بقى فى كوكا فإن الحالة المحزنة التى عاشها ربما استمرت فترة أطول .

أما عن رحلاتى إلى مختلف أجزاء بورنو وفى ماندارا ولوجون فضلاً عن محاولتين قمت بهما ولم تكتملا إلى بحيرة تشاد العظيمة فإنهما يشغلان جزءاً معقولاً من هذا العمل ، وحيث أنها تمت فى دول وبين شعوب غير معروفة للأوروبيين - كثير منها سواء بالاسم أو التقرير - فإنه من المأمول أن هذه الملاحظات قد سجلت فى وقتها وفى أماكنها والتى لا نجدها غير مهمة للقارئ .

وربما يظن البعض أننى كنت دقيقًا جداً فى تفاصيل أكثر من اللازم فى رحلتنا عبر تلك الصحراء الضخمة والتى تقع بين مرزوق وبورنو والتى تتكون بشكل عام من تلال عارية من الصخور أو من صخور متقطعة تحيط بها فى بعض الأماكن قطع وبقايا من الحصى والحجارة، وفى بعضها الآخر يغطى سطح الأرض أكوام ضخمة من الرمال تتغير فى شكلها وموقعها حسب قوة واتجاه الرياح ، وحتى فى وسط هذه المدن المخيفة والقرى النائية كانت تتواجد قبائل متجولة، وقوافل تجارية تكسر هذه الوحدة فى هذا الحزام الذى يمتد عبر شمال أفريقيا، وفى أجزاء كثيرة لا تجد أى أثر لأشياء حية حتى الحشرات .

ومع ذلك فإن أماكن التوقف والراحة عند الآبار ووديان هذه المناطق تقدم للرحَّالة وسائل للراحة والمتعة والتى يسمع فيها عن مختلف القبائل والجماعات، ويتحدث معهم، وينصت إلى أحاديثهم ، والذين يجعلونه ينسى لبعض الوقت مشاق الرحلة وآلامها نتيجة سماع غنائهم ورقصهم والقصص التى يحكونها .

أما بقية المعلومات فإننى أثق فى صحتها وأنها جديدة ، وأضعها أمام الجمهور وليس أمام أى قوة أخرى لكتابها والتى أصبحت الآن مصدر السرور لى ، وإننى رغم كل المتاعب الكثيرة لم أخالف الرأى الذى بدأت به وهو أن أسجل كل يوم الأحداث مهما كانت بسيطة أو تافهة .

ورغم أننا لم نستطع حل هذه المشكلة الشيقة التى أثارها اكتشاف مونجوبارك فإننى أتعشم أن أقول إننا قد وسعنا مداركنا عن المعلومات الجغرافية عن وسط أفريقيا ، وكانت آخر حدود سفريات الكابتن ليون جنوبياً هى تيجرى التى تقع على

خط عرض ٢٤ شمالاً ، أما نحن فقد وصلنا إلى موسفيا التى تقع على خط عرض ٩ درجة أى لإضافة أربع عشرة درجة أو تسعمئة ميل جغرافى تقريبًا من خطوط الطول التى كنا نعرفها سابقًا. والصادق حقًا أن هوركان قد عبر الصحراء الكبرى قبلنا، وتقدمنا جنوبيًا حتى نيفى التى تقع على خط عرض ١٠ لكن لم تُحفظ أى من سجلات هذه الرحلة ، وبالتالى فإن الصحراء وكل شىء خلفها صار جديداً بالنسبة لنا .

أما عن خطوط الطول فإن مارك تقدم غربيًا إلى خط موازٍ لخط ١٥ أو ١٦ ووصل إلى سيلا فى الغرب من اكتشافاتنا ووصل من تنجاليا على خط طول ١٧ شرقًا إلى سوكوتو على خط طول ٥,٣٠ شرقًا أى إحدى عشرة درجة ونصف أو ما يعادل سبعمئة ميل جغرافى من خطوط الطول ، وعلى هذا فإن المسافة بين سيلا وسوكوتو تساوى حوالى سبع درجات طولية أو ٤٠٠ ميل وهى ناقصة حتى نكمل معلوماتنا عن الجزء الأوسط من أفريقيا أو السودان من شواطئ المحيط الأطلنطى حتى الشواطئ الشرقية لبحيرة تشاد .

ولقد زودنا المجلدات التى تصف أعمالنا بعدد كبير من التقارير من العرب والمغاربة فيما يتعلق بمجرى ومصب نهر كوارا والذى أطلق عليه الجغرافيون المحدثون اسم النيجر ، وأيضًا استمرار المياه إلى بحيرة تشاد ، لكن الكثير من هذه المعلومات كانت غامضة ومتناقضة وبعضها كان مستحيلا لدرجة أنه كان من الأفضل حذفها . ولو نجحت البعثة الحالية تحت قيادة صديقى المرحوم كلابرتون فى الوصول إلى مناطق نفوذ السلطان بللو من خليج بنين فلن تظل مشكلة النيجر مجالا للتأمل ، وكما يبدو أن شيخ بورنو منذ وصلنا قد أوضح تماماً إخضاع أهل ياجرمى ، وبالتالى فهناك أمل أن الرحالة الحاليين ربما يجدون الوسائل لاختراق المناطق شرق تشاد وبالتالى تحديد المناطق الأخرى محل النقاش .

إننى أدين كثيراً للسير روبرت كير بورتر صديقى منذ الطفولة على إكمال عدد من اللوحات بقلمه الماهر ورغم أنها سريعة إلا أنها صور أمينة وصادقة عن مناظر وشعوب وسط أفريقيا ، وكانت عيناه قريبة من عينى حول الأشياء والمناظر التى صورتها، وحقًا فإن كل الذين تعرفوا على قصصه المنشورة عن بحوثه بين آثار بابل وفارس القديمة يعترفون بنفس الدقة فى رسوماته عن ملابس وملامح وشخصيات أفريقيا .

ديكسون دنهام

فصل تمهيدى

بقلم الميجور: دنهام Major Denham

من طرابلس (Triploli) إلى مرزوق (Mourzuk)

قبل أن تصلنى أية معلومات بلغتنى أنباء عن عزم حكومة صاحب الجلالة على متابعة الرسالة و المهمة التى كان يقوم بها السيد ريتشى (Ritchie) ، والقبطان ليون Lyon ، لقد تطوعت لدى اللورد باثيرست Batherurst للاستمرار فى التقدم حتى أصل إلى تمبكتو Timbuctoo بالطريق نفسه تقريباً الذى يستخدمه الآن الميجور لاينج Laing ، ولقد علمت حينما وصلنى الرد أنه قد تم التخطيط لإرسال حملة عسكرية وأنه قد تم تعيين كل من الدكتور أودنى Oudney والليفتينانت كلابرتون Clapperton ، وكليهما ينتمى إلى سلاح الأسطول وهكذا فقد أصبحت بصحبة هذين السيدين الكريمين كما طلبت ، وساعدنى فى ذلك ما لقيته من عطف وتكرم اللورد باثيرست ، وكان رفيقاى قد رحلا عن لندن قبلى إلا أننى ما إن استكملت استعداداتى لم أشأ أن أضيع أى وقت فى التقدم فى التوجه إلى مالطة على متن سفينة أقلتنى إلى هناك حيث تبين لى أنهما قد رحلا عن الجزيرة (جزيرة مالطة) جنوب طرابلس .

وقبل شهر من وصولى إليها (أى إلى مالطة Malta) وبعطف وكرم كل من الأدميرال السيد جراهام موور Graham Moore ، والسير مانلى باور Manley Power ، والسير ريتشارد بلاسكيت Richard Plasket والقبطان وولى Wooley والذى كان يعمل مفوضاً على ترسانة السفن – تم تلبية جميع رغباتى وتجهيزى بكل ما يلزمنى من مؤن . وقد عرض علىَّ ويليام هيلمان William Hillman والذى كان يعمل نجار سفن و هو رجل ذو شخصية ممتازة– خدماته حينما رأى أن المساعدة التى بإمكانه أن يقدمها لى قد تكون ذات ضرورة و أهمية، و لكونى أو لإمكانى أن أستخدم أى شخص أحتاج إلى خدماته وبأجر معقول إذا ما رغب واختار مرافقتى فى رحلتى ، وعليه فقد عرض علىَّ ويليام هيلمان خدماته الفورية بناءً على اتفاق يأخذ بمقتضاه مئة وعشرين جنيهاً إسترلينياً سنوياً طالما استمر فى العمل معى .

وركبت متن السفينة " إكسبريس Express" وهى مركب شراعى لها صاريان والتى أعارنى إياها الأدميرال لهذا الغرض ، وفى الثامن عشر من شهر نوفمبر أى بعد ثلاثة أيام من الإبحار وصلت إلى طرابلس ووجدت رفيقاى فى منزل القنصل

وارينجتون Warrington حيث كانوا يتوقعون وصولى بشغف كبير ، وليس هناك الكثير الذى يمكن قوله عن هذا السيد الكريم و الذى عن طريق روح المرح والبهجة والدعابة التى يتمتع بها ، وحماسته ومثابرته وإدارته الممتازة المتميزة فإننا ندين بدرجة كبيرة لذلك النفوذ والتأثير الذى تتمتع به هذه الحكومة وتتفوق به على أى نفوذ أو تأثير لأى قوة أخرى من تلك القوى الهمجية البربرية . وفى حقيقة الأمر فإن اسم الإنجليز له أهمية كبيرة فى طرابلس لدرجة أنه ليس هناك أمر يمكن تنفيذه أو نزاع يمكن حسمه وتسويته بدون أن يطلب الباشا تدخل القنصل البريطانى والذى ندين له بنجاح المهمة السابقة بدرجة كبيرة . ولقد ذكر للحكومة فى لندن London أن الطريق من طرابلس إلى بورنو Bornou طريقًا آمنًا و سالكًا كالطريق من لندن إلى آدينبرا Edinburgh عاصمة أيرلندا Irland وهو الأمر الذى تبين صحته ، وإن كانت هناك مبالغة صغيرة على نمط تلك المبالغات السائدة فى الشرق ، فهو الطريق الذى قد سلكته رحلة صديقى الراحل توولى Toole ورحلة السيد تايرويت Tyrwitt والذى كان بصحبته هدايا كثيرة قيمة .

إلا أن هذا ليس كل القصة : إن للعلم البريطانى قدرة وقوة عجيبة على توفير الأمن والحماية ، كما أن السقف العلوى بالمنزل الذى يقطنه ويعمل به القنصل البريطانى دائمًا ما يمثل حرمًا مقدسًا لا يمكن أن ينتهك فيه أو حوله أى مجرم جريمة ما ولا حتى جريمة القتل ، و نادرًا ما يمر يوم واحد بدون أن يندفع إلى فناء القنصلية البريطانية أحد اليهود المضطهدين Jews أو العبيد البائسين هربًا من الضرب أو الجلد بالعصى – وبخاصة على أخمص القدمين – حيث يلجأ إليها طالبًا للحماية من تعرضه لذلك. و لقد حدثت حادثة عند العودة من إحدى رحلات التريُّض و التنزه التى كنا نقوم بها وهى الحادثة التى توضح مدى التقدير العالى الذى كان يحظى به الأفراد البريطانيون فى طرابلس Tripoli ، وتتمثل هذه الحادثة بأنه قد تم الحكم على أحد البائسين بخمسمئة جلدة بالعصى على أخمص قدميه بسبب مخالفة تافهة قد ارتكبها ، وقد استطاع هذا البائس و هو فى الطريق إلى المكان الذى أخذوه إليه لتنفيذ هذه العقوبة أن يحتال بطريقة ما و يفر من الحرس الذين كانوا يرافقونه ، ومن حسن حظه وطالعه أنه تقابل مع طفل يعمل خادمًا لدى الدكتور ديكسون Dickson وهو طبيب

إنجليزى يعمل فى طرابلس ويتمتع بذكاء ويحظى باحترام كبير ، وبذكاء بديهى سريع وبارع أمسك هذا البائسُ (المحكوم عليه بهذا العقاب) الطفلَ بين ذراعيه وتوقف بجرأة أمام الحراس الذين كانوا يتعقبونه .

ولقد كان الطلسم أو تعويذة الحماية التى لجأ إليها قوية بدرجة كبيرة ، لقد كان يرتسم على ذلك المذنب سيماء البراءة و من ثم فقد واصل هذا المتهم سيره بدون توقف زاعمًا وبطريقة تنم عن الفوز والانتصار حماية العلم البريطانى .

إلا أن ما يلى يثبت و يبرهن بقوة كبيرة على مدى النفوذ والمهابة التى كان يحظى بها العلم البريطانى – ومنذ خضوع وإذعان العرب الذين يتسمون بالعناد والمقاومة لم يحظ أى زعيم بتلك المظاهر العديدة المتكررة لعطف واهتمام الباشا مثل الشيخ بلجاسم بن خليفة "Begassam Ben Khalifa" وهو زعيم أقوى قبيلة فى الجبل " El Gibel" وبناءً على طلب خاص من الباشا ترك الشيخ خليفة قطعان ماشيته وخيامه وأقام فى المدينة وكان يحظى بدرجة كبيرة بثقة أميره و هو ما يعد بروزا و رفعة فى الشأن تودى بصاحبها موارد التهلكة فى الدول الهمجية البربرية ، و يتلقى الهدايا العديدة إلا أنه وقبل عدة أشهر قليلة تلقى هدية تتمثل فى واحدة من أجمل الحدائق الغنَّاء فى المنشية Minshea ، وبعد أن عاد من القلعة بعد أمسية من الموسيقا والرقص فى القصر الذى يسكنه الباشا قبل بلجاسم اليد التى وقعت أمرًا بموته ، واستأذن فى الرحيل والانصراف وعلى عتبة بابه أطلقت عليه طلقة مسدس أصابته فى ذراعه وحينما دخل إلى السقيفة أى الممر دخلت رصاصة أخرى جسده وبعد أن أسرع الخادم بإغلاق الباب ترنح الشيخ العجوز وسقط على سجادته ثم أعلن وهو بين ذراعى زوجته أن قاتله هو ابن أخيه الشيخ محمود بلجاسم ولد ساوداويه " Mohamed Begassam Wilde Sowadoweah ، إلا أنه نظرًا لأن هذا العمل لم يتم إلا نصفه فقد اندفع إلى داره آخرون وعاجلوه بسبع طعنات من خناجرهم وضعت نهاية لآلامه ومعاناته من غير أن يأبهوا لصراخ زوجته والتى كان من نصيبها إصابتان حينما حاولت إنقاذه . وقد تم بسرعة كبيرة دفن الشيخ المسكين وفر الأشخاص الثلاثة الذين ارتكبوا الجريمة إلى دار القنصلية البريطانية طلبًا للحماية .

إلا أنه فى وقت باكر من صبيحة اليوم التالى أرسل القنصل ترجمانه لإبلاغ الباشا بأن (القتلة لن يجدوا أى حماية تحت علم إنجلترا) . وقال الباشا إنه صدم بهذه الجريمة وأبدى أسفه أن القتلة قد لاذوا بدار القنصلية نظرا لأنها مكان مقدس لا يمكن أن ينتهك ولا سيما – وكما فهم – أنهم قد اعتزموا المقاومة كما أنهم جميعًا مسلحون تسليحًا جيدًا ، و لقد رد قنصلنا قائلاً :

" إن الباشا كان حرًا فى أى قوة يرغبها واستخدام أى وسائل يراها الأفضل كى يسحبهم من تحت راية علم لم يعط من قبل الحماية لقتلة " ، وقد جاء الوزير كذلك وعبر عن كياسة (ومراعاة الذوق أو أحاسيس الآخرين) الباشا ، ولقد كان واضحًا أنه لم يكن يتوقع أن يصدر ذلك من القنصل ، إلا أنه كان حاسمًا و ديكتاتوريا ولم يجرؤ الباشا أن يبدى أنه يحبذ هذا العمل الغادر ، ولم يتخذ قرارًا بإبعادهم إلا حين غربت شمس ذلك اليوم حينما دخل حوالى ستة عشر رجلا ممن وقع عليهم الاختيار من بين الرجال الموجودين بالقلعة إلى دار القنصلية ، وقد أدى هذا إلى أن سلم هؤلاء التعساء أنفسهم على الرغم من أنهم كانوا مسلحين بأسلحة محشوة بالذخيرة والرصاص وهم يرتجفون من الخوف ولم تمض أقل من ساعة حتى كانوا معلقين فوق أسوار القلعة .

وفى يوم تم تحديده كنا منتظرين قدوم الباشا ، وبعد المرور عبر الفناء والذى كان مكتظًا بالحراس كما كان هناك جماعات كثيرة من العرب فى الممرات وقاعات الانتظار يلعبون الورق والنرد (الطاولة) تم إدخالنا إلى قاعة المقابلات حيث استقبلنا الباشا – والذى كان واضعًا قدمًا على الأخرى على سجادة وحوله ابناه و زنوج مسلحون – بترحاب وأمر بتقديم الشربات والقهوة لنا وعبر عن تأييده الكامل للموضوع الخاص بمهمتنا والذى وعد بأن يوصلنا بأمان إلى الأماكن الداخلية فى أفريقيا و قد دعانا كى ننضم إليه فى رحلة صيد و قنص بالاستعانة بالصقور داخل الصحراء . وكان موكب الفرسان يتكون من قرابة الثلاثمئة فرد ، ولسوف أحاول أن أقدم بعض الوصف لبعضٍ من ذلك اللهو و المتعة التى عرضت لنا فى ذلك الصباح. و قد تم إركاب الباشا على أحد الخيول العربية والذى كانت بشرته مثل اللبن بياضًا ، وتم تغطيته بأغطية فاخرة وعليه سرج من القماش المخملى القرمزى اللون والذى كانت به كثرة من المسامير

الذهبية ، وركابات (الركاب هو أداة يضع فيها الفارس قدمه) وكانت ثقيلة من الذهب أيضًا وجلات (الجل هو غطاء مزركش لسرج الفرس) من القماش المطرز تتدلى لأسفل على كل جانب تقريبًا حتى مفصل النتوء الذى يحمل خصلة شعر فى مؤخرة قائمة الفرس ونحوه فوق الحافر مباشرةً أو شعر هذا الجزء من قائمة الفرس .

وكان أمامه ستة "جاويشية" أى ضباط وكانوا يرتدون ملابس فخمة ومسلحين ببنادق طويلة وسيوف طويلة ومسدسات ، وكانوا يلفون حول أجسامهم قطعًا من الحرير الأبيض غير مخيطة وبرشاقة ومحاطًا بجانبيه عبيد سود ولديه خادم يرتدى صدرية لامعة وبورنُسًا فاتح اللون وعمامة بيضاء وهى ملابس شكلت تناقضًا لطيفًا مع ملابس العرب .

ولقد اتجهنا فى سيرنا نحو الغرب ، وعند وصولنا إلى الصحراء اندفعت إلى الأمام مجموعات من ستة أو ثمانية أشخاص بسرعة كبيرة عدة مئات من الأمتار وأطلقوا نيرانًا من أسلحتهم ثم توقفوا فورًا بطريقة تثير أقصى درجات الدهشة والمفاجأة ، وبصيحات عالية اندفعوا مرة أخرى منضمين لبقية الركب على حين قامت مجموعة أخرى غيرها فورًا بالشىء ذاته ، وكانت مهارتهم الفائقة فى التحكم فى خيولهم جميلة حقًا ، كما كان للطريقة التى يناورون بها ببنادقهم الطويلة عن طريق تدويرها بصورة متكررة أثرًا رائعًا للغاية . وعلى مقربة من الباشا كان سيدى على Sidy Ali يمتطى جواده ، وسيدى على هذا هو ابنه الثالث على الرغم من أنه الثانى فى ترتيب من سيخلفونه فى الحكم بسبب نفى وإبعاد الابن الأكبر ، وكان يحيط بالباشا كذلك حرسه الخاص من العرب والذين لم يكونوا مميزين عن غيرهم بمظهرهم العالى المقام والمميز فقط ولكن عن طريق بورنوساتهم المميزة المزينة بالرسومات والأشكال والمصنوعة من الموسلين وهو قماش قطنى رقيق ، ويعد سيدى على الابن الأثير لدى الباشا وكان يتسم بالوسامة الشديدة وكان بدينًا للغاية ويقال إنه يشبه الباشا حينما كان فى عمره – وكان يتمتع بحرية و مزايا كبيرة والذى برهن عليه قوله منذ يومين لأبيه " لسوف أخلفك فى منصب الباشا " وقال الباشا " ماذا تعنى ؟" " كيف؟ " " لماذا ؟" – فقال "عن طريق أن أحذو حذوك و أفعل الخطوات نفسها التى فعلتها أنت بنفسك .." .

رسائل عن طرابلس «تأليف فايدى تالى Vide Tully» :

ولقد تمت دعوتى مع زملائى لتمضية يوم بعد حوالى خمسة أميال من طرابلس فى حديقة يمتلكها محمد دغيث Mohamed D'Ghies والذى أحضرت له رسائل من ابنه الذى كان مقيمًا فى لندن و هو الأمر الذى قدره واحترمه فىّ محمد دغيث ، وقد كان هذا السيد العجوز وزيرا للشئون الخارجية للباشا إلا أنه تقاعد من منصبه لبعض الوقت بناءً على شكاية ضده كما يقول ، وهو رجل محترم للغاية و يحمل عطفًا كبيرًا نحو جميع الأجانب الذين يزورون طرابلس ، ومعروف على نطاق واسع فى جميع أرجاء شمال أفريقيا لدرجة أن خطابات الائتمان التى كانت تصدر عنه كانت تلقى كل تكريم واحترام ، فلا شيء يمكن أن يفوق كرمه فى الضيافة وحسن الوفادة الذى حظينا بهما . وبعد أن أترفنا ومتعنا أنفسنا بتناول الشربات والقهوة والتبغ مرات عديدة طوال اليوم وتناولنا العشاء الفاخر المسمى التورك "Turque" فى بستان الليمون والبرتقال عدنا فى المساء إلى طرابلس ونحن على أسعد حال لما قد لاقيناه خلال يومنا هذا .

لقد تم وصف طرابلس مرات كثيرة جداً ومن ثم فإننى سأتجاوز عن وصفها الآن ، كما أن يهودها وعربها ومغاربتها ومرابطيها وعبيدها وعائلة الباشا قد تم وصفهم جميعًا وصفًا ينبض بالحياه فى رسائل " تالى Tully "بحيث ليس هناك أى ضرورة لأى إضافات أو ملاحظات منى كزائر لفترة مؤقتة ، كما أنه ليس فى نيتى أن أدخل فى وصف دقيق للبلاد الواقعة بين طرابلس Tripoli و مرزوق Mourzuk والتى لا يبدو الجزء السطحى منها مختلفًا اختلافًا ضروريًا أساسيًا عن تلك البلاد الواقعة بين مرزوق وبورنو Bornou ، والذى لاحظه بالفعل القبطان ليون Lyon فى الرسائل المرسلة إلى الجمعية الأفريقية .

وفى الخامس من مارس ١٨٢٢ رحلت عن طرابلس متجهًا إلى بينيوليد Benioleed .

والتلال تركيبة هامة جداً و يرجع هذا لأن الارتفاع لا يتجاوز ٤٠٠ قدم ، والحجر الجيرى هو الصخر الغالب ، وعلى الجانب الشمالى فإن كل سلسلة التلال وحتى إلى الداخل بنحو الميل من الطرف الغربى – من الحجر الجيرى ، ففى تلك النقطة أو فوق الحجر الجيرى توجد طبقة سميكة من الحجارة الخضراء العمودية الشكل مع طبقات

سميكة من الحمم البركانية اللوزية الشكل . وعلى الجانب الجنوبى فإن أغلب التلال تكون قممها مغطاة بالحمم البركانية وبالحجارة الخضراء العمودية الشكل ، ولها تركيبة مماثلة للتركيبة التى وصفتها إلا أنه ليس باختلاف كبير يستحق الملاحظة ، وتشكل قمم التلال على هذا الجانب سهلا كثيفًا أسود اللون و لها شكل كئيب موحش ومغطى بحجارة متناثرة عليها ، وتمتد صوب الشرق إلى أقصى ما تصل إليه العين وتظهر أو تبدو الطبقة العلوية أو كما أطلق عليها "الحمم البركانية" كما لو كانت طبقة تركها سائل متدفق ، ومن ثم فإنها ذات تكوُّن حديث من الطبقة الصخرية التى توجد تحتها ، ولا تتعدى هذه الطبقة فى شكلها إلا أقدام قليلة فتمتد على الطبقة الصخرية التحتية ، وتنخفض الصخور فى اتجاهات عديدة إلا أنها عمومًا ما تكون بزاوية ١٨ درجة .

أما جبل جولات Gulat فهو أعلى تل نراه حتى الآن و يبلغ ارتفاعه حوالى ستمئة قدم ، وقمته مسطحة وجوانبه شديدة الوعورة وعدد مذهل من القطع المنفصلة ، وأخفض طبقة مكشوفة هى التوفا " وهو حجر مسامى" من الطبقة الكلسية الجيرية والتى تحتوى على أصداف بحرية وأكثرها هو من نوع المحار والبفلينوس (نوع من الحيوانات الرخوية فى كل مكان) وفوق ذلك توجد طبقات من كربونات الجير الناعمة مثل الطباشير الأبيض و التى تتحول إلى تراب من أقل لمسة ، وبها كمية كبيرة من السبار (معدن لامع ينقشر بسهولة) وفوق ذلك يتكون فوق القمة رخام ناعم جداً ويمكن أن تؤدى كمية الكتلة الحجرية هذه فى الاعتقاد بأن المسبب فيها أحد الزلازل لوجود تشققات ، والشكل الذى تشكل عليه جانب التل يمتد حوالى ثلاثة أميال طولاً من الشرق إلى الغرب وتعيش فيه أسرة منعزلة مكونة من رجل وزوجته وأبناء كثيرين ، وقد قيل إنه قد أقام فى هذا المكان الكئيب الموحش و القاحل طوال إحدى عشرة سنة ويقال إنه يعيش بشكل رئيسى على النهب والسلب ، وعلى مقربة من نفود Niffud تكون التلال من الجير أو الحجارة الجيرية وتركيبها ليس مختلفًا عن تلال سلسلة ترحومة Tarhoma وبجوار هذه السلسة الطويلة يوجد عدد من التلال المخروطية الصغيرة من مادة رقيقة شبيهة بالطباشير الأبيض وتبدو كما لو كانت حديثة ، ويمكن ملاحظة الركامات الكثيرة من الحجارة التى تكون أماكن دفن وقبور المسافرين التعساء الحظ الذين تم قتلهم هناك – كما قيل لنا – عن طريق الصخور المعلقة المتدلية ، وحينما كنت أقوم بفحص

الصخور تبين لي أن أكون مدركًا أن وجودي به بعض الأيك (مفرد أيكة) والغياض (مفرد غيضة) الكثيفة والتي تنتشر بها أشجار الصمغ العربي ونبات يشبه نبات الميسبيلاس مع بعض نباتات التوت القابضة الصغيرة يسميها الأهالي " بوتومو butomo " .

ولقد تركنا الوادي عن طريق ممر إلى الجنوب و دخلنا سهلاً كثيفًا يسمى أمبولام وفيه واصلنا الترحال طوال اليوم و لا يوجد أثر لأي حياة نباتية Ambulum(*) .

وعليه فليس هناك مكان تكون فيه الأرض مغطاة تمامًا باستثناء عدد قليل من الواحات الصغيرة وتوجد فيه نوع من الأعشاب من جنس الفستوكا ، ولقد وجدنا بعض القطع الجميلة من اليشب (حجر كريم) معرى ومكشوفًا وبعض القطع الصغيرة من العقيق الأحمر (حجر كريم) ، و لم تتح لنا أي فرصة لدراسة أي من ذلك ، لكن الكتل المتناثرة تشبه الحجر الجيري ، ويتسم وادي بونجيم الذي مررنا عليه "Bonjem" بخصائص مختلفة عن أي خصائص أخرى في أي أودية أخرى قد مررنا عبرها ، وهذا الوادي يقع ممتداً مع أصداف عديدة من البكتين ، وتوجد هنا وهناك رمال وقشور وطبقات خارجية عديدة من الكربونات المختلطة ببلورات الكبريت والجير وهو ما يعطي للسطح مظهراً أبيض لامعًا وهو الأمر الذي بدلاً من أن يكون جيداً يكون غير مقبول ، وفي هذه التركيبة وجدنا حفرة واسعة كبيرة يصل عمقها إلى حوالي أربعين قدمًا ويصل قطرها تقريبًا إلى هذا القدر وتحاط هذه التلال الصغيرة بتلال أكثر علواً منها وذات لون بني داكن ، وهناك تلال عديدة من هذه التلال المنخفضة ، بعض منها يكون منفصلاً إلا أنها بصورة عامة تكون في سلاسل قصيرة ومن على مسافة تشبه كثيراً التحصينات ، فيبلغ مقدار الضغط الجوي ٣٠ , ٠٢٠ ، ودرجة الحرارة ٧٢ فهرنهايت ، وينمو بالقرب من عيون الماء وآبارها نباتات من العائلة القصبية بوفرة ولها جذور طويلة متعرشة متسلقة وهي الجذور الحقيقية الأولى من ذلك النوع التي أراها في حياتي في شمال أفريقيا .

(*) بينيبو ليد هو وادٍ خصيب محاط من جميع الجوانب بتلال بنية اللون على نحو ضارب للون الأبيض ومغطى في أماكن عديدة بحجارة خضراء اللون وحمم بركانية لوزية الشكل أو حويصلية الشكل وقرى وعرة وقلاع خربة كالأطلال في كل مكان ، بعض منها يعلوه الحجارة الخضراء العمودية الشكل ونادر وصعب تميزها .

وبالقرب منها مكثنا بالوادى أحدها كان منفصلاً عن الطريق وكان له شكل غريب وكان يطلق عليه الأهالى "تجويف باذين bazeen" و هو يبلغ حوالى أربعين قدمًا فى الارتفاع(*) .

وبعد أن مررنا بوادٍ صغير و بمجموعة من أشجار النخيل سرعان ما وقعت أعيننا على سوكنة "سخنة" وقابلنا على السهل الذى يوجد به هذا الوادى الحاكم ومعه الكبراء والوجهاء وعدة مئات من أهل البلاد الذين تجمعوا جميعًا حول خيولنا وهم يقبلون أيدينا ويرحبون بنا بكل إخلاص وقناعة ، وبهذه الطريقة دخلنا المدينة . وقد تكررت كلمات مثل " إنجليسى ! إنجليسى " من مئات الأصوات من ذلك الحشد وقد بدا لنا ذلك أمراً مُرْضيًا للغاية نظرًا لأننا كنا أول رحالة إنجليز فى أفريقيا ممن رفضوا أن يخفوا شخصياتهم بالتنكر فى ملابس أهالى البلاد التى كانوا يذهبون إليها ، وأول من صممنا على أن نسافر بشخصياتنا الحقيقية كبريطانيين ومسيحيين وأول من يرتدون فى جميع المناسبات ملابسهم الإنجليزية ، لن نأسف فى أى فترة مستقبلية على أننا فعلنا ذلك .

ولم يكن هناك أى غيرة أو ريبة فينا كمسيحيين بل على العكس من ذلك فإننى على قناعة تامة بأن استقبالنا كان سيكون أقل وداً وحميمية لو تنكرنا فى أى شخصية أو جنسية أخرى ، وفى محاولة جعل أنفسنا كمسلمين لكان الناس قد اعتبرونا دجالين و محتالين حقيقيين .

وتتميز سوكنة بنوعيات ممتازة من البلح والذى يتوافر بكميات كبيرة ، وقد تم تزويد حيواناتنا بكميات كبيرة من هذه الفواكه ، وبعد اليومين الأولين أصبحت هذه الحيوانات تأكلها تقريبًا مثل القمح ، ولابد أن عدد السكان لسوكنة يزيدون كثيراً عن ثلاثة آلاف نسمة و لهذه البلدة أسوار تحميها وتبلغ حوالى ميل فى محيط دائرتها ولها

(*) ومتكون أعلى قشرة كلسية جيرية وسلفات الجير وأسفل طباشير ناعم . وكانت السلسة الأعلى ارتفاعًا ملحوظة على كل جانب وقد قابلنا مجموعة من المساكين فأجابوا عن أنفسهم ببساطة شديدة «السودان بيغارمى قنيم Kanem ، Begharmi ، Soudan » وقد تبين من حديثهم أنهم أجزاء مختلفة من كل بلد – وكان أولئك القادمون من السودان لهم المعالم الجسمانية الأكثر تناسقًا وتعبر عن سيماء وملامح جميلة بشكل لافت .

ثمان بوابات ، وهى فى مجموعها تتمتع بمظهر جميل ونظيف أدهشنا كثيراً ، وتتميز نساؤها بجمال خلاب ، ويقال أنهن معروفات بحبهن للخداع والمكر ، وقد يصح هذا أو لا يصح ، إلا أنه لم تتح لنا الفرصة للتأكد من ذلك ، إلا أن لدينا أدلة وإثباتات عديدة على حسن عشرتهن ودماثة أخلاقهن وروح الدعابة التى يتمتعن بها . وحينما كان اثنان منا يمشيان عبر شوارع تلك البلدة صبيحة أحد الأيام وخلفنا جيش صغير من الصبية الذين يرتدون أسمالا بالية يمشون وراءنا قامت اثنتان تبدوان على مستوى اجتماعى جيد بتفريق هؤلاء الصبية بسرعة ودعتانا للدخول إلى أحد المنازل قائلتين لنا أن هناك " مرا زينى" أى " امرأة جميلة" ترغب فى رؤيتنا ، وقد ذهبنا معهما ودخلنا منزلا جميلا وسرعان ما أحاط بنا عدد لا يقل عن نصف دستة من السيدات أغلبهن كبيرات السن ولكنهن وجهن لنا عشرات الأسئلة وحينما أجبنا عليها تبين لهن أننا لسنا خطرين ومن ثم استدعين سيدات كثيرات أصغر سنًا واللائى بدا عليهن أنهن كن ينتظرن إذنًا بالدخول ، وحينئذ تم فحصنا و ملابسنا فحصًا دقيقًا وقد أثارت الأزرار الصفراء الموجودة على صدريتنا وكذلك الساعات التى كنا نرتديها أكبر دهشة لديهن كما أثار السروال الأبيض الفضفاض الذى كنت أرتديه والذى وضعت يدى فى جيوبه بالمصادفة فضولهن إلى درجة عجيبة – وتم جذب يدى من هذه الجيوب وبدلاً منها اندفعت ثلاث أو أربع سيدات بوضع أيديهن فيهما وحل محل هؤلاء السيدات سيدات أخريات وأخذن جميعًا يطالبن بصوت عال وبعنف أن يستخدموها مما اضطرنى إلى أن أقف وأشق طريقى إلى الخارج سعيداً بهروبى منهن .

وتتشابه ملابس النساء فى سوكنة مع ملابس نساء طرابلس حيث يرتدين قمصانًا مقلمة أو مخططة من الحرير أو الكتان و أقراط فضية كبيرة فى آذانهن وأسورة أعلى الذراعين وأسورة بالأرجل (خلاخيل) من الفضة كذلك ، وترتدى النساء من الطبقات الأدنى هذه الأشياء كذلك لكنها تكون مصنوعة من الزجاج أو القرون .

وقد أمضينا النصف المتبقى من رحلتنا إلى مرزوق على النوع نفسه تقريبًا من الأسطح التى مررنا بها وإن كان فى بعض الأماكن أسوأ ، وأحيانًا كنا لا نجد ما نحتاجه من الماء لمدة يومين ومرة واحدة لم نجد الماء لمدة ثلاثة أيام متتالية ، وكان هذا الماء بصورة عامة طينى ومر الطعم ومالح قليلاً إلا أن هذا ليس أسوأ شىء يواجه الرحالة ،

وكثيراً ما تؤدى القوة الشديدة العاتية جداً لريح رملية مفاجئة حينما نكون فى نهاية الصحراء تقريبًا إلى تدمير قافلة بأكملها والتى كان قد حل بها التعب بالفعل ، وقد أوضح أدلتنا لنا مكانا تنتشر فوقه عظام و جثث جافة حيث أنه وفى العام السابق هلكت خمسون شاة وجملان واثنان من الرجال من العطش والتعب حينما كانوا على بعد ثمان ساعات سيرا من البئر التى كنا نبحث عنها بشوق .

وبالطبع فإن العاصفة الرملية التى كان من سوء حظنا أن نواجهها عند عبورنا الصحراء قد أعطتنا فكرة صحيحة جداً عن الآثار المرعبة لهذه الأعاصير ، و قد أثارت هذه العاصفةُ الرمالَ الناعمة التى كانت تغطى الصحراء الواسعة ، و بعد ذلك ملأت الجو وجعلت من الصعوبة الكبيرة بمكان أن ترى العين من الفضاء الرحيب أمامها سوى ياردات قليلة ، وقد حجبت الشمس والسحب تمامًا وصاحب حبات الرمال ثقل شديد وخانق والذى كان علينا أن نخترقه فى كل خطوة ، وأحيانًا كنا لا نرى تمامًا الجمال على الرغم من أنها لم تكن تتقدمنا سوى بضع خطوات وقد قامت الخيول بتدلية ألسنتها خارج أفواهها ورفضت أن تواجه سيول الرمال ، وانبطحت على الطريق شاة كانت تصاحب القافلة وهى آخر ما تبقى لنا من نوعها وقد اضطررنا لذبحها وألقينا بها ، ولقد عانينا بشدة من العطش الذى لم يلطف منه أى شىء ، وقد كنا قطعنا مسافة قصيرة فى حوالى الساعة الثالثة عصراً وحينما اتجهت الريح نحو الشرق وأنعشتنا نوعًا ما ، ومع هذا التغيير واصلنا السير حتى حوالى الخامسة مساءً حينما توقفنا ، وقد توفرت لنا حماية بدرجة ما عن طريق ثلاث سلاسل من التلال غير المنتظمة حيث كان بعض منها مخروطى الشكل وبعضها الآخر كسطح المنضدة ، ونظراً لأنه لم يكن لدينا إلا القليل من الخشب اقتصر طعامنا على الشاى وأملنا أن نجد بعض الراحة مما كنا نحس به من تعب عن طريق نوم عميق ، إلا أنه حتى ذلك لم يتوفر لنا حيث تهاوت أوتاد خيمتنا وأصبحنا مكشوفين ومعرضين للريح الشرقية والتى هبت كالأعاصير خلال الليل . وقد طارت خيمتنا و ظللنا لساعة كاملة نسعى لإصلاح ما حل بها مرة أخرى ، وخلال ذلك انطمرت فرشتنا وكل شىء بداخلها تمامًا تحت الرمال بسبب القوة الشديدة للرمال والرياح ، واضطررت للاستيقاظ خلال الليل ثلاث مرات بغرض تقوية الأوتاد ، وحينما صحوت فى الصباح كان هناك كومتان كبيرتان من الرمال قد تراكمتا على كل جانب من رأسى وترتفعان عدة بوصات (البوصة = ٢,٥٤ سم) .

وفى السابع من شهر أبريل وصلنا إلى قرية فى وسط منطقة واسعة مزروعة بأشجار النخيل والتى لا تبعد عن مرزوق سوى مسيرة يوم واحد ، وحيث إن ذلك كان هو السير الذى سنسيره فى آخر يوم لنا فقد كنا جميعًا نتمتع بروح معنوية عالية على رجاء الراحة ، ولو كنا قد اتخذنا ترتيباتنا بصورة تقديرية لكان كل شيء سار على ما يرام ، إلا أننا تجاهلنا أن نبعث طالبين النصيحة من سلطان المنطقة التى كنا سنصل إليها وهى عادة معروفة ، ومن ثم فإن الرؤية التى كانت متاحة أمامنا لم تكن هى الرؤية التى كان يجب أن تكون .

وحينما لم نجد ماءً فى البئر اضطررنا لمواصلة السير ولم نصل إلى الآبار القريبة من مرزوق قبل الثالثة عصرًا و هنا اضطررنا للانتظار كى نريح الجمال ، ولم يخرج أحد لمقابلتنا فيما عدا بعض الصبية العراة أجسامهم وخليط من التبووس **Tobboos** والطوارق والفزانيين **Fezanese** والذين كانوا ينظرون إلينا بدهشة ولا شيء بهيج ، ولقد عقدنا العزم ألا ندخل هذه البلدة بطريقة مهينة نوعًا ما لأولئك الذين كنا نمثلهم ، واسترحنا فى أرض مرتفعة تبعد مسافة قليلة عن بوابات البلدة وانتظرنا عودة الجاويش (الضابط) الذى تم إرساله لإعلان وصولنا و بعد تأخير قدره نصف ساعة خرج شيخ البلد وطلب منا باسم السلطان أن نرافقه إلى المنزل الذى تم إعداده لنا وأضاف لدهشتنا أن القنصل الإنجليزى هناك بالفعل ، وكانت الحقيقة أن خادمًا يهوديًا يبدو على محياه المرض – وهو أحد خدمى – امتطى بغلة بيضاء وأسفل منه مزادتان (المزادة هى حافظة للماء وغيره) صغيرتان وسبعة جمال ودخل البلدة وتم استقباله باحترام عظيم من قبل جميع سكانها ، وتم إرشاده عبر شوارعها للوصول إلى المنزل الذى تقرر أن نصل إليه كى نمكث فيه ، ومن حالة المزادتين اللتين كانتا جميعًا مغطاتين بمسامير لامعة من النحاس الأصفر جاءته وخطرت على باله فكرة جيدة وقد تلقى جميع مظاهر الاهتمام والترحيب وهو صامت ، وشرب الماء البارد واللبن الذى تم إعطاؤه له، وبعد ذلك ضحكنا جميعًا منهم بعد ذلك لإظهار كل هذا الكرم والاحترام لشخص إسرائيلى وهو جنس كانوا جميعًا يحتقرونه احتقارًا شديدًا و قالوا "لقد اعتقدنا أن الإنجليز أحسن شكلاً من اليهود – الموت واللعنة عليهم ! – إلا أن الله خلقنا جميعًا على الرغم من أن الجميع ليسوا حسنى الطلعة والمنظر كالمسلمين" ونظرًا

لأننا تعرضنا فى هذه المرة إلى الشمس الحارقة فقد ملنا أن نقبل بحل وسط يضر نوعًا ، باعتزازنا بأنفسنا واعتزمنا أن ندخل البلدة ، وهو ما فعلناه عن طريق البوابة الرئيسية ، وكانت أسوار البلدة مبنية بناءً جيداً وكان ارتفاعها لا يقل عن عشرين قدماً وكانت البوابة واسعة بما فيه الكفاية كى تتسع لدخول جمل محمل مع الحرص فى إدخاله فإنك تمر عبر سوق "فسيوج" و هو سوق للعبيد و هو عبارة عن شارع رحيب متسع تقع على جانبيه منازل و يمتد طوله إلى ثلاثمئة ياردة (الياردة حوالى ٩٠ سم) وهو يؤدى إلى مساحة خالية مكشوفة توجد فى وسطها قلعة محاطة بسور ثانٍ وبداخل هذا السور الداخلى فى فناء القلعة توجد عدة بيوت قليلة تم بناؤها فى الأصل للمماليك **Mamelukes** وأتباع من خاصة السلطان الراحل حينما كانوا معرضين لهجمات يشنها العرب عليهم أحيانًا ، وفى أحد هذه البيوت وهو البيت الذى كان يشغله الراحل السيد ريتشى **Ritchie** والقبطان ليون **Lyon** تم اتخاذ الترتيبات لاستقبالنا وبمجرد أن تم تفريغ الجمال قدمنا احترامنا إلى السلطان وقمنا بزيارته احتراماً له .

ولقد استقبلنا بحسن الاحترام والترحاب وجعلنا نأخذ انطباعًا جيداً عنه ، والذى على الرغم من ذلك أدى تصرفه اللاحق أن يقوى هذا الانطباع بدرجة ما ، ولقد كانت مقابلتنا مع سلطان مرزوق أى شىء فيما عدا التشجيع – لقد ذكر لنا أنه ليست هناك نية كما توقعنا أن تتجه أى حملة صوب الجنوب لفترة زمنية مقبلة، وأنه لا يمكن لأى جيش أن يتحرك إلا فى الربيع من كل عام، وأن الترتيبات لنقل مجموعة من الرجال عبر البلاد والتى يجب أن يتم عمل أى شىء ضرورى فيها على الجمال وأن هناك حاجة إلى جملين لكل رجل و حصان واحد لكل رجلين يمشيان سيراً على الأقدام ، وفيما يتعلق بمواصلة رحلتنا إلى بورنو كان يجب أن يكون من الضرورى أو كان الباشا قد أعلمه أنه سيجعل قوة ترافقنا كحماية تبلغ مئتى رجل، وقد ذكر أنه سوف يقرأ على مسامعنا رسالة الباشا، وأنه ينبغى أن نرى المدى الذى يمكن له أن يعجل بحدوث وتحقيق رغباته و تم تسليم الرسالة إلى فقيه أى سكرتيره، وقد وعدنا أن يعهد بحمايتنا إلى سلطان فزان **Fezzan** والذى سيكون مسئولاً عن أمننا ، وأن يتأكد من أنه تتم معاملتنا باحترام واهتمام من قبل جميع رعاياه ، وأننا سوف نقيم فى شبحة **Shebha** أو مرزوق أو حيثما نرغب فى مملكة فزان وننتظر عودته من طرابلس ، ولهذا انتهى حديثنا وعدنا إلى مساكننا .

وبالطبع من المستحيل التعبير عن المشاعر المثبطة للهمة التى كنا نشعر بها عندما تركنا القلعة فكانت الحرارة ٩٧ فهرنهايت والليالى لا تخلو من الذباب والمنغصات ، وتذكرنا جميعًا السيد ريتشى المسكين ، وعلى الرغم من الترتيبات التى استطعنا اتخاذها من أنه قد تم تزويدنـــا بكل الضروريات التى تلزمنا من أولئك الذين ذهبوا قبلنا فقد تلقينا زيارات من جميع الشخصيات الهامة التى تعيش فى مرزوق بعد يوم وصولنا ، وحينما لاحظت رجلاً طويلاً جداً من الطوارق ذا عينين واسعتين بهم الخير والطيبة من فوق القناع الأسود الذى يتشح به – يحوم حول الباب أشرت له أن يقترب وتساءلت عن "حاتييته Hateeto " وهو الزعيم الذى تحدث عنه القبطان ليون باحترام والذى بناءً على طلبه أصبحت من حاملى السيوف ، ولدهشتى الشديدة فقد ضرب على صدره بيده و صاح "إننى حاتييته" هل أنت من بلاد سعيد (الاسم الذى كان يستخدمه ليون فى أسفاره) Said كيف حاله ؟ لقد اشتقت كثيراً أن أسمع أخباره لقد افتقدته كثيراً – وقد وجدت حاتييته لم يذهب إلا مرة واحدة إلى مرزوق منذ رحيل القبطان ليون وأنه سيبقى بها الآن لبضعة أيام قليلة فقط ، وفى صبيحة اليوم التالى جاء إلى المنزل وأهديته السيف الذى كان معى ومن الصعب وصف فرحته فقد سحب السيف وأعاده مرات ومرات وضغطه على صدره وصاح "الله ! الله!" وأخذ يدى وضغط عليها وقال "كتر خيرك يا سور يا سور" أى شكراً "شكراً جداً جداً" وهذه الجملة هى كل ما استطاع تحدثه باللغة العربية تقريبًا ، وبعد ذلك انتشر هذا الخبر فى جميع أرجاء البلدة كلها بأن حاتييته تلقى هدية من سعيد تساوى مئة دولار .

قام أناس كثيرون بزيارتنا وارتفعت آمالنا وأرواحنا ومعنوياتنا وقد قال إن من سلطة السلطان أن يرسلنا إلى بورنو Bornou إذا كان يرغب فى ذلك بل إنه حتى ألمح أن رشوة لنفسه قد تحثه على عمل ذلك ، إلا أننا لم نجد أن الأمر ليس على هذا النحو، وقد تقرر أن يصحبنا بوكالوم Boo-Khaloom وقد كان حقًا تاجراً واسع الثراء والنفوذ بدرجة كبيرة فى المناطق الداخلية ، وقد كان على وشك أن يبدأ السفر إلى طرابلس ومعه هدايا للباشا .

وكان لديه خمسمئة عبد وهم أحسن ما استطاع جلبه بالإضافة إلى أشياء أخرى وقد ذكر لنا سراً أن هدفه الرئيسى من الذهاب إلى طرابلس هو محاولة عزل سلطان

فزان الحالى ، ورغب منا أن نقدم طلبًا إلى الباشا نيابة عنه لمرافقتنا بعيداً داخل المناطق الداخلية إلا أننا لا ينبغى علينا أن نلمح لهذا الاقتراح على أنه اقتراحه ، وقد قال بوكالوم بأنه سوف ينضم إليه فوراً ما يزيد على المئة تاجر من الذين كانوا ينتظرون ذهابه وأنه ينبغى عليه أن يبقى لمدة أسابيع قليلة فقط وعند عودته يمكننا أن نتحرك فوراً وقد قمنا بنقل كل هذا الكلام إلى الكولونيل وارينجتون Warrington .

وقد رحل بوكالوم من مرزوق متجهًا نحو طرابلس ومعه عبيده وهداياه بحمولة تبلغ ما يزيد على ثلاثين جملاً ، وعلى ما يبدو كانت له علاقة جيدة مع السلطان ، إلا أنه قد أصبح من المعروف جداً أن السلطان مصطفى Mustapha قد كان يسعى أن يقطع رأس بوكالوم عند وصوله إلى طرابلس وأن الآخر كان عازمًا على التضحية بكل ما يملك لإقصائه عن منصبه وأن يدمر الحظوة التى يحظى بها مصطفى لدى الباشا ، ولم يحدث قبل اليوم الثامن عشر أن السلطان بدأ رحلته إلى طرابلس وقد سارت جميع جماله ومن برفقته فى أقسام لمدة ثلاثة أيام سابقة ومن حيث العبيد كان له وحده أكثر من ألف وخمسمئة ويخدمه عشرة فرسان .

وليس هناك أى شىء يمكن فعله الآن سوى أن نقوم باتخاذ ترتيباتنا كى نبدأ بشكل جيد الربيع التالى ، وبعد رحيل السلطان تم سحب كل الأساسيات الخاصة بمواصلتنا للرحلة من المكان الذى كنا فيه ، ولم يتم جلب أى جمال و تم تقديم كل دولار بكل وسيلة من وسائل القوة بانتزاعه من رعاياه إلى طرابلس ومن ثم فقد قرر الجميع أن يتم بعد رحيله بقدر الإمكان حيث كنا نسعى للحصول على الإمدادات من كل نوع .

طلبت مقابلة عاجلة مع الباشا و التى تقرر لى بسبب شهر رمضان حتى مساء اليوم التالى وقد حضر هذه المقابلة معى القنصل القبطان سميث Smyth وهو ينتمى إلى سلاح الأسطول ، وصورت بأقوى الكلمات والعبارات مدى خيبة أملنا الكبير فى التأخير غير المتوقع والمدمر الذى شاهدناه فى مرزوق، وطلبت أن يتم تحديد وقت محدد لمواصلة رحلتنا إلى بورنو قائلاً كذلك إنه إذا لم تكن الإجابة مرضية فإننى سوف أتجه إلى لندن مباشرة كى أصف للحكومة مدى الخداع الشديد الذى تعرضنا له ، وقد أنكر الباشا إخلاله بتعهده عن قصد وأعلن بكل احترام ورزانة أن إرادة الله فى زيارة سلطان فزان أثناء مرضه هى وحدها التى منعتنا من أن نكون الآن فى الطريق إلى بورنو .

وبناءً عليه فقد عزمنا أن نصور لباشا طرابلس مدى ضرورة أنه ينبغى إعطاؤنا شيئا أكثر من الوعود بالنسبة لنقودنا بالجنيه الإسترلينى فقد تركت مرزوق فى يوم الأحد ٢٠ مايو ولم يصحبنى إلا خادمى الزنجى باريا وثلاثة جمال وعربتين وبعد رحلة موحشة والكآبة لمدة عشرين يومًا عبر البلاد الموحشة نفسها التى اجتزتها بالفعل - والذى زاد من كآبتها على نفسى افتقارى إلى رفاقى السابقين - وصلت إلى طرابلس فى العشرين من يونيو حيث استقبلنى القنصل البريطانى بعطفه وكرمه وحسن وفادته وضيافته المعهودة إلى دار القنصلية .

وكانت الرحلة إلى مارسيليا فى طريقى إلى إنجلترا نتيجة للمشادة الكلامية بينى وبين الباشا ، كما أن الاندفاع الذى تم به أخذ القرار بتلك الرحلة ووضعه موضع التنفيذ عن طريق سفينة فرنسية صغيرة والتى كان من حسن حظنا أنها كانت موجودة فى المرفأ فى ذلك الوقت - لم يكن له آثاره الجيدة ، ولقد أرسل الباشا ثلاثة مبعوثين بعدى على ثلاث سفن مختلفة إلى ليجهورن Leghorn ومالطة Malta والميناء الذى أبحرت إليه والذى التقيت به فى الحجر الصحى حيث أبلغنى بأنه تم تعيين بوكالوم ومعه قوة حماية مرافقة لنا لتوصيلنا مباشرة إلى بورنو وقد كان هذا هو كل شىء كنت أتمناه ، وبسرعة عدت مرة أخرى فى رحلة استغرقت سبعة أيام .

حتى وصلت إلى شواطئ باربارى Barbary مرة أخرى وكان بوكالوم وجزء من القوة المرافقة لحمايتنا موجودين بالفعل على المدخل المؤدى إلى الصحراء ، وفى السابع عشر من سبتمبر دخلنا إلى ممر ملجرا Melghra فى جبال تارحونة Tarhona وقد استحوذ كل من الأمل والثقة على عقلى بدلاً من القلق والإحباط حيث كان هناك جو من التوكيد والنجاح فى ترتيباتنا وشعرت بتحسن كبير فى صحتى ومعنوياتى ، إلا أن بعض المنغصات البسيطة التى تصاحب السفر عبر الصحراء قبل وصولنا مرة أخرى إلى سوكنة فى أكتوبر .

ولقد وجدت أن حالة الضعف الكبير التى عرفت بها صديقى بوكالوم قد تحولت إلى أبهى موكب حيث شعر وقتها أنه ممثل الباشا ، فقد كان عازمًا عزمًا مؤكداً أن لا يفوقه أى سلطان من سلاطنة فزان ، وكنت أمتطى جواداً يسير على يمين بوكالوم مرتدياً أحسن ملابسى البريطانية وسروالاً تركيًا فضفاضاً وعمامة حمراء وحذاء أحمر

وبورنوسًا أبيض فوق كل ذلك كمظلة من الشمس . وكانت مقدمة ومؤخرة السرج مغطاة بالذهب .

كانت جموع من النساء والرجال يرقصون ويغنون وكان بين ذلك الأصوات العالية وإطلاق الرجال لنيران أسلحتهم ، و بهذا الاستقبال الرائع دخلنا سوكنة .

وقد وجدنا أنه قد تم تخصيص بيوت لنا في البلدة إلا أن القافلة عسكرت في العراء خارج الأبواب ، وكانت رغبتنا التوقف في سوكنة لثلاثة أو أربعة أيام فتوقفنا لينضم إلينا فريق من عرب المجارحة **Megrarha** والذى تركنا شيخهم عبد الصمد بن ارحومة **Abi Smud Ben Erhoma** لغرض التجمع معنا ، وقد زودنا كذلك كل من حوون **Hoon** وادان **Wadan** بنصيب آخر .. .

وكان منزلى يتكون من فناء مساحته ثمانية عشر قدمًا مربعًا وحجرة صغيرة مظلمة تؤدى إلى ما خارجها عن طريق درجتى السلالم ، إلا أن الفناء كان هو الجزء الذى ينال أكبر قدر من ظل الشمس طوال النهار ، وهنا على السجادة كنت أستقبل زوارى . وقد قام بوكالوم بإرسال كل العرب الذين وصلوا إلىّ وقد جاء جميعهم مسلحين ببنادقهم الطويلة وكان الحزام نفسه الذى يطوقون به وسطهم يحتوى كذلك على اثنين من المسدسات الطويلة .

وكان زعيمهم يدخل ويلقى بالتحية ويجلس على ركبتيه ويلامس اليد اليمنى للغريب بيده اليمنى والتى ينقلها مرة أخرى بعد ذلك إلى شفتاه ثم يقول : "هؤلاء هم رجالى الذين سيدخلون كى يلقوا السلام عليك" وعند الإذن لهم بالدخول كانوا يقتربون منى واحداً بعد الآخر ويحيونى بالطريقة نفسها التى حيانى بها زعيمهم والذى ظل باقيًا بجوارى ، ثم جلسوا بعد ذلك مشكلين نوعًا من شبه الدائرة من حولى وكانت بنادقهم موضوعة بين ركبهم فى وضع قائم ، وبعد وقت وجيز وبناء على إشارة الشيخ لهم غادروا جميعًا وانصرفوا .

وأصبح بوكالوم - والذى كان يعانى بشدة من الحمى والبرد والملاريا - الآن مريضًا مرضًا شديداً ومن ثم فقد كان من الضرورى تأجيل رحيلنا ولكنه أصر على أن أصف له دواءً حيث قال إنه "على قناعة تامة أن بإمكانى معالجته إذا كان من إرادة الله أن يعيش ، وإن لم تكن إرادة الله كذلك فلن يستطيع أى أحد فعل شىء" .

وقد أعطتني ثقته فيّ بعض الثقة في نفسي ولكن لكوني بمفردي وليس معي إلا القليل من الأدوية فبمهارة بسيطة كان موقفي حقًا يدعو إلى القلق نظرًا لأنه لا يمكن لأي شخص أن يتنبأ بما قد تكون النتيجة إن حدث شيء خطير له على يدي .

ولقد أصبح مريضًا بدرجة كبيرة تثير القلق وليومين وليلتين كانت لديّ شكوك كبيرة في شفائه ، إلا أنه ولدهشتي الشديدة في صبيحة اليوم الثالث وبعد ليلة ليلاء من الألم والمعاناة "والتي أمضيتها بجواره أراقبه" – ظهر طفح جلدي عليه مع بعض الرطوبة القليلة والتي نتجت عن تغطيته تمامًا بالبطاطين طوال اليوم وعدم دخول أي أحد عليه سوى جاريته الأثيرة لديه ، وفي المساء أصبح حاله أفضل كثيرًا وكانت "حاجاماد" أو التعاويذ تحظى باعتقاد كثير من العرب حينما يكونون مرضى ولقد تم استخدام جميع الفقهاء "أي : الكتاب" والمرابطين في سوكنة في هذه المناسبة عن طريق أصدقاء أصدقائي وكانت جواربه وطاقيته ملأى تمامًا بهذه التعاويذ وقد أكد لي ونحن بمفردنا أنه لم يكن يؤمن بهذه الأشياء وابتسم حينما قال أن أصحابه سوف يسيئون فهمه إذا ما رفض استخدامها ، إلا أن إيمانه كان أقوى مما اختار الإقرار به ، وعندما عبرت له عن دهشتي جعلني أجلس أولاً و حكى لي القصة التالية :

"سيدي محمد ، الحمد الله لاسمه طلب منه ذلك ذات مرة رجل فقير والذي كانت تجارته تخسر دائمًا وأطفاله يموتون ولا شيء كان يسير على ما يرام معه وقد أخبره محمد" أن الخيول كانت مرتبطة ارتباطا تامًا تقريبًا بمصيره وأنه يجب عليه أن يشتري خيولاً حتى يصبح من ذوي الحظ السعيد" قال الرجل :

وإذا لم أستطع أن أطعم نفسي فكيف يمكنني أن أقدم الغذاء للخيول ؟

أجاب النبي "بصرف النظر عن كونك حيًا أم ميتًا فلن يصيبك حظ طيب حتى تشتري الخيول" . وذهب الرجل الفقير واشترى رأس حصان ميت و هو ما استطاعت كل إمكانياته أن تصل إليه و قام بوضعه على رأسه وأخذ يحلم قليلاً بالحظ الطيب الذي سوف يستمتع به عن طريق هذه الوسيلة ، وقبل أن ينقضي اليوم الأول ولدهشته وسروره الشديدين رأى طائرًا وحول رقبته سلسلة معقودة برأس الحصان وعند صعوده أعلى سطح المنزل لأخذ الطائر وجده جميلاً جمالاً عظيمًا وأن السلسلة كانت

من الماس ولم يمض إلا القليل حتى اكتشف أن الطائر قد هرب من أحد المقربين لأحد السلاطين والذى حينما أعاد الرجل الفقير السلسلة إليه أعطاه مكافأة والتى عن طريقها أصبح ثريًا وسعيدًا" وأضاف بوكالوم إننى كنت هذا الرجل الفقير ..!

وخلال مكوثنا فى سوكنة كان يتم الاحتفال بزفاف ابن أحد الأثرياء فى هذه البلدة وهو الحاج محمدالحير – ترجى el-Hair - Hagi Mohamed Trigge بالطريقة العربية الحقيقية ، وكان هناك شىء فروسى بدائى فى هذه الاحتفالات ، والذى كان أروع من الرتابة الكئيبة لحفل الزفاف فى طرابلس حيث يتجمع من مئة إلى خمسمئة ضيف وجميعهم من الذكور ومغطون بشريط زينة من الذهب ويظلون ينظرون إلى بعضهم بعضًا من مساء اليوم حتى ظهور ضوء اليوم التالى وهو ما لا أستطيع وصفه .

ويتم إعلان أو التبشير باقتراب يوم الزفاف "نظرًا لأن الاحتفال يتم دائمًا بإجرائه فى المساء " وبصورة عامة يكونون خاطبين ومخطوبين وتمت قراءة الفاتحة قبل ذلك بعام – بموسيقا البلدة أو القبيلة .

وحينما يجلس النساء فى أماكنهن وتكون العروس أمام إحدى النوافذ يكون وجهها مغطى تمامًا بالنقاب أو البرقع ، وتتكون ملابس العروس من قمصان داخلية من الحرير ، وشالات ، سروال حريرى ، وبراقع ناعمة لإظهار ثرائها وتتدلى من أعلى سطح المنزل حتى تصل تمامًا إلى الأرض ويتم السماح بدخول الزعماء العرب الشبان لتقديم احترامهم ومباركاتهم وتهانيهم ، وتتقدمهم من السقيفة (أى المدخل) الموسيقا الخاصة بهم .

وهنا ترحب السيدات بزوارهن و يرد الزوار على تلك التحية بوضع أيديهن على صدورهن وهن يتحلقن فى دائرة ويتم إعطاؤهن وقتًا كافيًا كى يتفقدن جمال الحسناوات من حولهن ، إلا أنه تكون هناك بعض الفتيات اللائى يظللن واضعات النقاب التام حول رءوسهن حتى فى هذه المناسبات ، ويتم إعطاء هبة سخية ، وتكون الراقصة الرئيسية مكشوفة حتى يراها الجميع وتمتدح المتبرع بها ويرحب بها المشاهدون حسب المبلغ الذى يهبه وقبل رحيلهم أفرغ جميع الزوار مسدساتهم ،

وعندئذ أخذت النساء تزغردن وتهتفن ، وهكذا وبعيداً عن كونى لم أسعد عندما طلب منى الإذن بتقديم احترامى والتى اعتبروها كرمًا منى وقد أصغى إلىّ العريس على الرغم من أنه لم يُسمح له بالدخول إلينا ، وهو يسير جيئة و ذهابًا إلى منزل عروسه وحينما ينتهى هذا الاحتفال قبل غروب الشمس بقليل تستعد العروس للرحيل من منزل أبيها ويتم إرسال جمل إليها وعليه "جافا" (أى : محفة) مغطاة بجلود الحيوانات وشالات (جمع : شال) من السودان والقاهرة وتمبكتو Timbuctoo ، وتدخل العروس فى هذه المحفة وتضبط جلستها فيها بحيث يتاح لها أن ترى ما يحدث أمامها وفى الوقت نفسه تكون بعيدة تمامًا عن أنظار الفضوليين والمتلصصين ، ويتم السير بها خارج البلدة حيث يتجمع جميع الفرسان والمشاة هناك ومعهم أسلحتهم ، وقد أضفت قوة الحماية المرافقة لنا الشيء الكثير والأثر المهيب حينما كانوا جميعًا بأمر بو كالوم فى هذه الساحة وكان العدد يتكون من ستين من العرب الذين يمتطون ظهور الجياد ، وحينما قاموا جميعا بإطلاق نيران أسلحتهم على قدم جمل العروس خشيت حقا أن تصاب العذراء بسوء ولكنهم لم يصنعوا ذلك إلا كدعابة من دعاباتهم ، ثم بدأوا فى التناوش اثنين اثنين وأربعات أربعات وكانوا يطلقون النار بسرعة كبيرة وعلى مسافة قريبة من "جافا" العروس : وبهذه الطريقة ظلوا يفعلون ذلك خلال سيرهم حول البلدة لثلاث مرات . وقد خفف من هذا المشهد أحيانا محاولات العريس الاقتراب من جمل العروس والتى كان يحيط به نسوة زنجيات وبدأت فى الصراخ فوراً قائلات "برا-برا" (أى اخرج) "ما زال شوية" (أى هنال لا يزال وقت) وهو الأمر الذى كان يثير ثائرة المتفرجين وحماسهم، وبطلقات الرصاص الخارجة من البنادق وموكب الفرسان يتم بعد ذلك نقلها إلى منزل العريس والذى من الضرورى أن تبدو عنده مندهشة اندهاشًا عظيمًا وترفض النزول من على الجمل : وتصيح النسوة ويصرخ الرجال ويتم فى النهاية إقناعها بالدخول وبعد تلقى قطعة من السكر فى فمها من يد العريس ووضعها قطعة أخرى فى فمه بإصبعها الجميل ينتهى الحفل ويتم إعلانهما زوجًا وزوجة .

وخلال هذه المراسم البهيجة قطعت إصبع الإبهام وإصبع السبابة بسبب انفجار المسدس من يد أحد العبيد المحررين من عبيد الباشا - والذى كان عائداً إلى بورنو - ومن المدهش أن هذا لا يحدث كثيراً رغم أن بنادقهم ومسدساتهم من الصناعة

الفرنسية الرديئة كما أنهم يحشونها بالرصاص تقريبًا حتى الفوهة، وبدأ جميع العبيد من القلعة فى الصراخ الشديد بسبب ذلك وتجمعوا حول حصانى وهم ينادون "دواء – دواء" ولم أستطع أن أفعل شيئًا حيال ذلك فى تلك اللحظة إلا أنه سرعان ما كان قد تم نقله إلى عتبة منزلى وهو يصرخ طالبًا نجدته ، وقد كانت تلك حالة عويصة على ممارس للطب لا يحمل شهادة طبية رسمية إلا أننى قمت بتضميد الجرح حيث قمت أولاً بصب زفت (قار) ساخن على ذلك الجزء وربطت عصابة عليه وربطتها بخيط فى عنقه وبذلك استطعت أن أفعل ما أمكننى فعله و هو الأمر الذى أخشى أن أشوه به سمعة مستشفى القديس بارثولوميو اللندنية .

وكان علينا فى ذلك الوقت أن نمر عبر الجبل الأسود "Gibel Assoud" – يبدأ الجزء الذى يقع أقصى شمال هذه السلسلة الجبلية البازلتية عند الرحيل من سوكنة ، وتوقفنا فى ملاجهى "Melaghi" وهى كلمة عربية تعنى مكان الالتقاء وتوجد مباشرة عند سفح الجبل بئر أجوتيفا "Agutifa" وربما يمكن من هنا رؤية أكثر منظر مهابة وجلالاً لهذه المرتفعات ، وإلى الجنوب يبين الممر الجبلى "نيفداه "Niffdah" قممه المتدلية السوداء اللون والهوة أو الفجوة العميقة والتى يلتف حولها هذا الممر حيث تشبه الكهف الكبير بدرجة كبيرة وإلى الغرب قليلاً لا يبدو ممــــر الجمال والذى يسمى النشكا "El Nishka" أقل صعوبة وشديد الانحدار وتنغلق الجروف الشديدة فى المساحة الفضاء التى تقع أمامها على حين يوجد فى الخلفية الوادى القاحل الداكن اللون أجوتيفا "Agutifa" حيث توجد البئر مباشرةً متدلية عن طريق السلاسل الحمراء من الحجر الجيرى والصلصال ، ويمثل كل شىء هنا صورة قاحلة ، وتوضح الجوانب أيضًا شكلاً مدرجًا وفى حالات عديدة تكون متدلية عن طريق أعمدةٍ مقوسة ومائلة وعمودية وينتج عنها تأثير فريد لا يخلو من العظمة والأبهة وتتكون الطبقة المنخفضة فى جميع هذى التلال من الحجر الجيرى بصورة غالبة ، ويختلط به صلصال ضارب إلى الحمرة وتوجد تلك من نفس النوعية على الحواف .

وحينما تركنا سوكنة فى البداية متجهين نحو مرزوق أخذنى عبد الزليل قبل ذلك إلى منزله وقدمنى إلى أمه وأخته وقد أصر الآن على أخذى معه حيث تعرفت على أخته الجميلة أم الهنا Omhal Henna والتى كانت لديها سلطانية خشبية للحليب ماسكة

إياها بيدها ، والحليب هو أغلى شيء عندهم يقدمونه للضيوف وتقدمت نحوى ممسكة باللبن وقد خالطها بعض الارتباك وهى تناوله لى بكلتا يديها وانحسر من عليها الغطاء الذى كان يحجب ملامح وجهها الجميل : وحينما كنت آخذ اللبن منها وهو الأمر الذى كان سيحول بين التحية الودية التى كان كلانا قد بدا أنه مستعد لها والتى كانت تتكون من أربع أو خمس ضغطات خفيفة باليد ومعها العديد من عبارات مثل "أيش حالك ؟" و "طيب" و "الحمد لله" – قامت بوضع السلطانية على الأرض على حين تمت مراسم التحية والتى تأخذ وقتًا طويلاً فى قرية أفريقية أطول مما تأخذه فى غرفة الاستقبال الإنجليزية بصورة ودية وحميمية ، ولم أتمالك حقا إلا أن أنظر إليها بدهشة وأننى أتمنى أن كانت لى القدرة على نقل فكرة عن صورة لذلك عندما نظرت إلى امرأة .

ومع بقائى للحظات و عيناى مثبتتان عليها فإنها استأنفت التحية قائلة "إزاى صحتك" وبابتسامة سألتنى بسذاجة كبيرة "إذا كنت قد تعلمت خلال الشهرين الماضيين قدراً بسيطًا إضافيًا من اللغة العربية ؟" وأكدت لها أننى قد تعلمت ذلك ، والتفتت حواليها كى ترى إذا كان حول وجهها قالت "أول مرة سمعت فيها بقدومك كانت الليلة البارحة ورغبت أن يذكر العبد ذلك لأخى ، لقد كنت دائمًا أتطلع لقدومك وليلاً نظراً لأننى رأيتك أحيانًا ليلاً – إنك أول رجل ألمس يده ، إلا أن الجميع يقولون أنك مختلف عنا نظراً لأنك من النصارى (مسيحى) ، ربنا يهدى قلبك إلا أن أخى يقول أنك لن تصبح مسلم أبداً – أليس كذلك – كى تفرح أخت عبد الزليل ؟ أمى تقول أن الله لن يسمح لك بالمجيء لولا اعتناقك للإسلام " وفى حوالى ذلك الوقت سقط غطاء رأسها مرة أخرى وأخذت يدها مرة أخرى حينما ظهر عبد الزليل على غير توقع ويرافقه حاكم البلدة والذى جاء لزيارتى و قد قطع علىّ ظهورهما الذى حزنت له كثيراً لقائى بأم الهنا والتى دلفت مسرعة كى لا يراها أحد معى و لم أرها بعد ذلك . وتتسم المبانى فى زغرين بأنها أحسن فى بنائها من أية مدينة أو بلدة أخرى فى فزان ، حيث يوجد عمومًا سقيفة وحجرة انتظار ، والحوائط سميكة وقوية متكونة من الرمال والطروب ومبيضة بالجير المصنوع من الصلصال أو طين الأنابيب الموجود فى بعض التلال فى المنطقة المجاورة ويكون السقف مدعومًا بأربع أو خمس من أشجار النخيل، أما النوافذ الصغيرة ذات القضبان المصنوعة من أغصان البلح فهى مبنية فى الوائط وعن طريق

هذه الوسيلة يتم الحصول دائمًا على تيار هواء متجدد ، وليلاً يتم بسط الحصير وينام عليها المغاربة ويتنسمون نسمات الليل الرقيقــة ، أما الجزء الخاص بالنساء فيوجــد فى جانب آخر من المنزل و يفصل الفناء الداخلى هذا الجانب عن الحجرات الأخرى بالمنزل .

وفى صبيحة اليوم التالى تم الاحتفاء بى احتفاء كاملا وتم إعطاء بعض الأشياء كى أقوم بشرائها من السودان ومن بين الأشياء العديدة سيف قديم لأحد الزعماء ، وأعلن رنيوم Ghrneium شاويش ، أن محمد هو الفضيلة والنقاء إلا أن رأيه فيه كان سيصبح أفضل لو لم يأمر بالصيام (من شروق الشمس حتى غروبها) ، وبالإضافة إلى الأشخاص التابعين لنا وأتباع بو كالوم كان لدينا عدد من العبيد المحررين الذين كانوا عائدين إلى بيوتهم ، ويرجع هذا إلى أن الباشا كان قد منح الحرية لعدد أربعة وعشرين عبد من عبيد القلعة وكان هناك من هذا العدد ست عشرة أنثى ، وقام صاحبنا محمد دغيس Mohamed D'Ghies كذلك بتحرير ثلاث نساء شابات ، وجميعهم تحت العشرين وينتمون إلى منطقة بيجارمه Begharmi فى الليلة السابقة على رحيلنا من طرابلس حيث أخبرهم فى وجودى أن أصدقاءه الإنجليز يرغبون فى زيارة بلادهم وكان ذلك هو سبب نيلهم لحريتهم ، وهناك حالات مرتبطة بهذا العمل الذى قام به دغيس تتجاوز مجرد التحرير فقط لثلاث نساء زنجيات فى أتم صحتهن ، والتى كانت تحظى بفخر وتباهى هذا الرجل العجوز الممتاز لدرجة أنه لا يجب أن يتم إغفالها أو تجاهلها ، وكانت هناك فتاتان من هؤلاء الفتيات الثلاث مملوكتين له ، وحينما أعلن لهما عن نيته فى أن يعتقهن ويمنحهن الحرية أخبرتاه أن لهما أخت أخرى تم جلبها إلى طرابلس معهما وتم بيعها مثلهما أو جارية ، إلا أنهما لا يعلمان عنها شيئًا وبعد تحريات كثيرة نجح محمد دغيس فى اكتشاف المشترى الذى قام بشرائها ودفع له السعر الذى حدده لنيلها الحرية ووفر الإمكانيات اللازمة لمساعدتهن جميعًا فى العودة معًا إلى بلادهن مع بو كالوم .

وفى العشرين من أكتوبر وفى بستان لنخيل البلح ، والذى يقع على مسافة قصيرة من بلدة تيمينهينت Temenhint وجدنا قافلة من مرزوق وبعض المماليك Mamelukes الذين جاءوا من دارفــــور Darfoor – واداى Waday وقــد زرتهـــم مع بو كــالوم ،

وكانت خيامهم من الصعب أن تثبت وحكوا عن المعاناة الشديدة التى عانوها وكان اثنان منهم يحملون لقب "بك" وهما محمد بك والذى لا يزال فى ريعان شبابه وكان يتحدث بحماسة والثانى عاى بك والذى بدت عليه علامات الحزن بسبب ما حلت به من مصائب وكان عمره يتراوح بين خمسين وستين عاماً وقد تركوا القاهرة منذ خمسة عشر عاماً .

وقد أمضوا الجزء الأكبر من نفيهم فى دونجالا Dongala أو بالقرب منها ، وعند اقتراب جيش محمد على احتشد ثلاثمئة وخمسون منهم فى دونجالا وقرروا عبور كردفان Kordfan ومن هناك الاتجاه إلى دارفور ، وفى دارفور رفضوا استقبالهم وحينئذ انتقلوا إلى وارا Wara عاصمة وادای Waday حيث تم كذلك رفض السماح لهم بالبقاء ، ولمدة أربعة أشهر متتالية ظلوا يتكبدون معاناة شديدة حيث كان أهالى وادای يرفضون أن يبيعوا لهم أى شىء أو علف لخيولهم – وكانوا قد أخذوا معهم عبيدهم والذين قاموا ببيعهم بالمقايضة مقابل ريش النعام أو أى شىء يمكنهم شراؤه .

وفى وادای عزموا جميعهم إلا ستة وعشرين منهم على مواصلة السير حتى الجنوب إلا أنهم غيروا رأيهم بعد ذلك وأخذوا الاتجاه الذى هناك . وترك الستة والعشرون وادای قبل شهر رمضان (مايو) مباشرةً و اقتفوا آثار الجمال حتى تقابلوا مع قافلة من الفزانيين وهى متجهة إلى مرزوق ، وانضموا إلى هذه القافلة ولكن حينما مروا عبر بلاد تيبوو بورجوو Tibbo Borgoo شرد أحد جمالهم ومزق جريدة من جريد نخلة بلح وبسبب ذلك مشاجرة والتى حاول الفزانيون بلا جدوى أن ينظموها ، كذلك فقد حلت بهم المعاناة حيث هاجم أهالى بوروجو القافلة و طاردوها لخمسة أيام وقُتل خلالها عشرون من المماليك وثلاثة عشر من الفزانيين ، أما الستة مماليك الباقين فإنهم الآن فى طريقهم إلى طرابلس على أمل الحصول من الباشا على الإذن بقضاء بقية حياتهم فى بلاده وقد فقدوا أربعين ألف دولار منذ رحيلهم .

ويصف محمد بك أهالى بوروجو – وادای بأنهم همج متوحشون منحطون يكرهون رؤية رجل أبيض ، ولقد ذكرت له أن نيتى كانت هى أن أواصل السير فى اتجاه دارفور ، إذا ما أمكن وأجاب و هو يضع يدى فى يد بو كالوم " لا تترك هذا الرجل الطيب يا سيدى الرئيس ، إذا كنت تأمل فى العودة " إلا أنه نادراً ما كانت تمر قافلة من دونجالا إلى دارفور، أما إلى بورنو فلم تمر أبداً أى قافلة وقد تم صد جيش مصر مع

تكبده خسائر كبيرة فى دارفور ، ويقول محمد بك أن أهالى هذه البلاد يمكنهم تجنيد وحشد مئة ألف رجل مسلح فى ميدان المعركة مزودين بالمدفعية والهاونات ، وكان بكوات مصر قد أرسلوا إلى ملك دارفور منذ سنوات عديدة مضت ثمان قطع من المعدات الحربية أو المدافع وقد صنعوا معدات أو مدافع حربية أخرى وقاموا بتشغيلها بالإضافة إلى أهالى مصر كذلك ، وقد اتجه الجيش صوب الجنوب واعتزم اجتياح الكردفانيين وإذا لم تصلهم تعزيزات فإنهم سوف يعودون لمصر ، و بناءً على ذلك فإنهم لن يستقبلوا المماليك فى بلادهم وقد تأثرت خططى بدرجة كبيرة من الناحية المادية بسبب هذه المعلومات .

وفى يوم الثلاثاء الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر توقفنا عند سبحة وبقينا هناك حتى يوم السبت الموافق السادس والعشرين ، وجمعنا قوة الحماية المرافقة لنا وجمعنا المؤن والإمدادات الخاصة بنا .

وفى يوم الأربعاء الموافق الثلاثين من أكتوبر دخلنا مرزوق بكل ما استطعنا حشده من استعراض وتباهٍ بما فى حوزتنا وعن طريق هدايا بو كالوم إلى الباشا ولكن بدرجة رئيسية بسبب تعهده بأن يوصلنا إلى بورنو فإنه لم يحظ فقط برضا الباشا ولكنه ترك طرابلس ولديه أدلة وإثباتات قوية على اهتمام وعناية الباشا له ، وقد تمكن بو كالوم والذى كان سخياً بطبعه عن طريق تجارته الناجحة ومنذ فترة مبكرة من حياته أن يشبع و يرضى ميوله الخيرية وقد جعله هذا معروفًا على نطاق واسع فى مرزوق لدرجة أن نصف الأهالى تقريبًا خرجوا لمقابلته على مسافة قصيرة من البلدة وإن لم يكن من بينهم أى واحد من السلطات ، ودخلنا البوابات وسط هياج الأهالى وهتافهم .

وقام العرب الذين كانوا يرافقوننا كقوة حماية بإطلاق الرصاص على حيواناتهم المنهكة للغاية لدرجة أننى توقعت "أن تسقط هذه الحيوانات ولا تقوم لها قائمة بعد ذلك" وليس هناك كائن من الكائنات الحية لا يمكن أن تُساء معاملته بدرجة أكبر من زوجة العربى وحصانه ، ولو كانت التعددية قد انتقلت من فراش الزوجية الى الإصطبل لكانت الزوجات و الأفراس قد استفادت كثيراً بهذا التغيير ، ولم أستطع مقاومة شعور بخيبة الأمل الناتجة من عدم خروج أى أصدقاء لنا لملاقاتنا ومقابلتنا – ولكن نظراً لأن الشمس كانت قوية بدرجة غير مؤذية و نظراً لأننى تلقيت رسالة عن طريق شقيق

بوكالوم من دكتور أودنى Dr. Oudney بأنه على غير ما يرام وأن كلابرتون Clapperton مصاب بالملاريا فإننى لم أتوقع ذلك بدرجة كبيرة ، إلا أننى لم أكن مستعداً على الإطلاق كى أرى أياً منهما على هذا الوضع الصعب ، وقد وجدت كلا رفيقاى وهيلمان Hillman ملازمين فرشهم من الحمى على حين كان الدكتور وهيلمان قد شفيا قليلاً ، وكان كلابرتون لا يزال ملازماً فراشه والذى لم يتركه منذ خمسة عشر يوماً وكان الدكتور أودنى كذلك يعانى من شكوى أو ألم حاد فى صدره والذى نتج عن إصابته بالبرد خلال نزهته إلى غرات Gharaat ولم يكن هناك شىء أسوأ وأكثر إحباطاً من الشكل الذى كانوا يبدون عليه وقد أجمعت آراء الجميع والعرب والطرابلسى وأسلافنا وأجدادانا على أن هواءها غير صحى ، إن تحديد عدم ملاءمة مكان من الأماكن من الناحية الصحية لهو أمر يتجاوز خبرات عقول طبية أكثر خبرة منى إلا أن الحقائق هى أمور لا يمكن إغفالها ، لقد كان السيد/ ريتشى يشعر شعوراً مميتاً مهلكاً بالأثر القاتل لمناخ مرزوق كما عانى القبطان ليون معاناة شديدة خلال إقامته بها ، وكنا جميعاً وبدرجات متفاوتة فى حالة سيئة ، وبين السكان أنفسهم فمن النادر رؤية شخص تبدو عليه علامات الصحة .

وعلى الرغم من أن بو كالوم قد بذل الجهد غايته للخروج من مرزوق بأسرع ما يمكن إلا أن الترتيبات لم تكتمل بسبب كثرة عدد الترتيبات .

وفى الوقت نفسه نظراً لأنهما قد رأيا أن صحتهم سوف تتحسن بسبب تغيير الهواء بحوالى عشرة أيام و قد بقيت متأخرة لحث بوكالوم على التعجيل برحيله واعتقدنا أنه بهذه الوسيلة تفادى أى رغبة قد يكون قد أجلها أو أخرها بسبب شئونه الخاصة حتى ليوم واحد ، إلا أن تحذيرنا كان غير ضرورى نظراً لأنه ليس هناك رجل أكثر منه رغبة وتوقاً لإطاعة الأوامر التى صدرت إليه وتحقيق رغباتنا ، وفى حقيقة الأمر فقد كانت أوامر الباشا حاسمة وقاطعة بسبب احتياجات وشكاوى قنصلنا العام حينما اشتكى من التأجيل الذى حدث من قبل لدرجة أن الأمان الشخصى لبو كالوم اعتمد على هذه الحملة ، و هو ما كان مدركاً له إدراكاً جيداً .

وقد لا يكون من غير المقبول للقارئ إذا ما ذكرت هنا ببعض التفصيل القوة التى كنا نتمتع بها ، وفى عودتى لطرابلس نجحت فى استئجار مرافق لى لمرافقتى إلى

بورنو و الذى كان اسمه الحقيقى هو " ادولفاس سيمبكينز " إلا أنه وبسبب فراره من بلاده اجتاز نصف العالم على إحدى السفن التجارية فقد اكتسب اسم كولومبوس ولقد خدم الباشا سنوات عديدة وكان يتحدث ثلاث لغات أوروبية ويجيد العربية تماماً – وقد كان هذا الشخص ذا فائدة كبيرة لنا و مخلصاً إلا أن حصل من حكومة صاحب الجلالة وعين على أن يرافق رفيقى و زميلى القبطان كلابرتون.

أما العرب الذين رافقونا كحماية فقد كانوا فى خدمة باشا طرابلس والذين رافقونا إلى بورنو و الذين اعتمد نجاحنا تماماً – تقريباً – عليهم بعد أن تم اختيارهم من القبائل التى تتسم بالطاعة الشديدة وقد ازداد احترامنا لهم باستمرار ، وكنا فى كل يوم نزداد معرفة بهم بشكل أفضل كما أنهم لم يكونوا فقط قوة حماية ضرورية بل كانوا يقدمون العون لأى أوروبى يحنو حنونا .

وكان المجارحة منهم الشيخ عبدى (صمد) عبد الصمد والمجارحة فى ذلك الوقت كانوا يقيمون علاقات جيدة جداً مع الباشا وكانوا معافين تماماً من أى نوع من أنواع الجزية بسبب المساعدة المادية التى قدموها له فى القضاء على وليد سليمان و من ثم فإنه ينبغى علىّ أن أفرد لهم بعض الحديث الآن .

وهم يتركزون فى سيريتس بصورة كبيرة حيث يوجد ويبقى فيها عدد كبير منهم دائماً ، وتقوم قبائل منهم ومعهم قطعان حيواناتهم بعمل معسكرات لخيامهم طوال شهور الرعى حيثما يجدون علفاً لماشيتهم وفى أوقات السلام حتى إلى فراسخ (الفرسخ يساوى عدد معين من الأميال أظنه لا يقل عن عشرة أميال) من طرابلس ، وحينما اعتزم الباشا الحالى أن يوجه ضربة نهائية إلى الوليد سليمان عن طريق إبادة قبيلته فقد أرسل مثل أى سياسى داهية بعروض السلام والحماية إلى المجارحة وهم الأعداء القدامى واللدودين للسيبفينوسر ، وفى مناوشتهم التى كانت قد تحدث أحياناً لم تكن هناك بينهم رحمة ولا هوادة ، وعلى سبيل المثال فقد قام أحد أتباع الوليد سليمان بارتشاف ومص الدماء من أحد المجارحة بعد أن سدد له الضربة النهائية القاضية ، وكان يتم حث الأبناء و الأطفال على أن يحذوا حذو آبائهم حتى يتشربوا بكل الكراهية التى شعر بها أسلافهم وأجدادهم و العكس بالعكس ، وقد قبلت قبيلة المجارحة فوراً عروض الباشا وبمساعدتهم منذ حوالى ست سنوات مضت ظل الوليد

سليمان يصارع قوة الباشا حتى الرمق الأخير ، وقد عاد من مصر أحفاد السيفينوس وهم آخر ما تبقى من هذا البيت إلى منطقة قريبة من حدود فزان فى سهل بنجد من تلك النجاد (الأراضى المرتفعة) يسمى حورموت ماحولا و تزعموا أتباع أسلافهم وأجدادهم الباقين (وقد انزوت تحت رايتهم قبيلة اورفيلى وقبائل أخرى عديدة) وقد سار المجارحة من ناحية الشرق لمساعدة الباشا والذى جاء من جانب طرابلس وتمت الإحاطة بالمتمردين و استسلمت قبيلة اورفيلى مع التعهد بدفع جزية باهظة جدا .

وقد أدت هذه الإبادة الكاملة لتلك القبيلة الأكثر عدداً من بين القبائل التى كانت منطوية تحت حكم طرابلس والتى كانت ثرواتها ونفوذها تمتد على نطاق واسع - إلى القضاء على الروح التمردية بين العرب إلى درجة كبيرة وأصبح الباشا يحكمهم بالحديد والنار ولأتفه سبب فإنه يقوم بتعليق رءوس شيوخهم على بوابات قصره فى غضون سويعات قليلة ، وقد جعل من سياسته التى يلتزمها ولا يحيد عنها قيد أنملة الإبقاء على العداوات والخصومات القديمة بينهم وهى الوسيلة التى عن طريقها يمنع ويحول دون اتفاقهم .

أما العرب فقد امتدح الأقدمون ولاءهم وارتباطهم كما أنهم حتى اليوم لا يزالون يحافظون على درجة الوسوسة على العهود التى يقطعونها على أنفسهم ويحترمون أهاليهم وقرابتهم ، وهم مشهورون ومضروب بهم المثل لسرعة فهمهم وفهم ظروفهم وروح دعابتهم وسرعة بديهتهم .

وتحدث أغلب السرقات التى يقومون بها على التجار والمسافرين حتى أن الرحالة قد شوهوا من سمعة كلمة "عربى" فى أوروبا بسبب ذلك ، إلا أنهم بين بعضهم بعضًا يتسمون بأقصى درجة من الأمانة والصدق والالتزام بأصول الضيافة ، وتجاه أولئك الذين يستقبلونهم كأصدقاء فى معسكرهم وخيامهم فإن كل شىء يكون واضحًا ومكشوفًا ولم يعرف أبدًا أنه تمت سرقة شىء ما - ادخل مرة واحدة إلى خيمة عربى وبضغطة على يدك يضمن لك الحماية حتى لو عرض حياته للخطر.

ويتسم العربى دائمًا وأبدًا المن يأكل العيش حيث ما إن يتناول طعامه حتى تكون رابطة قوية من الصداقة لا يمكن أن تنفك بسهولة .

وقد وصف العرب بصدق على أنهم طائفة متميزة من البشرية ، وفى الأراضى الواقعة أو الخاضعة لحكم الباشا لم يخضعوا أو يذعنوا أبداً . أما المحاولات العنيفة للخضوع فغالباً ما حرمتهم من أجزاء من أراضيهم الواسعة وتم إبادة قبائل بأكملها ولكن كشعب فقد ظلوا دائماً مستقلين وأحراراً .

وبالنسبة إلى الأماكن القليلة الخصيبة بنباتات قليلة والتى تسمى "واحات" والتى يسر منظرَ رؤيتها بين الحين والحين الآخر المسافرُ المتعب المنهك والتى تكون أقل من القفور الموحشة فى أرض أوروبية فإن سكانها من العرب الشرقيين ، وتعترض كتل مختلطة ومتكتلة من الرمال الطريق الذى يؤدى إلى تلك الواحات أو الأودية ولا شىء يريح العين ويسرها وهى تنظر على الرقعة الرحيبة الفسيحة إلا فيما عدا ما يقطع المنظر الصحراوى من سلسلة من الجبال القاحلة الكئيبة فلا هناك نسمات باردة ترطب الجو وتنزل الشمس بأشعتها القائظة وتهب الرياح بشدة وعنف وعصف وتجلب معها أكواماً من الرمال تؤدى إلى الاختناق أو قد تبتلع هذه الرمال أحياناً قوافل أو جيوشاً كاملة حيث تدفنها فى أعماقها التى لا دروب فيها .

رحلة قصيرة إلى الغرب من مرزوق

فى يونيو ويوليو وأغسطس ١٨٢٢

قام بها والتر أودنى ، طبيب

فى **يوم السبت** الموافق **٨ يونيو ١٨٢٢** وبعد وقت قصير من شروق الشمس رحلنا من مرزوق **Mourzuk** ، وقد كان برفقتنا نحن الكابتن كلابرتون ، والسيد/ هيلمان **Hillman** وأنا والحاج على أخو بن بوتشر وبن كالوم ومحمد نيابولتان مملوك ، ومحمد ابن جارنا الحاج محمود وقد كانت النية أن نواصل المسير حتى نصل إلى غرات **Ghraat** مباشرة وبذلنا جهداً جهيداً كى نحقق ذلك ، وكانت هناك عقبات وعقبات تعترض سبيلنا من قبل بعض الأفراد فى مرزوق ، وقد جاءنا العديد يلتمسون منا ألا نرحل نظراً لخطورة الطريق وأن الأهالى ليسوا خاضعين خضوعاً تاماً لسلطة الباشا ، إلا أننا قمنا فى النهاية باستئجار جملين من أحد الطوارق **Targee** وهو الحاج سعيد **Said** ولكن لمرافقتنا فقط إلى وادى غرابى **Wadey Ghrurby** .

وكان الطريق الذى سلكناه طريقا رمليا وتتناثر عليه أشجار النخيل وكانت توجد على الأرض أجزاء من القشرة الجيرية وسطح منحدر من كثرة التعرض لعوامل التعرية، وفى منتصف النهار تقريباً وبعد رحلة شاقة مضنية عانينا بشدة فيها من الحرارة القائظة وصلنا الحموم **El- Hummum** وهى قرية معظم البيوت فيها مبنية من جريد النخيل .

وكانت الشمس فى كبد السماء وواصلنا المسير ، وكانت المناطق الريفية تتسم بهذه السمات وفى الثامنة وصلنا إلى **Tessouwa** وكان العدد الأكبر من السكان ينتمون إلى الطوارق **Tuaricks** ولهم سمات المحاربين حيث الملامح قوية ولديهم البنادق الطويلة والمسدسات إلا أن هناك شيئًا ما مهيبًا فى الرمح والخنجر والسيف ذى النصل العريض .

وفى الثامنة تقريبًا رحلنا وقطعنا أودية كثيرة فى سيرنا وهى الأودية التى كان يكثر بها شجيرات الصمغ العربى وعدد قليل من السيول الرملية والحصوية واثنين أو ثلاث تلال بيضاء منخفضة يغلب الطمى عليها ، وفى حوالى الثالثة توقفنا عند ماء عين ماؤها طيب ، وبالطبع فقد كان هناك سهل واسع ومرتفع به سلسلة طويلة من التلال

وكان يمتد من الشرق إلى الغرب تقريبا وكانت المسافة حوالى أربعة عشر ميلا وقد دخلنا إلى تلك المنطقة عن طريق ممر ممتد من الشمال إلى الجنوب وتوجد به فجوات عديدة والتى كانت على مايبدو تتجه إلى أودية أكثر اتساعًا وقبل الوصول إلى التلال وجدنا الناس يحفرون بئرًا ، وكان عمقها ٣٠٠ قدم ، وكانت التلال تمتد هنا وهناك وكانت تركيبتها من الحجر الرملى والتى كانت طبقاته تتسم بالنعومة ، وبها طبقات من طين الأنابيب الأبيض والأزرق اللون وصخور الشب .

وكان هذ الممر يؤدى إلى ممر آخر وهو أجمل ممر رأيناه وهو الجزء الوحيد الذى يقترب من الجمال الذى تركناه خلفنا فى مرزوق ، وهو ضيق ووعر وجوانبه عالية مرتفعة متدلية فى بعض الأماكن ، وتتكون جميع الصخور المكشوفة من الحجر الرملى الاردوازى وبه طبقات رفيعة من صخور الشب ، ويحتوى هذا الممر على جذوع كثيرة الأشجار متحجرة كانت فروعها وأغصانها خارجة منها وكانت الجذوع مشابهة بدرجة كبيرة لجذوع أشجار الصمغ العربى وهى تبدو كما لو كان قد تم قذفها فجأة وبعنف من أعلى ، وعلى مقربة من نهاية الممر يبدأ وادى غرابى والذى توجد به بساتين أشجار النخيل وتلال رملية مرتفعة وكان هذا التغيير مفاجئ ولافت للنظر .

وقد أضاف هذا أثرًا كبيرًا على الممر الذى كنا ننزل من عليه ، وكان للتلال الممتدة من الوادى قمم عالية ووعرة وغير منتظمة الأشكال كما لو كانت قد نتجت عن سبب قوى شديد على الرغم من أن فحصها أو دراستها كانت تبين أنها جميعا قد نتجت عن تآكل الطبقات المنخفضة .

وتتكون التلال من طبقات سميكة من الطين الأزرق والحجر الرملى فى طبقات متبادلة وطبقات من صخور الشب وجميع الأسطح من الحجر الرملى ذات الطبقات الناعمة .

الأربعاء ١٢ يونيو :

تحركنا إلى أعلى لحوالى أربعة أميال وتوقفنا عند قرية صغيرة وهى قرية خرايق Kharaik حيث كنا مررنا فى طريقنا باثنتين أخرتين وكان هذا الوادى ذو البساتين الجميلة التى تعج بأشجار النخيل عبارة عن مساحات من الأرض المزروعة ، وكان يتسم بتوافر المياه به وبعمق آبار وعيون الماء مثلما كان الحال فى مرزوق ، وتحيط

التلال بالوادى من الجانب الأيمن والتلال الرملية من الشمال ويقال إن عدد أشجار النخيل فى القسم الشرقى والغربى من الوادى يصل إلى ٣٤٠ ألف نخلة ، ويمتد القسم الأول من الوادى و الذى يسمى وادى شيرجى من منطقة قريبة من سيبا Seba إلى داخل ثيرتيبا بقليل من الأميال ، أما القسم الآخر فيمتد من نهاية شيرجى إلى أويارى ، وفى المساء رأينا بعض الخطوات التمهيدية استعداداً لإقامة حفل من حفلات الزواج وكانت المرأة تنتمى إلى هذه القرية على حين كان الرجل ينتمى إلى البلدة المجاورة، وكانت هناك فرقة من الموسيقيين تقوم بالرقص والغناء و تحيط بها جميع نساء القرية على حين كان ينطلق بين الحين والآخر وابل من طلقات الرصاص من البنادق ، وكانت هناك امرأة تحمل سلة فى يدها بهدف جمع النقوط لإقامة الحفل ودفع أجور الموسيقيين وقد جاءوا من قرية العريس والتى كانت على مسافة ميل واحد تقريباً ، ولم يكن من المقرر إقامة حفل الزفاف حتى قدوم العيد الذى يعقب رمضان .

ويوجد هنا عدد قليل جدا من النباتات وعلى سبيل المثال يوجد نوع من الأسكليبيوس الذى يخرج منه شبه اللبن ، وهناك نوع آخر ذو أوراق بيضية مقلوبة وقرون صغيرة ومستديرة عند الرأس ونوع من الذاب (نبتة صغيرة ذات أوراق مرة) شذية الرائحة ونوعان آخران من نباتات الفاكهة يشبه أحدهما الفيرونيكا أوزهرة الحواشى ، أما النوع الآخر فلم أر له مثيلا من قبل .

الجمعة ١٤ يونيو :

أحيانا ما يسقط المطر فى الوادى بقدر كافٍ كى يغمر السطح ويشكل سيولا تنزل من على الجبال ، إلا أنه لا يسقط فى فترات منتظمة حيث يفصل بين كل فترة وأخرى ثمان أو تسع سنوات ، ومن ثم فليس هناك ثقة لدى أى شخص فى حدوث أو سقوط المطر . أما شيخ هذه البلدة فهو على وهو تيبو Tibboo ذو أخلاق حميدة وهو فقير جداً ولكنه لطيف ومجامل للغاية ودائما يتسم بروح الفكاهة ، ويتسم هذا المكان بأنه قاحل ومجدب لدرجة كبيرة حتى أنه كان علينا أحيانا أن ننتظر نصف يوم حتى نتمكن من الحصول على زوج من الطيور أو وجبة من البلح أو الشعير لجيادنا ، وكنا نسير باستمرار فى حالة توقع قدوم جمال يرسلها إلينا بعض الأصدقاء كى تنقلنا إلى غرات .

وكان هناك عدد من النمل وهو من نوعية مختلفة عن أية أنواع أخرى رأيتها في شمال أفريقيا ، كان لونه بني لامع يشع بالضوء ومنقط باللون الأبيض الفضي وله زوج قوى من الكلابات (الكلابة هي زائدة شبيهة بالكماشة تكون في أطراف القشريات والعنكبوتيات) مثل مخالب حيوان ، ولقد ذكر أن الخوف أو الرعب الذي يشعرون به من الطوارق غير صحيح وليس له أي أساس وينبغي علينا أن نقتنع سريعًا بذلك . وقد أضاف أنه بإمكانه بنفوذه وحده فقط أن يقودنا في أمان تام الى تمبكتو ، وكان ساخطًا وغاضبًا من المشاعر التي يكنها الناس في مرزوق ضد الطوارق و الذين كما قال عنهم يتفاخرون بأن كلمتهم واحدة وأنهم ينفذون ما يتعهدون به .

الأحد ١٦ يونيو :

لم تصل جمالنا بعد إلا أننا تمكنا من استئجار اثنين من محمد البوين Mohamet El- Buin والذي أصبح أكثر سلاسة كلما كنا نتقدم في مسيرنا ، وتزايدت أعداد بساتين النخل ومزارع القصب والنباتات الصمغية وكانت التلال تشكل بعض التجاويف ، وقمم هذه التلال مستوية وجميعها بالارتفاع نفسه وقد مررنا بقرى عديدة مبنية بالطريقة نفسها .

وعلى الرغم من قرب الحجارة وملاءمتها فإن الأفضل بالنسبة لهم السطح المالح للأرض وربما يرجع ذلك إلى قلة الجير و السهولة التي يتم بها بناء المنزل وهناك شيء آخر يتمثل في أنه من النادر جدًا سقوط الأمطار ومن ثم فليس هناك خوف من تعرض البناء للسقوط ، وعلى مقربة من بريك Break مررنا ببعض النقوش غير المتقنة والتي على ما يبدو كانت باللغة العربية .

وفي حوالي الحادية عشرة وصلنا إلى جيرما وهي بلدة أخرى في الوادي إلا أن الزمن قد ترك بصمته على كل من الجدران والمنازل وقد انتظرنا في منزل القائد حتى وصلنا ، وسرعان ما قام الشيخ مصطفى بن يوسف Mustapha Ben Ussuf بزيارتنا ، وهو رجل كبير السن من فزان ، ذو بشرة سوداء وأنف مقوس صغير وشفاه غليظة نوعا ما ولكن الفم لم يكن كبيرا وكان الشعر أسود ويبدو من شكل اللحية أنه صوفي

وكان أجداده من المقيمين فى هذا المكان ويمكن أن يتم اعتبار ملامح وجهه شبيهة بملامح الفزانيين .

الإثنين ١٧ يونيو :

لدينا روايات وحكايات عديدة عن النقوش الموجودة هنا والتى لم يكن باستطاعة الناس قراءتها وقد قادنا اليوم الشيخ مصطفى لدارسة وفحص أحد الأبنية والتى وكما ذكر تختلف عن أى أبنية أخرى موجودة بالبلاد ، حينما وصلنا وجدنا لحسن حظنا أنه بناء قام الرومان بتشييده ، ولم نجد أية نقوش على الرغم من أننا قمنا وبدقة كبيرة بفحص عدد من الأحجار المتناثرة بالمكان إلا أنه كانت على بعض منها أشكال وحروف قليلة وكانت على ما يبدو حديثة العهد وقد رجعت أفكارنا بالطبع إلى Horenann إلا أنه لم يكن لدينا دليل على وصوله إلى تلك المنطقة ، وبإيجاز وإحقاقًا للحق فلم ندر ما نحن فاعلين بها حتى اكتشفنا بعد ذلك الكتابة الطوارقية (Trgee) .

إن هذا المبنى يرتفع اثنا عشر قدمًا (القدم = ٣٠ سم / المترجم) وثمانية أقدام عرضًا ، وهو مبنى من الحجر الرملى ، تشطيباته جيدة ومحفورة فى التلال المجاورة ويتميز الجزء الداخلى منه بالصلابة ، وهو مبنى من الأحجار الصغيرة والمادة المستخدمة هى الملاط ، وهو يبعد عن جيرما بثلاثة أميال وعن سفح الجبل بربع ميل وهو إما مقبرة أو مذبح كنيسة (وبإمكان أولئك الذين لديهم علم بالهندسة المعمارية الرومانية أن يحددوا إلى أى نوع من هذين النوعين ينتمى المبنى) إن العثور على بناء ينتمى إلى هؤلاء الناس يثبت على نحو لاشك فيه أنه كانت لهم علاقات ، ومررنا فى ناحية الغرب بآثار تنتمى إلى جيرما القديمة وبدا أنها كانت تشغل مساحة أكبر من البلدة الحالية ، ولم نتمكن من أن نعرف من الشيخ المسن ما إذا كان قد تم العثور على أية عملات قديمة أو أى مبنى مشابه لهذا المبنى فى المناطق المجاورة وهل كان هذا الطريق فقط لنقل الرومان إلى المناطق الداخلية أم هل كانوا يحضرون إلى الوادى سعيًا وراء البلح ؟

الثلاثاء ١٨ يونيو :

وصل هاتيت " حاتييتا " خلال الليل إلا أن رحيلنا تأجل بسبب كونه مريضاً حيث كان يعاني من حمى شديدة ومن المحتمل أنها قد تستمر لفترة ما ، وأن مرض الحمى منتشر فى الوادى وإذا ما صدقنا الأهالى ، وكانت المياه عاملاً رئيسيًا فى نقل العدوى الصفراوية وكانت محاطة بخندق والذى أصبح الآن جافًا تقريبًا وكان موقعه مغطى بقشرة سميكة من كلوريد الصودا و التى كانت على ما يبدو تحتوى على كمية كبيرة من كلوريد وكبريتات الماغنسيوم ،تمتد هذه القشرة إلى مسافة كبيرة من البلدة ويصل سمكها إلى خمس أو ست بوصات فى بعض الأماكن وهناك آبار ماء عديدة ولا يصل عمقها إلى قدمين وتحتوى على مياه ممتازة وينتشر نخيل البلح بالقرب من المنطقة المجاورة القريبة . ومن المؤسف رؤية عدد من المنازل فى حالة خربة ، وعلامات الفقر بادية على طائر نشتريه لطعامنا على حين كان شراء شاة أمراً مستحيلاً .

الأربعاء ١٩ يونيو :

استيقظنا فجراً وبدأنا رحلتنا فى حوالى السابعة وقد أرسلنا جيادنا الآن إلى المنازل التى جاءت منها مع خادمى آدم ، وواصلنا الرحلة سيراً على الأقدام وقد اعتزمنا أن نمتطى الجمال إلا أن الأحمال التى كانت عليها كانت غير مرتبة بشكل كبير لدرجة أننا لم نتمكن من ركوبها ، وقد كان طريقنا يمتد عبر بساتين النخيل المزروعة فى السهل المالح وكانت هذه البساتين تمتد على مسافة تصل إلى أربعة أميال تقريبًا ، وإلى ميلين بعيداً نحو الغرب كانت توجد بلدة عربية صغيرة وكنا نشاهد العديد من العرب أثناء رحلتنا إلا أننا كنا نقوم فقط بتحيتهم بالطريقة التقليدية وكانت البلاد التى نقابلها بامتداد أميال عديدة من الرمال وتغوص فيها الأقدام ، وهو ما يشكل مشقة بالغة على من يسيرون على الأقدام . وكانت درجة الحرارة تصل إلى ٢٢,٦ درجة وكان هناك امرأتان تسقيان ماعز الطوارق ، أما البئران الأخريان فهما عبارة عن فتحتين فى الأرض ، كانت مياه جميع الآبار جيدة وقد توقفنا حوالى الساعة تحت ظلال الأشجار بانتظار الجمال ، ثم ركبت بعد ذلك ، وحوالى الثالثة دخلنا بساتين

بلح أوبارى Oubari حيث توقفنا فيها ، وقد انضم إلينا حاتيتا فى المساء وكان يعانى من حمى ملحوظة ، وقد زارنا العديد من الزوار الطوارق وكان البعض الآخر ينتمى إلى القافلة التى كانت على وشك الرحيل متجهة إلى بلاد الطوارق وهم عبارة عن جنس تبدو على ملامحهم أمارات الاستقلال وكانوا يفحصون بعناية ودقة كل شىء تقع عليه أعينهم ، وكانوا لا يتورعون عن السؤال عن سلع مختلفة مثل التبغ والبارود وأحجار القداحة ، وسرعان ما جاء الشيخ وعدد من سكان البلدة وجلب معه ما رغبنا فيه .

الخميس ٢٠ يونيو :

وقد انتوينا الرحيل صبيحة هذا اليوم إلا أن أصحاب الإبل لم يأتوا بجمالهم ، وكان حاتيتا لا يزال مريضا للغاية وقد انتهزنا فرصة اضطرارنا للبقاء لزيارة التلال المجاورة ، وكان التل مكونا من الحجارة الرملية الناعمة و التى لم يكن يتم استخدامها فى البناء ، وكانت هناك طبقات عديدة من الطين الأزرق الناعم الذى يحتوى على كتل مغمورة من خام الحديد وقد تكونت القمة من الحجر الطينى الأحمر الغامق الضارب إلى الزرقة والذى يعطى التل شكلا كئيباً .

وقد صعدنا بصعوبة نظراً لأنها كانت إحدى أكثر تلال هذه السلسلة ارتفاعا ووعورة وهى تطل على منظر يمكن منه الإطلال على الوادى المجاور بأكمله ، وتكون التلال الرملية أكثر انخفاضًا بدرجة كبيرة من تلك الموجودة ناحية الشرق الشمال عبارة عن سهل رملى متسع ورحيب .

ويبدو نخيل أوبارى مثل الشجيرات رديئة النوع ومن رؤيتها من هنا فلن يعتقد المرء أن عددها يبلغ ٧٠٠٠ وهو عددها الفعلى ، وإلى ناحية الغرب يوجد جزء آخر من السلسة نفسها ، وحينما صعدنا إلى القمة كنا نتنفس بصورة سريعة متلاحقة وكان علينا أن ننتبه إلى التنفس ، لم يطرأ عليه انتكاسات شديدة ومفاجئة للغاية نظراً لأنه وقد تم تنظيف مساحات كثيرة لإقامة الصلاة عليها بالطريقة نفسها التى لاحظناها فى الأماكن الواقعة على جميع الطرق التى ارتحلنا عليها .

وقد شوهد هلال القمر الجديد هذا المساء وهو ما أحدث فرحًا عظيمًا بين جميع أتباع محمد (يقصد محمد صلى الله عليه وسلم /المترجم) وقد تم إطلاق الرصاص من البنادق و المسدسات ، وبدأ جميع الموسيقيين فى عزف آلاتهم وقد استمرت هذه الفرحة طوال الليل ، وقد جاءت مجموعة من الموسيقيين لزيارتنا إلا أن العديد منهم كانوا فى حالة سكر لدرجة أنهم كانوا يمشون بصعوبة بالغة ، وكان الجميع يصومون على كره ومضض ومن النادر رؤية أى شخص يشعر بالاكتئاب أو عدم الموافقة على الصوم ، ومن المضحك كذلك رؤية بعض الشباب وهم يجوبون الشوارع ومعهم عكازات وهم ينحنون عليها للأمام مثل رجل حنت ظهره السنون .

ولأول مرة وجدنا أن الكتابات الموجودة على الصخور كان قد كتبها الطوارق ، والتقينا بأحد الأشخاص الذى عرف عددًا قليلاً من هذه الحروف إلا أننا لم نجد شخصًا يعرف الحروف جميعها .

وقد تسلينا بسماع قصص عن القدرات الكبيرة فى تناول الطعام لدى الطوارق وقد قيل لنا أن هناك رجلين قد التهما ثلاثة أغنام فى وجبة واحدة ، فى حين تناول شخص آخر كمية من البلح المهروس مع كمية مماثلة من اللبن ، بينما تناول شخص آخر حوالى مئة رغيف تقريبًا بنفس حجم الأرغفة التى فى انجلترا والتى يباع الواحد منها ببنس ، وقد تساءلنا أسئلة عديدة فيما يتعلق بالسيدات لدينا وقد ساد مفهوم يتمثل فى أنهن دائمًا ما كن يحملن بأكثر من طفل واحد فى وقت واحد و بأنهن كن يواصلن الحمل لأكثر من تسعة أشهر ، وحينما قيل لنا بأنهن يشتركن فى هذا مع النساء الأخريات فقد بدا عليهن السرور ، كما تم كذلك توجيه أسئلة إلينا عن كيفية الحفاظ عليهن إذا كان تم إبقاؤهن داخل البيوت كالنساء المغاربيات أو السماح لهن بالخروج بحرية، و تتمتع نساء الطوارق بحريات فى هذا الشأن وهن غير سعيدات نوعا ما بهذه الميزة .

ويتبع العدد الأكبر من الطوارق الحياة البدوية حيث ينتقلون من مكان لآخر سعيًا وراء المراعى لماشيتهم ، ويبدو عليهم أنهم يسعدون بالتواجد فى المنازل المنعزلة ذات التجاويف الجبلية المختلفة الموجودة فى المنطقة المجاورة والتى كثيرًا ما كانت مأوى للعديد منهم ، وكانت المنازل مصنوعة من جلود الجمال وهى تشبه المنازل العربية نوعًا ما .

لقد جاء إليّ أعداد كبيرة من المريضات من الطوارق اليوم وهن يتسمن بالحرية والحيوية والنشاط ، وليست هناك قيود أمام الرجال أكثر من تلك الموجودة فى النساء فى بلادنا : حيث يلاحظهن الرجال بصورة كبيرة ولهن بشرة تشبه النحاس الأحمر والعيون كبيرة واسعة وسوداء ومستديرة و الأنف منبسط والشعر طويل منسدل وغير مضفر مثل النساء العربيات .

الثلاثاء ٢٥ يونيو :

هناك طرق عديدة تؤدى إلى غرات وقد تم الليلة الماضية تحديد الطريق العلوى حيث كان علينا أن ندخل التلال منه ، وكانت هناك مياه وفيرة إلا أنه كان أكثر وعورة من الطريق السفلى والذى يقال إنه عبارة عن سهل رملى مستو كاستواء اليد ، ولما لم تكن توجد مياه خلال مسيرة خمسة أيام ، وليس من الضرورى بين الطوارق أن تحضر المرأة لزوجها بمهر على الرغم من أنها عمومًا ما تأتى بشىء ما - إلا أنه من الضرورى دائمًا أن يدفع الرجل كثيراً للأب الذى سوف يتزوج من ابنته كى يسمح له بالزواج منها ويكون هذا المهر ستة جمال عموماً حينما تكون الأطراف غنية .

وهناك تشابه كبير بين عادات وسلوكيات بلادنا و التى حكيتها لأصدقائنا وبين بعض العادات والسلوكيات ، إن هناك طارقى عجوز صاح بقوة قائلاً "إنه متأكد أنهم ذو أصل واحد مثل الأصل الذى ننحدر منه" إننا نألفه بصورة كبيرة ومدهشة ولسوف نصبح بلا شك أصدقاء حميمين بشكل سريع ، والنساء هنا وجوههن كاملة الاستدارة وشعورهن سوداء متجعدة ومن مزيج زنجى تميل لأن تكون متموجة والحواجب متقوسة قليلاً والعيون سوداء وواسعة والأنف مستوحش الشكل ، ولباس البرقع ملفوف بإحكام حول الجسم مع غطاء من القماش الأزرق الغامق للرأس ، وأحيانا يغطى الجزء الأسفل من الوجه كما فى غطاء الرجل ، وهن لسن مغرمات جداً بالعقود التى يتم ارتداؤها حول أعناقهن إلا أنهن غالبًا ما يرتدين محارات أو أصدافًا متدلية من آذانهن مثل الأقراط والحلقان .

الخميس ٢٧ يونيو :

وكان حاتييتا فى حقيقة الأمر على غير ما يرام بدرجة شديدة لدرجة أنه لم يعد بإمكانه السير ومن ثم فقد أجلنا لعشرة أيام ، وقررنا خلالها زيارة وادى شياتى Shiati ، ويذهب السيد هيلمان إلى مرزوق لإرسال مؤن وإمداد والقيام على رعاية وحراسة أمتعتنا ، وكان من غير اللطيف أو الكياسة بالنسبة لحاتييتا مواصلة المسير نظراً لأنه كانت لديه رغبة شديدة فى أن يتم ربطه على أحد الجمال بدلاً من أن يتم تركه وحده فى الخلف ، وقد قمنا بإعداد المؤن الخاصة بالجمال وجهزنا أنفسنا للرحيل صبيحة اليوم التالى ، وقد تركنا أمتعتنا الزائدة والتى أودعها الطوارق الموجودون معنا فى بطون تجاويفهم الجبلية .

الجمعة ٢٨ يونيو :

وقبل أن نتمكن من الرحيل كانت هناك ضرورة لوجود دليل يعرف الرمال معنا .

ولهذا الغرض قمنا باستئجار طارقىّ عجوز والذى كان يعرف كل جزء من الطريق الذى كان علينا أن نسلكه وحين تم تجهيز كل شىء كان ذلك الساعة الثامنة مساء إلا أننا كنا قد اعتزمنا الرحيل ، والآن تركنا السيد هيلمان متجهًا إلى مرزوق وشعرت بالسعادة والرضا نظراً لأننى كنت دائمًا ومنذ رحيلنا قلق بشأن أمتعتنا إلا أنه مع وجود هيلمان كان ينت الاهتمام والاعتناء بكل شىء بنفس الدرجة والأمان ، ونحن جميعاً موجودون ويستحق كلا من اهتمام الذى أولاه لمهمتنا والمسئولية الهامة فى الحفاظ على جميع أغراضنا وأمتعتنا على قدر من الاحترام من كل شخص منا ، وقد ارتحلنا بحلول ضوء القمر على التربة الرملية حيث توجد أجمات عديدة من الحشائش والروابى والآكام والهضبات الصغيرة والمغطاة بالشجيرات ، ويكون السطح فى أماكن عديدة صلبًا وقشريًا بسبب القشرة المالحة .

السبت ١٩ يونيو :

استأنفنا رحلتنا مع بزوغ الشمس ، دخلنا بين التلال الرملية والتى يصل ارتفاعها هنا إلى مئتى أو ثلاثمئة قدم ، وقد كان صعود هذه التلال أو النزول منها أمرا شاقا مجهدا لكل منا وجمالنا ، وقد اضطرتنا الجوانب شديدة الانحدار كثيراً إلى أن نسلك طريقًا دائريًا وجعلت من الضرورة بمكان أن نشكل مع أيدينا دربًا يمكن للجمال أن تصعد عن طريقه ، وإلى ما وراء هذه الحدود الخاصة بالتلال الرملية بوادى غروربى يوجد سهل رملى رحيب مع وجود رواب من الحشائش هنا وهناك ، ولأول مرة لاحظنا وجود نبات ذى أوراق مشابهة لأوراق نبات ذنب الخيل ونوع معين من الأعشاب .

وفى وقت ما بعد الظهيرة كان طريقنا لا يزال على السهل نفسه ، وكان هناك العديد من الأخاديد التى يوجد بها أجزاء تنمو الأعشاب فيها فى الروابى والآكمام ، وبالقرب من غروب الشمس بدأنا الصعود على تلال رملية عالية وقد كانت كما لو كان قد تم وضع أحدها فوق الأخرى ، وسبقنا دليلنا لمحاولة اكتشاف أسهل طريق نسلكه وبكل الرشاقة التى يتميز بها الصبى وليس الشيخ المسن ، وإن عدم وجود أى شىء سوى الأودية الرملية العميقة والتلال الرملية العالية يلفت الانتباه بشدة وهناك شىء ما من الأشياء الجميلة ممتزج بالكآبة ، ومن يمكنه النظر والتأمل بدون الإعجاب بكتل الرمال الناعمة والتى يصل ارتفاعها إلى أربعمئة قدم كاملة والتى توشك أن تهتز مع كل نسمة .

الأحد ٣٠ يونيو :

بدأنا رحلتنا مع شروق الشمس عبر أودية من الرمال والتى كانت تحيط بنا من كل جانب وكانت تتقاطع فى كل مكان مع التلال الرملية العالية ، وكان علينا أن نمر عبر هذه الأودية العديدة وهو ما ضايقنا بشدة وكانت المياه الموجودة معنا قليلة ولم يتبق سوى نصف "قرب" وبدأنا نقلق نوعًا ما من فكرة أن نضل الطريق أو أن تمتلئ بئر الماء تمامًا إلا أنه سرعان ما تلاشت مخاوفنا فقد شاهدنا البئر من على مسافة وعند وصولنا إليها وجدنا أنها تمتلئ بالماء الطيب المذاق ، وكان اسم ذلك الوادى هو

تيجيدافا Tigidafa ، وينمو هنا عدد كبير من نبات ذى أوراق شبيهة بأوراق نبات الخيل وكانت هناك أربع أو خمس نخلات تظلل البئر .

وقد توقفنا خلال أشد فترة من حيث الحرارة أثناء النهار وقد ساءت حالة المملوك بسبب الحمى ومرض الكبد والذى ربما يكون ناتجاً عن نقص الكمية التى اعتاد تناولها من الكلأ الحمضى ، وفى مرزوق قيل علمنا انا كان يشرب جميع ما كان يستطيع جلبه وشراءه .

وفى حوالى الرابعة تحركنا على قمم العديد من أعلى السلاسل ونزلنا من على أصعب الممرات وعند غروب الشمس وصلنا إلى سهل فسيح ولم يكن يحتوى على الغذاء الكافى لإطعام الجمال وقد توقفنا فى هذا المكان ، وكانت الأعشاب ذات جذور طويلة ولكنها لم تكن مقسمة تقسيما دقيقًا إلى ألياف وكان كل ليف يهبط بصورة عمودية ولا يزحف على امتداد السطح وهى مغطاة بأدمة ناعمة ، ومرة أخرى فقد كانت مع جزئيات دقيقة من الرمال حتى تعطيها المرونة .

الثلاثاء ٢ يوليو :

كان طريقنا على وبين التلال الرملية والجدران الرملية أو الحواجز مثل الشلالات فى نهر ما والتى كانت تمتد هنا وهناك عبر الأودية ، وبالنسبة لدليلنا والذى لقبناه محمت بن كامل أو ابن الرمل فقد كان دائمًا ما يسبقنا ويتقدمنا فى المسير محاولا استكشاف أحسن طريق نسلكه ، وكان بإمكاننا أن نتبع فى الرمال كثيراً ، وكانت توجد هنا وهناك أقدام الوعول والظباء وبيض النعام .

ومن ثم فقد انفصلنا عن بعضنا بعضاً بمسافة كبيرة وحينما لم نر أى أثر لهما توقفنا وأرسلنا الخدم بحثا عنهما وكانت اللحظات تمضى عصيبة حيث كانا فى وسط التلال الرملية وليس معهم أية مؤن أو مياه إلا أنه ومن حسن الحظ لم يمض وقت طويل حتى سرعان ما تتبعهما باحثونا من الارتفاعات العالية ، وقد توقفنا فى وادٍ فى وسط النهار وبقينا أسفل ظل بعض أشجار النخيل لساعات قليلة وواصلنا المسير مرة أخرى فى وقت العصر وكانت الحرارة مرتفعة وكان ترحالنا شاقًا جهيداً ثم مررنا

بعد ذلك بسهل مستو رحيب وهو ما أنعشنا وجدد نشاطنا نظراً لأننا كنا قد نال منا التعب والإجهاد تماماً بسبب الصعود والنزول من التلال الرملية ، وقد ضل خدمنا الطريق الصحيح وقبل أن ندرك الخطأ كانوا قد قطعوا مسافة كبيرة فى الغاية لدرجة أننا لم نتمكن من إرسال أشخاص خلفهم .

الأربعاء ٣ يوليو :

هبت نسمات قوية وفى الصباح وجدنا أن الرمال قد غطتنا جميعا وجميع ملابسنا وفرشنا ، و لم نسمع أى شىء عن الخدم وعزينا أنفسنا بأن يكونوا وجدوا مكانا ما قبل هذا الوقت وواصلنا رحلتنا مبكراً وقد رأينا تلال وادى شياتى وهى تمتد شرقا وغربا ونخيل البلح فى بساتين عديدة إلا أنه كان بيننا وبينهم بعض التلال الرملية العالية وقد تمنينا أن يأخذنا دليلنا العجوز فى طريق مباشر بدرجة أكبر ، إلا أنه رغم تهديدنا واصل الطريق الذى يراه الأفضل ومن على مسافة – كشكل تل تنتشر به هنا وهناك أعمدة بازلتية ، ولم يكن لدىّ فكرة عن أن البلدة تم بناؤها على التل ومن ثم فقد حدث الخداع نتيجة لذلك ، وكان الطريق من هذا الجانب على سهول رحيبة من الملح وعبر حقول وبساتين البلح .

وليس هناك ضرورة هنا لآبار المياه نظراً لوجود عدد من حقول المياه التى تتفتح على أحواض واسعة ويتفرع منها قنوات إلى الحقول المختلفة ، وكانت درجة حرارة المياه ٣٠ درجة ولون التربة غامق ومختلط بكمية كبيرة من الملح ، وفى السهل المالح هنا يوجد عدد من التلال المخروطية الصغيرة و كانت القاعدة مكونة من طين الأنابيب فوق هذه الطبقة المكونة من الحجر الرملى الأصغر المحبب الناعم ، وكانت القمة عبارة عن كتلة وتتكون بدرجة رئيسية من الحديد ، وسرعان ما قام أغلب الأهالى بزيارتنا وبدا أن الجميع سعداء بوصولنا وقد امتدحنا قاضى البلدتين المجاورتين بكثير من المديح وضغط علينا بشدة لقضاء عدة أيام فى بلدته ، ولم نستغل عرضه والذى كان بلا شك ذا طبيعة أنانية نظراً لأننى تحدثت معه طويلا قبل أن يبدأ فى طلب قميص منى وذكرت له أن قمصانى لن تكون ذات فائدة له نظراً لأنها مختلفة عن قمصان تلك البلاد ،

وعند ذلك طلب منى دولارا لشراء واحد منها وهو ما حرصت على رفضه بحرص وقلت له إننى أعطى هدايا مالية للفقراء فقط ، وقد طلب منى الناس طلبات عديدة عاجلة من الأدوية وفى وقت قصير جدا أحاط المرضى بخيمتنا الكبيرة الواسعة ، وقد كونت السيدات الجانب الأعظم منهم ، وكانت بعض الوجوه الجميلة ترتدى أسمالاً بالية وكانت الشعور مضفرة وأعناق هؤلاء النسوة محملة بأحمال من الحلى و الزينة وكانت السيماء العربية البدوية والفزانية ، ويحتار الخبير فى وصف ذلك .

الخميس ٤ يوليو :

ازداد عدد المرضى بصورة كبيرة وكان العديد من القادمين يحضرون هدايا صغيرة مقابل الأدوية مثل سلطانية من الليبادو ، وكان هناك أناس كذلك يأتون إلىّ بصفة جديدة ألا وهى كاتب التعاويذ ، وقد جاءنى رجل وعرض علىّ اثنين من الطيور إذا ما أعطيته تعويذة لمرض البطن إلا أننى رفضت منصب كاتب التعاويذ وحصرت نفسى فى شفاء الأمراض بالأدوية ، وقد طلبت منى أرملة ممتلئة دواء يجلب لها زوجها ولم يكن من الجديد التظاهر بالجهل ومن ثم أخبرتها بأن دواءها ليس لدى هذه السيدة نفسها اعتقدت أن صديقى كلابرتون رجل عجوز من شاربه ولحيته ذات اللون الفاتح وذلك لدهشتى الكبيرة ، وكان يتفاخر بقوة وغزارة لحيته ولم يكن يتضايق بدرجة ما أن يعتبر الناس اللون الفاتح علامة على الشيخوخة ، ولم يكن أى منهم قد شاهد لحية ملونة بلون فاتح من قبل وجميع الرجال من كبار السن يصبغون لحاهم الرمادية بالحناء و التى تعطيها لونا يقترب من لون لحية صديقى .

وقد ذهبنا قبل الغروب لزيارة البلدة وكانت المنازل مبنية من الطين ومشيدة على جوانب التل وهى تبدو كما لو كان أحدها منجذب على الآخر ، وكانت الطرقات أو الشوارع بين البيوت ضيقة وفى حالتين أو ثلاث كانت عبارة عن حفر بين الصخور وتشير الصخور إلى نفس تكوين التلال المنفصلة الموجودة على السهل الملحى ، ويمتد الوادى تقريباً من الشرق والغرب : وفى هذا الاتجاه أى الاتجاه من الشرق كان يسكن فيه عدد كبير من الناس حتى أوملابيد **Oml abbed** وهى البلدة التى تقع فى أقصى الغرب ، وعلى الرغم من أن هذا المكان تبدو فيه التربة جيدة فليس هناك أى سكان بين

هذا المكان وبين غداميس Ghadamis وتشكل سلسلة من التلال الحدود الشمالية وتمتد هذه التلال من أملابيد وتشكل سلسلة منخفضة الحدود الشمالية وبينهما وبين وادى غروبى تكون المنطقة رملية تماماً .

وحينما انتهينا من زيارتنا قيل لنا إن الأهالى السابقين قد عاشوا فى هذه الفتحات ، وفى أسفل التل دخلنا فى العديد منها والتى لم يؤثر الزمن عليها كثيراً فى تآكلها ، وكان العديد منها عبارة عن مساحات مستطيلة الشكل يصل طولها إلى عشرة أو اثنى عشر قدماً وارتفاعها سبعة أقدام ، وكانت مداخلها جميعًا متآكلة بشكل كبير جداً إلا أنه وفى مئة ياردة من قاعدة التل - والذى أصبح يستخدم الآن كمكان لدفن الموتى - يوجد منزل تحت الأرض ذى أبعاد كبيرة وربما مقر إقامة شخصية كبيرة ، وكان المدخل الصغير الذى تراكمت فيه ، وقد دخلت أنا وكلابرتون ووجدنا ثلاثة أروقة واسعة والتى يتم الوصول إليها عن طريق الفتحات الصغيرة فقط وأثناء المرور عبرها كنا نضطر إلى الانحناء بشكل واضح .

إلا أن هذه الأروقة كانت عالية (سبعة أقدام تقريبًا) وذات طول كبير (١٥٠ قدم تقريبًا) وكان كل واحد منها يحتوى على العديد من التجاويف الصغيرة مثل غرف النوم ، وليست هناك أية آثار على وجود منازل مماثلة فى فزان ويجهل الجنس الحالى جهلاً تامًا السكان القدامى ، وكان الناس يخافون بشدة ويؤمنون بالخرافات والخزعبلات ؛ ولذلك حينما دخلنا بدون أى احتفال وأحضر إلينا اثنان تشجيعا لنا وأشعلنا "شعلة تمكنا على ضوئها من النظر فى التجاويف المختلفة " .

يوم السبت ٦ يوليو :

وفى الساعة الثانية وأربعين دقيقة بدأنا الرحلة مع ضوء القمر الجميل على سهل رملى مع وجود عدد كبير من الروابى أو الآكام الصغيرة ، وتوقفنا فى داهون Dahoon وهى بئر مياه ممتلئة عن آخرها بالرمال وتحتوى على ماء مالح بدرجة كبيرة لدرجة أننا لم نتمكن من شربه ، وبدأنا المسير مرة ثانية ودخلنا فى التلال الرملية ولم يكن دليلنا الجديد فى نشاط ولا خبرة دليلنا الطارقىّ العجوز نظراً لأنه كان علينا مرات عديدة أن نرتد مرة أخرى لنسلك طريقًا أفضل .

الاثنين ٨ يوليو :

دخلنا وادى ترونا Trona فى هذا الصباح على الجانب الشمالى الشرقى وبالقرب من المكان الذى دخلنا منه كان هناك نخيل وبحيرة صغيرة وكان يتم منها الحصول على الترونا المختلطة بالشوائب ، وعلى الجانب الغربى كانت بحيرة الترونا محاطة بنخيل من البلح ، وكانت حدودها المليئة بالمستنقعات مغطاة بالحشائش على جميع جوانبها تقريباً وكانت الترونا على شكل بلورات فى قاع البحيرة .

أما السطح المجاور للماء فإنه عموماً ما يوجد وقد ترصعت به وتناثرت عليه أعداد كبيرة من بلورات رسية جميلة وصغيرة من كلوريد الصودا وحينما يكون السطح العلوى مغطى بكلوريد الصودا فإنه يضم عدداً من القطع المستوية السطح غير المتجمعة فى كل موضع ، وحينما تتكسر هذه الكومة توجد أعداد كبيرة من البلورات والتى كثيراً ما تكون متألقة بصورة جميلة ، ومن ثم يمكن ملاحظة على نفس المكان بلورات الترونا وبلورات مكعبة من كلوريد الصودا ، وعلى سطح الماء تتجمع الطبقات الرقيقة إلى سمك كبير وتتكون تربة البحيرة من رمال بنية غامقة اللون وتقترب من اللون الأسود وذات قوام لزج وملمس لزج موحل ، وعلى سطح الضفاف مادة سوداء مثل الزفت و التى توجد و هى فى حالة رشح للخارج . وتبدأ المياه فى الزيادة فى الشتاء وتصل إلى أعلى ارتفاع لها فى الربيع وفى بداية الشتاء تكون الترونا فى أحسن حالاتها وأشدها سمكا إلا أنها تختفى فى الربيع تماماً ، وقد تناقص حجم البحيرة بصورة كبيرة خلال تسع السنوات الأخيرة وإذا لم يتم توجيه الاهتمام إليها فلسوف يزداد هذا التناقص بصورة كبيرة جداً نظراً لازدياد ولانتشار النباتات وأصبحت الضفاف الضحلة للغاية تشاهد فى أماكن عديدة ، وعند التحرى والاستقصاء عن ذلك وجدت كمية الترونا يحدث بها تناقص معقول على مدار السنوات العشر الأخيرة ؛ وربما تبدو كذلك نظراً لأنه يوجد هنا كميات كبيرة تكفى كل الاحتياجات ، وتبلغ الكمية التى يتم نقلها بعيداً كل سنة بين ٤٠٠ و ٥٠٠ حمولة جمل تصل كل حمولة إلى ما يزيد عن حوالى ١١٢ رطلاً إنجليزياً ، وهى كمية كبيرة حينما نضع فى الحساب حجم البحيرة ويتم التخلص من البحيرة حينما يكون هناك عليها حيث يذهب رجل داخل البحيرة ويقوم بتقطيعها إلى قطع كبيرة على حين يقوم أولئك الموجودون على الضفاف

بإزالة المواد الخارجية العالقة بها وتحميلها فى حزم مربعة كبيرة وربطها مع مادة ملحوظة على جذور الأوراق أو جريد البلح .

ويتم ربطها بهذه الطريقة وأخذها إلى أماكن مختلفة حيث تصل إلى أبعد مكان لها حيث طرابلس إلا أنه يتم استهلاك كمية كبيرة منها فى فزان .

أما عن سعر كل حمولة جمل هنا فهو دولاران ويتميز الماء فى الوادى بعذوبته وخلوه من الملوحة ، ويعتنى بكل ذلك فزانى عجوز أسود يسمى الحاج على وهو رجل عاقل وقد عاملنا بكل احترام وأبدى كل استعداد لتزويدنا بجميع المعلومات التى نطلبها وهو يقيم هنا العام بأكمله ولا يذهب إلى مرزوق إلا فى بعض المناسبات لتسوية بعض الأمور المالية ، وحينما سألناه إذا كان يشعر بالوحشة فى مكان إقامته هنا أجاب بأنه أصبح الآن رجلاً مسنًا وأنه يكسب جيدًا من هذا العمل وهو ما لا يستطيعه فى أى مكان آخر ، ومنذ إقامته بهذا المكان منذ تسع سنوات مضت حدث وأن طلب من موكنى **Mukni** مزيدًا من المال وأجابه بصورة حاسمة بأنه لن يعطيه أية أموال إضافية وعندها بدأ موكنى فى إطلاق تهديداته وتوعداته بتبجح على طريقته المعهودة وبهدوء قام الرجل العجوز بجمع أغراضه ومتعلقاته ورحل عن المكان وسرعان ما تم حسم هذا الأمر لصالح الحاج ، وكان موكنى على الرغم من طريقة تحدثه الفظة طيب القلب . وكانت الديدان التى يكثر وجودها فى فزان توجد فى البحيرة فى فصل الربيع وكان هناك حوالى عشرين جملا تتبع قبيلة الوليد بوسيف **Waled Busafe** تنتظر أن يتم تحميلها بحمولاتها .

وكانت تبدو عليه السعادة من المشاهد التى كان يراها لدرجة أنه نادى علىّ مرات كى أنزل من أعلى جملى للاستمتاع ، وكان المنظر جميلا وسط وادٍ عميق من الرمال بدون نباتات ولا يوجد به سوى بستانين بينهما بحيرة صغيرة ، وقد كان التناقض بين التلال الرملية العالية المكشوفة الجرداء وبين تلك المنطقتين المنعزلتين سببًا عظيمًا للإحساس بالجمال وكان هناك شيء ما جميل فى بحيرة محاطة بنخيل البلح ولكن حينما يكون كل شيء آخر فى مرمى البصر كئيبًا موحشًا فإن المنظر يصبح مضاعفًا على هذا النحو .

وتوجد الديدان المنتشرة فى هذه المملكة فى تلك البحيرتين ، وهى حيوانات صغيرة يمكن أن لا تراها العين المجردة تقريبا وتكون محاطة بكمية كبيرة من المادة الهلامية الجيلاتينية ، ولونها يغلب عليه اللون البنى الضارب للحمرة ولها رائحة قذرة جداً ، وحينما يتم النظر إليها عبر الميكروسكوب تبدو الرأس صغيرة جدا و العينان كنقطتين سوداوين كبيرتين ولها رجلان .

الأربعاء ١٠ يوليو :

لقد كان الشيخ رجلا شعبيا وزودنا بكل ما نحتاج إليه ، وفى هذه اللحظة حضرنا مناسبة زواجين حيث جاءت العروسان على جمل واحد وهما فى أحسن الثياب وخلفهما جمل آخر يتلقى الهدايا من القمح و الشعير ، وكان السكان يحيطون بالموكب ، وكان النساء يغنين والرجال يرتدون أفضل ملابسهم ويطلقون أعيرة نارية .

الجمعة ١٢ يوليو :

غادرنا فى الصباح الباكر ووصلنا فى منتصف النهار إلى أوبارى Oubari حيث اضطررنا لقضاء اليوم ؛ حتى يتمكن الحمالون من إعداد أنفسهم ، ولأجل راحة الإبل .

الثلاثاء ١٦ يوليو :

أعطينا تعليمات باستعداد الإبل قبل طلوع النهار لكن تأخرت حتى شروق الشمس ، وغادرنا بعد الساعة السادسة ، وكان طريقنا عبر وادٍ مسطح وتلال رملية فى اتجاه الشمال، وكان بصحبتنا محمد وهو من الطوارق السود الذين يقطنون فى المناطق القريبة من ديار حاج أحمد حيث توقفنا عند بيار Biar .

الأربعاء ١٧ يوليو :

بعد الظهر وصلت إلى جرات Ghraat قافلة من الطوارق معظمهم من الحجاج ، وقام حاتيتا لتحيتهم ، وقدم لها كل فروض الاحترام ، وكان أحدهم من رجال الدين الذين يحترمهم الطوارق ، وكان رجلاً طيب الخلق ، وتحدثوا معنا بحرية ، واستطاع أحدهم أن يقدم تقريرا عن الحروف الطوارقية Targee لكن لم يعرف شيئًا عن التاريخ القديم لدولته ، وكانوا يرغبون فى أن نعتنق الإسلام ولو من خلال الشفاه وليس القلب ويكفى أن نقول "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله" ونقوم ببعض الأشكال البسيطة للصلاة ، وكانوا يشعرون بالسعادة عندما يعتنق بعض الناس الدين الإسلامى .

الخميس ١٨ يوليو :

تحركنا قبل شروق الشمس الساعة ، وكان طريقنا مثل الأمس عبر وادٍ مستوٍ عريض تحف به سلسة من الجبال ، وكان هناك أشجار متناثرة من الصمغ .

الجمعة ١٩ يوليو :

أصبح من الصعب السير حيث صارت التلال أكثر وعورة وتوقفنا بعد غروب الشمس بساعة عند وادى الفو Wadey Elfoo أو وادى النسيم البارد ، وكان يومًا طويلاً حتى الساعة الثامنة ، وتقدمنا تسعة وعشرين ميلاً وكانت الحرارة منذ أن غادرنا مرزوق معتدلة ؛ بسبب هذا النسيم و الهواء البارد لكن كانت تأتى نوبات من الحرارة أو البرودة ، وقد جعلتنا فكرة نقص المياه أكثر اشتياقا له ورغبة فيه ، وكانت المسافة التى تفصل عين الماء عن الأخرى مسيرة أربعة أيام ، والتى كانت فى هذا الفصل مسافة ليست قصيرة .

السبت ٢٠ يوليو :

كان الطريق خالياً تماماً من النباتات حتى منتصف النهار وكان طريقنا بين تلال منخفضة من الحجر الرملي والحجر الطيني ، وهنا وصلنا إلى وادٍ صغير جميل يلتف حول التلال ، وكما قيل لنا فهو آخر وادٍ وصلنا إليه حتى وصلنا إلى لودينات Ludinat وكانت التلال تأخذ اتجاها جنوبياً بصورة ملحوظة ، وقد قيل لنا إنها تمتد إلى مسافة كبيرة في طريق السودان وتنعطف أو تلتوى ناحية الشرق وتمر عبر بلاد تيبو Tibboo ثم تهبط بالقرب من بورنو ، وعلى امتداد هذه التلال يقوم الطوارق بعمل الحملات الخاصة بهم فى بلاد تيبو وهذان البلدان دائما ما يكونان فى حالة حرب مع بعضهم بعضاً وكثيرا ما يشنون على بعضهما حروباً فجائية يستولون فيها على الجمال والعبيد .. إلخ ، كما أنهم يقتلون من يقاومهم ولا يأخذون أسرى لديهم .

الأحد ٢١ يوليو :

حوالى نصف الساعة قبل شروق الشمس ، استأنفنا رحلتنا ووصلنا إلى تلال تحتوى على صخور الشب ومررنا فى بداية الصباح بتل مخروطى صغير يسمى بوكرا Boujra ، وبالقرب منه يوجد تلال قليلة يقال إنه توجد بينها حية مثل حجم الجمل تستوطنها ، والطوارق تؤمن بالخرافات لدرجة أن كل تل يرتبط لديهم بشىء ما خرافى أسطورى . وفى حوالى منتصف النهار دخلنا حدود بلاد الطوارق والتى تمتد شمالاً وجنوباً كتلك التلال التى تركناها ولكنها ترتفع فى قمم وأشكال مخروطية عديدة ، ويوجد هنا فى المنطقة المجاورة عدد من التلال الرملية وتكون جميع الأودية محاطة بتلال منخفضة مكونة من صخور الشب وتلال رملية ثابتة مكونة منذ زمن حديث ، وتوجد كبيرتات الصوديوم فى أماكن عديدة ، وفى حوالى الثامنة وصلنا إلى وادى ساردايس Sardalis ، وعلى منطقة صغيرة بالقرب منا يوجد مبنى قديم خرب يعتقد الناس هنا بصورة ساذجة حمقاء أن أصله يهودى على الرغم من إنشائه أو هيكله فإنه من الواضح أنه مبنى عربى ، وتهب رياح شديدة من الوسط وتدفع ماء يكفى لرى مساحة كبيرة من الأرض ، ويقال إن تحت الأرض يوجد ذهباً وتقول الروايات المتداولة عن القصة أن والد المرابط الحالى وهو رجل معروف بورعه وتقواه قد دمر الكتابات

التى كـانت توضح مكان وجـود هذا الذهب ، وتقع مـقبـرة هذا الولى المسلم فـى مكان قـريب وتحظى بالاحتـرام الكبيـر بين الأهالى لدرجـة أن الناس المارين بهـا دائمًـا مـا يودعون عنــدها كل مـا هو زائد أو غير ضـــرورى لديهـــم ، ودائمًا مـا يجدونه سليمًا لم يمسسه سوء عند رجوعهم ، وتمتاز مياه عين المـاء بعذوبتها وتوجد أغنام قليلة فى الوادى وقد تمكنا من شراء إحداها من المرابط .

الأربعاء ٢٤ يوليو :

استيقظ الحمالون مبكرًا غير أننا لم نرحل مواصلين رحلتنا قبل الساعة السابعة ، وقد مررنا بالقرب من عدد كبير من آبار الماء وعلى ضفة إحداها وجدنا ركاز الحديد الجيد فى مستنقع ، والجانب الغربى من الوادى له شكل ساحل البـحر الوعر وسلاسل الصـخور المكشوفة والموجودة تحت المـاء على الشـاطئ والتى تطفو عليـها الأمـواج من وقت لآخر ، وتتكون الصـخور من الحـجر الرملى الحـبيـبى الناعم الأملس والتى توجد فوق صـخور إردوازية مـن الألومنيوم والتى تتـآكل بسـبب تعرضـها لعوامل التـعرية مما يؤدى إلى تآكل الحـجر الرملى ، ومن على مسـافة اعتقدنا أن كل هذه الصـخور مكونة من تكوينات بازلتية إلا أننا عندما اقتـربنا منها وفـحصـناها لم تكن النتيـجة مـختلفة كثيرًا عمـا ألفناه ، وقد دخلنا الآن طريقًا ضيقًا به تلال وعرة عـالية على كل جانب من جانبيه وكان للبعض منها ، وقد أعطاها اللون الأسمر التى يغلب عليها جميعا آثار من اللون الأبيض مظـهرًا كئيبًـا ، وبالنسبـة للجزء الأبيض فـهو نـاتج عن الألومنيوم اللامع والذى ينفصل إلى شرائح رقيقة جدًا مثل الثلج .

وقـد وضح هـذا بالإضــافــة إلى اللون الأبـيض الذى يـكســو الأرض والتــلال فى خواطرنا وأذهاننا بقوة عاصـفة ثلجية إلا أن الريح القائظة الحرارة سرعان ما تكشفت ، وقد قـادنا هذا الطريق إلى وادٍ به عدد قليل من الأشـجار الطويلة واجتـزنا هذا الوادى وسرعان مـا دخلنا سـهلاً رمليـاً فسيـحًا حيث كـانت تلال تادررت Tadrart على الجـانب الشـرقى والتـلال الرملية المرتفعة على الجانب الغربى ، وكانت هـذه السلسلة ذات شكل فريد متميز حيث كانت بها عناصر جمال وروعة أكثر من أية سلاسل تلال أخرى رأيتها من قبـل .

هذه هى الحقيقة ، حيث يسكن شيء غير طبيعي بداخل كل واحدة وسبب هذا الشكل الذى تبدو عليه هو التكوين الجيولوجى ، ومن على مسافة تل أكثر روعة وجمالاً من التلال الأخرى ويسمى جاسور جانون أو قلعة الشيطان Devil's Castle و Gassur Janoun وقد روى حاتيتا لنا قصصا مروعة عن تلك الأماكن وأصابه الفزع عندما قلنا له إننا سوف نزورها .

الخميس ٢٥ يوليو :

كان طريقنا في نفس اتجاه التلال ذات التنوع الكبير فى الأشكال والتكوينات ، وإحدى هذه التكوينات كانت تسمى بيت الشيطان وكان كلابرتون يعتقد أنه شم رائحة دخان ليلة البارحة وقال حاتيتا فوراً إن هذا الدخان جاء من بيت الشيطان .

وهناك مكان آخر يسمى الصدر ويقال إنه يوجد أسفل منه مبلغ كبير من المال أودعه هناك بعض الأشخاص من قديم الزمان والذين يقال عنهم إنهم عمالقة ذوو قامة غير عادية ، وعلى مسافة معقولة ناحية الجنوب يمكن رؤية جزء من السلسة نفسها متجها ناحية الغرب وقد قيل لنا إنه يمتد بعيداً حتى يصل إلى توات Tuat ، وهناك فرع آخر يقال إنه ينعطف ناحية الجنوب وناحية الشرق .

قمنا برحلة قصيرة إلى جانون Janoun وقد رافقنى فى هذه الرحلة القصيرة خادمي عبد الله ، وكان يمشي ورائى بمسافة وحينما اقتربنا من التل قال بنبرة ملؤها الحزن إنه لا يوجد طريق صاعد لأعلى وقلت له إننا سوف نحاول العثور على طريق ، وكان للصعود من الصعوبة الكبيرة . وكانت تتناثر عليه أحجار كثيرة لدرجة أننا لم نتمكن من الصعود على نتوء واحد فقط ، وهناك توقفنا ووجدنا من الاستحالة الصعود أعلى من ذلك نظراً لأنه جرف شديد خلف هذا المكان .

٢٦ يوليو :

بعد حوالى نصف ساعة من الغروب وصلنا إلى غرات ، وسرعان ما زارنا عدد من أقارب حاتيتا وكان من بينهم أخته ، وكان البعض منهم متأثراً ويكى من الآلام والمعاناة التى أبعدته عنهم طوال هذه المدة الطويلة ، وسرعان ما جاء بعض من أقاربه

من الرجال وكذلك العديد من سكان البلدة ، وكانت السيدات متحررات ولم يكنّ سعيدات نوعًا ما من الطريقة الرزينة التي عبرنا بها عن التحيات العديدة ، ولم يكن حاتيتا سعيدا بشيء مما سمعه .

السبت ٢٧ يوليو :

فى الصباح زار حاتيتا زوار كثيرون وتم تعريفنا بهم وقد شعرنا أن الوقت الطويل الذى نقضيه في التحيات مرهق جداً لنا لدرجة أنه كان من الصعوبة علينا الاحتفاظ بهدوئنا ووقارنا ، وكان أغلب الزوار من المقيمين بالمدينة وكانوا جميعًا يرتدون خير ملابسهم وكان الجميع يتمتعون بالوقار والرزانة ، وكان هناك ثلاثة من أهالى غدامس وقد عرفنا محمد دغيس على حين رأينا واحداً منهم فى المنزل الدكتور/ ديكسون والثالث يعرف السلوكيات الأوروبية جيداً كان فى ليجهورن Leghorn .

وفى فترة ما بعد الظهيرة قمنا بزيارة السلطان وتم مد الحصير على أرضيات القلعة فى غرفة انتظار صغيرة ، وجلس الرجل العجوز ولكنه نهض لاستقبالنا بالترحيب بنا فى مدينته واعتذر لعدم قدومه فى البداية نظراً لأنه كان مريضًا وبعيداً عن القلعة لبعض الوقت وكان يعانى من المياه البيضاء فى عينه ، وعلى الرغم من حقارة الملبس كان هناك شيء لطيف وجذاب فى سيمائه ومحياه ، وقد أهديناه سيفًا وهو الأمر الذى سعد به للغاية ، وكان حاتيتا يتمنى أن لو كانت الهدية بورنوسًا إلا أنه لم يكن معنا شيء جيد من البرانس ولم تكن لدينا فكرة عن أن الطوارق مزهوون ومختالون إلى هذه الدرجة نظراً لأنهم اعتادوا أن يملأوا عقولنا بأفكار كثيرة عن ثراء الناس .

وبعد زيارتنا قمنا بزيارة منزل لاميتز Lameens وهو ابن القاضى ، وهو شاب ذو خبرة وشخصية ممتازة ويحظى بالاحترام ، وأبوه موجود فى غدامس الآن حيث يقوم هناك بترتيب شئون الناس ، وقد جاء أناس كثيرون معنا كانوا فى القلعة ، وبمساعدة أولئك الذين كانوا يتحدثون اللغة العربية تمكنت من متابعة الحديث بشكل جيد ، وعند الاستفسار عن الحروف التى يكتب بها الطوارق وجدنا أن الأصوات نفسها

يتم نطق الحروف بالطريقة نفسها التى سمعناها من آخرين ، وكنا عند رأس النافورة إلا أنه خاب أملنا فى العثور على كتاب بلغة الطوارق وقد ذكروا لنا أنه ليس هناك أية كتب مكتوبة بلغة الطوارق ، وهناك بعض الطوارق يتحدثون اللغة العربية ، وقد اندهشنا حينما وجدنا الارتباط الكبير بينهم وبين الأمم التى تتحدث اللغة العربية وحدها .

ولم نعد إلى خيامنا إلا قبل الغروب بقليل والتى هى الآن خالية إلى حد كبير من الزوار حيث يذهب الجميع للراحة وتناول الطعام والصلاة .

وفى المساء عادت النساء أقارب حاتيتا ، وكن مسرورات للغاية ويضحكن من قلوبهن عند نطقنا لبعض كلمات الطوارق ، ولكننا كنا غير مرتاحين لأنهن لم يكن يتحدثن غير لغتهن ، إلا أننا قضينا وقتًا ممتعًا . ولقد أخذنا تعليمات وإرشادات من حاتيتا ونفذنا هذه التعليمات تنفيذًا تامًا بشكل ما كان يستطيعه أى طارقى ، وكان حاتيتا يقرأ عدداً من المحاضرات لكلابرتون وهو يتسم بالحيوية وروح الفكاهة ، وبالنسبة لى فإن لدى وقاراً وهيبة طبيعية وقد شكلت حيوية النساء وتحررهن فى الحديث مع الرجال والاهتمام الملحوظ الذى كان يبديه لهن الرجال تناقضاً صارخًا مع الدول الإسلامية الأخرى ، ومن ثم فقد مضى اليوم على خير .

وفى حوالى الرابعة ذهبنا لزيارة عين الماء التى سمعنا عنها كثيراً ولعمل جولة حول البلدة ، ولم يكن هناك بعين الماء خرير ناتج عن تدفق الماء كذلك الذى رأيناه فى عين الماء فى شياتى ولودينا ، ولكن على ما يبدو أن هناك رشحًا كبيراً فى عيون الماء فى تراغان Traghan ، وكانت المياه رائعة وذات طعم عذب وغزيرة فى كميتها وكانت البلدة كلها تأخذ احتياجاتها من الماء من هذا المكان وكان الناس يشعرون بذلك ويقدرونه ، وكثيراً ما تسمعهم يقولون إن هذه المياه لا تؤدى إلى الإصابة بالصفراء مثل عيون الماء الأخرى فى ذلك المكان ، وقد لاحظنا منصات لجريد النخيل ترتفع من الأرض لمسافة خمسة أقدام لغرض النوم عليها والدفاع عن الأشخاص من العقارب التى تنتشر فى هذا المكان ، وقد أصبحنا الآن على مرأى من البلدة وكانت المنازل منظمة ونظيفة وكان المسجد أفخم من أى مسجد آخر شاهدناه فى فزان ، وبسبب سقوط جزء من التل تدمرت البلدة ومعها الجزء الأكبر من السكان .

وفى حقيقة الأمر فلا يبدو أيا من التلال بارتفاعه الأصلى ، ولم يمض وقت طويل منذ سقوط وانهيار جزء كبير من جبل مجاور وقد سمع صوت سقوطه من على مسافات كبيرة على حين لم يعرف متى الحدث المأساوى المتمثل فى تدمير البلدة .

وهذه البلدة محاطة بالأسوار والتى على حالة جيدة من الرمال والطين والذى يعطى شكلاً نظيفًا وحيويًا للأسوار ، وهناك بوابة واحدة تنفتح ناحية الشرق وفى السابق كانت هناك أكثر من بوابة واحدة ولكنها أصبحت الآن مسدودة ، والبيوت مبنية بمادة البناء نفسها المبنية بها الأسوار .

وفى جولتنا سيراً على الأقدام التقينا عدداً من السيدات الذين خرجوا لرؤيتنا ، وكن جميعهن متحررات فى ملبسهن ولم يكن وجود الرجال يشكل قيداً عليهن ، وكان العديد منهن لهن قسمات وملامح جيدة إلا أنه لم يكن هناك سوى واحدة أو اثنتين منهن يمكن أن يطلق عليهن "جميلة " وحينما كنا نتمشى كان هناك العديد من الأهالى يخرجون من منازلهم ويرحبون بنا ترحيبًا قلبيًا فى بلدتهم ، وهو الأمر الذى أسعدنا كثيراً وأشبع فينا الزهو بالنفس .

وكانت النساء بصورة أساسية ينتمين إلى هذه البلاد وهناك عادة شائعة بينهن فى اللهو والتسالى .

وتعتبر الشخصية الوقورة الرزينة التى يتسم بها الطارقىّ بمثابة حائل يحول بينه وبين الغناء حيث نادراً ما يغنى الذكور حيث يرون أن الغناء لهو لا يناسب إلا النساء ، وقد وصف أغانيهن لنا بأنها أغانٍ عذبة جميلة ، ولم نسمع أحداً أبدًا يكرر أية أبيات شعرية ، ولدى الناس هنا حاسة جيدة للأصوات ويحكون بدقة عما رواه بدرجة أبرع مما تلقيه من التجار المغاربة ، ولو كانوا فى أوضاع أفضل مما هم فيه لكانوا بروزاً وتألقًا وعلى الجميع فى الأماكن التى يرتادونها .

وليس هناك فرق سواء كانت الحروف فى اللغة التى يتحدثها الطوارق مكتوبة من اليمين إلى اليسار أو العكس بالعكس ، أو كانت مكتوبة بطريقة أفقية .

الفصل الأول

الرحلة من مدينة مرزوق إلى كوكا في بورنو

في مساء **التاسع والعشرين من نوفمبر** غادرنا مدينة مرزوق بصحبة كل الذين يستطيعون ركوب الخيل من المدينة، وكانت الإبل قد تحركت مبكراً في ذلك اليوم، وعند زيزو وجدنا الخيام منصوبة وكانت هناك فقط بعض الأكواخ ، ومن زيزو إلى تراجان يوجد طريق جيد مع بعض الطبقات الخارجية من الملح ووصلنا هناك قبل الظهر، وهي مدينة نظيفة مسورة بل واحدة من المئة وتسع مدن التي تتفاخر وتتباهى بها فزان .

وكانت مدينة تراجان غنية في السابق مثل مرزوق، وكانت عاصمة ومقر السلطان الذي كان يحكم الجزء الشرقي من فزان والذي يمكن أن نشاهد بقايا وآثار قلعته .

ويوجد بالمدينة رجل دين من المرابطين ويعد شخصية متميزة في تراجان مثلما كان أبوه من قبل، وخلال حكم والد الباشا الحالي عندما ظهرت القوات العربية أمام المدينة كانت النجوم لامعة والقمر ساطعاً دون غيوم ، وعند إزالة الرمل الذي يشبه اللؤلؤ إلى عمق عدة بوصات يمكن أن ندرك أشعة شمس ذلك اليوم كوسادة رخوة منعشة كما أن تموج الرمل يشبه مجرى مائي وله صوت هادئ ، وبعد التخلص من عشرات الألوف من الذئاب التي تطاردك ليلا ونهارا في الوادي الواسع الذي تقع فيه مرزوق .

فإن رفاهية المساء في هذا الوصف كانت أمرا مريحا لا يمكن وصفه وإذا أضفنا إلى الهدوء التام المؤثر والفعال فإن هناك صدى غير عادي في كل الصحراوات ناتجا عن تلاصق واندماج التربة الرملية التي لا تمتص الصوت، والآن وصلنا إلى جاترون . ويخط العرب رؤية من أعالي شجر النخيل الذي يحيط بهذه المدينة مثلما يبحث البحارة عن أي أرض .

وبعد أن اكتشفنا هذه العلامات، استطاعوا تحديد طريق سيرهم بناء على ذلك، وهنا التحقت برفاقى حيث وجدتهم بصحة جيدة ولكن أساءوا التقدير عند القيام برحلة طويلة ومملة، وأثناء إقامتى فى مرزوق عانيت من حمى حادة أجبرتنى على البقاء فى الفراش لمدة عشرة أيام، ورغم أنه أصابنى الضعف والوهن إلى حد ما فإننى كنت قويا إذا ما قارنت حالتى بحالة رفاقى، فلقد كان الدكتور أودنى يعانى من سعال حاد وما زال يعانى من آلام في الصدر، على رغم أن الرعشة لم تترك السيد كلابرتون (Clapperton) كما أن هيلمان (Hillman) قد أصيب بالملاريا مرتين أكثر مما أصاب الدكتور أودنى (Oudney) .

ومع ذلك فإننا جميعا كنا نتطلع بشغف إلى التقدم وتخيلنا هذا التغير فى المناظر، وأن الطقس الأدفأ سوف يجمعنا معًا ، أما جاترون (Gatrone) فإن موقعها سيئ ؛ حيث تحاط بتلال رملية وهضاب من الأرض مغطاة بأشجار صغيرة تسمى أتهالى (Athali) ، ولقد بنت جماعات التيبو أكواخا حول المدينة .

ورغم أننا عسكرنا فى الجانب الجنوبى من المدينة فقد هبت رياح باردة من الشمال الشرقى وكانت درجة حرارة الترمومتر فى الخيمة تتراوح ما بين ٤٣ و ٤٥ درجة فى الصباح، وكان الحاج الرشيد هو الشخص الأكثر أهمية فى مدينة جاترون وهو أحد المرابطين العظام وهو رجل واسع الرؤية وذو أخلاق طيبة، وكما يعتقد الشعب فإنه سبب سعادتهم، وإنه سبب تحولهم من المعتقدات الشريرة بعيدا عن الدجل .

لقد اتخذت عدة ترتيبات ضرورية هنا ، وذلك بجمع مجموعة ضخمة من التمر وغيره من أجل رحلتنا الطويلة، وفى الساعة الحادية عشرة صباحا غادرنا جاترون. ولقد رافقنا المرابط بوكالوم (Bookhaloom) إلى خارج المدينة، وبعد أن رسم دائرة غير سحرية على شكل متوازى الأضلاع على الرمل كتب بعصاه فيها بعض الكلمات الهامة من القرآن الكريم ونظر الجميع فى دهشة صامتة، بينما واصل بطريقة رشيقة ومؤثرة تجعل من الصعب على أى شخص أن يسخر من أفكاره، وبعد أن قرأ الفاتحة بصوت مرتفع دعانا أن نركب من هذه النقطة وبعد أن وافقنا على رأيه تقدمنا بهدوء فى رحلتنا دون أن نكرر أى دعاء .

لقد مررنا على مجموعة من الأكواخ على طريق ذات موقع جميل تسمى الباهى (El Bagbi) حيث تابعتنا نساء المنطقة بالأغنيات لعدة أميال، وبعد أن توقفنا فى مدروسا (Madroosa) تحركنا فى الصباح، وبعد أن غادرنا قلعة عربية فى الجنوب الشرقي وبعض التلال العالية وصلنا إلى كاسورا (Kasrowa) فى حوالى الثالثة بعد الظهر .

وتحيط بمدينة كاسورا ارتفاعات من التراب ، وهى مغطاة بنبات الأثيل ويوجد بئر للمياه النقية ، ومن هناك يتفرع طريق إلى الجنوب الشرقى حيث يصل إلى كانم وودای، ويقال إنه أقصر الطرق إلى بورنو ، لكن هناك ندرة شديدة فى المياه .

وفى **التاسع من سبتمبر** كان من المفروض أن نصل إلى مدينة تيجرى (Tegerry) وبدأ العرب المناوشات بمجرد أن أصبحنا على مدى البصر منها، واستمرت المصادمات أمام المدينة لمدة نصف ساعة بعد وصولنا .

لقد كان علينا أن نتوقف لمدة يوم أو يومين لأجل أخذ الباقى من البلح والمؤن الأخرى لكن التوقف لم يكن مقبولاً ؛ حيث كان هيلمان النجار واثنين من خدمه مرضى بدرجة يصعب معها التحرك حيث أصيب اثنان بالحمي وأصيب الآخر بالملاريا، وكان هيلمان ضعيفًا جداً نتيجة المرض السابق لدرجة أننا اضطررنا إلى حمله وإنزاله من على بغله ، وفى الحقيقة إننا كنا جميعًا مرضى ، وكان الدكتور أودنى يشكو من صدره والسعال وقد ساءت صحته، وكان مجرد تحركه عدة مئات من الياردات لرؤية إحدى أشجار الدوم قد يصيبه بالتعب ، لدرجة أنه رقد أرضًا واضطر إلى العودة بمساندة السيد كلابرتون ، ونظراً لأن كل الخدم كانوا مرضى فإن إحدى نساء الزنوج قدمت إلينا وجبة من الكسكسى مع بعض الدهون التى كانت قد أعدت فى مرزوق وكانت وجبة رديئة لأن الدهن كان فاسداً وكريه المذاق ورغم أننى كنت مرهقًا وصحتى معتلة فإننى لم أستطع رفض الدعوة فى حوالى الساعة التاسعة ليلاً ، كنت قد ذهبت إلى النوم لكى آكل لحم قلب الجمل مع بوكالوم – وكان القلب صعب الأكل وقد عانيت فى صباح اليوم التالى من الانغماس كثيراً فى الوليمة .

لقد جعلنا التيبو والعرب مستيقظين حتى منتصف الليل بسبب الغناء والرقص، وعندما دخلنا أرض التيبو أعطاهم بوكالوم بعيرين (اثنين من الإبل) ونحن أعطيناهم واحداً، ويبدو أن مرضنا قد أكسبنا بعض القوة، ونجحنا فى شراء شاة، وكانت إضافة الشوربة قد أعطتها مذاقًا طيبًا لكن كنا نخشى أن يتخلف عن الركب هيلمان وأحد الخدم، ومع ذلك فإننا كنا حزانى بسبب هذه المواقف لأنه كان من المستحيل للرجال أن يجلسوا رافعى القامة على البغال لكى نبدأ رحلة لمدة خمسة عشر يوماً فى الصحراء، وكان على المسافرين خلال الرحلة أن يجبروا على السير منذ شروق الشمس حتى غروبها .

لقد كان **الثانى عشر من ديسمبر** صباحًا معتدلاً جميلاً وكانت درجة الحرارة فى الصباح حوالى ٥٦ درجة، وبعد تناول طعام الإفطار صار الجميع بحالة جيدة لكنى كنت أشعر بالألم عند رؤية الضعف المتزايد لكل من الدكتور أودنى وهيلمان، ونجحت فى أن أرسم صورة لقلعة تيجرى من الجانب الجنوبى لمستنقع ملح قريب من المدينة، وكان مدخلها صغيراً ومنخفضاً وله سقف يشبه ميناء ملحى داخل بوابة وسور آخر ، وهناك ثقوب كثيرة تجعل المدخل أكثر صعوبة فى الدخول، وفوق البوابة الثانية توجد فتحة تدخل منها الصواريخ وقاذفات اللهب التى استفاد منها العرب كثيراً ، والتى كانوا يصبونها على المهاجمين، وداخل الأسوار كانت توجد آبار من المياه وكانت طيبة المذاق، وفى حالة إصلاحها كانت إمدادات المياه متوفرة، ولا شك فى أن تيجرى كانت مركزًا دفاعيًا جيداً .

ويعتقد سلاطين فزان أن الوسيلة الوحيدة لجعل الناس يحافظون على النظام هى أن يظلوا فقراء، وإنتاجهم الوحيد هو البلح لكنه من نوع ممتاز، ولا تزرع أية خضروات هنا ولن تستطيع حتى الحصول على بصلة .

وتقريباً كل مدينة فى أفريقيا لها سحرها وعظمتها ومدينة تيجرى لا تقل عظمة عن هذه المدن، ويوجد بئر خارج أبواب القلعة مباشرة، لكن أخبرونا أن مياهها تقريباً جيرية ومنخفضة ودائمًا ترتفع عندما يقترب الخليفة من المدينة، وأن السكان دائمًا يعدون ما لديهم للبيع عند رؤية المياه تزداد فى الارتفاع لأنها لا تخدعهم أبداً .

ولتأكيد هذا الرأى أشاروا إلى قدر ارتفاع الماء إلى أعلى قبل وصولنا أكثر مما كانت فى لحظة وقوفنا على هذه الحافة، وقد شرحت هذا بعدد الإبل التى شربت منه، لكن رأيت أنه من الأفضل سياسيًا أن نؤمن بما يسمح به أى شخص ليكون حقيقيًا، وقد تعجب بوكالوم قائلاً إنه "**الله ، الله العظيم، الله القوى، الله الحكيم، ياله من عجب آه**" وعلى البوابة الداخلية للقلعة توجد فتحة واسعة توصل إلى طريق البوابة من أسفل، ويحكون قصة امرأة أسقطت حجرًا من هناك على رأس أحد القواد الذين أخذو الجزء الخارجى ويسمى «تيبو إرشاد» أو (تيبو الصخور)، ومن خلال ممرات فى هذه الجبال يؤدى الطريق إلى مدينة كانم، وعند غروب الشمس توقفنا بالقرب من بئر على بعد نصف ميل من ميشرو (Meshroo) ، وحول هذه البقعة كان يوجد أكثر من مئة هيكل عظمى بعضها لا زال الجلد يلتصق بالعظام، ولا توجد أية رمال على هذه الهياكل .

لقد ضحك العرب من أعماق قلوبهم عندما عبرت عن الرعب الذى انتابنى وقلت "لقد كانوا فقط من السود" "نامبو" (لعن الله أباهم) وبدأ يقرع على الأطراف قائلا " هذه امرأة، هذه شابة صغيرة ومثل هذه التعبيرات اللاشعورية، إن الجزء الأكبر من هؤلاء الناس التعساء الذين توجد بقاياهم يشكلون أسلاب سلطان فزان فى العام السابق، لقد تأكد لى أنهم كانوا قد غادروا بورنو ولم يكن مع أى شخص منهم إلا ربع ما يحتاج إليه، وأنهم ماتوا من الفاقة أكثر من الإرهاق والتعب، وأنهم قد انساقوا بالسلاسل حول رقابهم وسيقانهم، وقد وصل أشدهم إلى فزان فى حالة سيئة، وكان أكثرهم سمنة يجهزون إلى سوق العبيد فى طرابلس. ولم تصل الإبل إلا بعد الظلام الدامس وأقمنا بصفة مؤقتة وسط هذه الآثار من ضحايا الاضطهاد والجشع .

وبعد رحلة يوم طويل لمسافة ستة وعشرين ميلاً قام أحد رجال جماعتنا بحصر مئة وسبعة من هذه الهياكل .

وفى **التاسع من ديسمبر** تحركنا فى ممر متعرج إلى الغرب، وبعد صعود ثلاثمئة قدم هبطنا فى منحدر رملى نحو الشرق، وكانت هذه نقطة رائعة تطل على ثينا (Thenea) ، وكان طريقنا يطل على سهل طويل له حافة مدببة، وكانت هناك ناقة راقدة على الطريق فى ذلك اليوم ويبدو أنها كانت متعبة، وتجمع العرب حولها وبدأوا فى إنزال حمولتها، وعندما استفسرت عن هذا وجدت أنها أعدت فجأة للعمل، وبعد خمس دقائق أكملت المهمة،

وهى حيوان رقيق ولطيف دخلت إلى الأضواء وبعد ذلك التقت بناقة أخرى وبعد أن أفرغت حمولة الأم سارت بهدوء خلف رضيعها .

لقد وجدنا أن أحد الهياكل التى مررنا عليها فى ذلك اليوم كانت حديثة المظهر حيث كانت اللحية لا تزال ملتصقة بجلد الوجه، وكانت الملامح لا يزال سهل تمييزها .

وصاح أحد التجار المسافرين مع القافلة فجأة "إن هذا عبدى لقد تركته منذ أربعة أشهر بالقرب من هذا المكان، أسرعوا خذوه إلى السوق خوفًا من أن يدعى أى شخص آخر أحقيته" إننا لم يكن لدينا أية مياه فى هذا اليوم الذى ازداد فى الإرهاق .

٢٠ **ديسمبر** كان أيضًا يومًا مخيفًا فى هذا المكان الذى لا يسر أحد ، وفى الساعة الخامسة والنصف وصلنا إلى هرموت الوهر (Hormut - el Waher) وكانت هذه أعلى تلال شاهدناها منذ أن غادرنا فزان، وربما تصل أعلى قمة إلى حوالى ستمئة قدم، وكان مظهرها داكنًا وكانت مريحة للعين بعد المستوى الطويل الذى غادرناه، ودخلنا الممر الذى يبلغ عرضه ميلين تقريبًا، ومررنا حول بعض التلال المرتفعة نحو الجنوب، وكان الممر غير مستو فى أطرافه، وكان يحيط به تلال مخروطية، وأخذنا نتخبط حتى العاشرة مساء عندما وجدنا فى النهاية مكانًا للراحة بعد يوم طويل ممل ومرهق .

لقد فشلنا عدة مرات فى الوصول إلى ممر فى الوادى تحت هذه التلال والذى يمكن أن تتحرك منه الجمال وحيث توجد المياه .

وفى هذه الليلة كان هيلمان مريضًا جدًا كما كان الدكتور أودنى مرهقًا لدرجة لا تمكنه من تقديم أية مساعدة وكان "الوهر" واديًا ذا حصوات ناعمة ويضم بئرًا من الماء الجيد وكان هذا اليوم الثامن الذى لم تتذوق فيه جمالنا أية مياه وكانت متعبة وملتهبة الأقدام من الطبيعة الجبلية للممرات فى هذه التلال من الوهر، وفى الليل هبت رياح وأعاصير ورعد .

وبعد ثلاثة أميال من هذا المكان توقفنا فى نهاية الوادى حيث يوجد فى الغرب تل مرتفع يسمى الباب (El Baab) .

وتمتد هذه التلال شرقًا وتشكل سلسلة تصل إلى تبسى حيث تصبح أكثر وعورة، والآن وصلنا إلى سهل حجرى يضم تلالاً منخفضة من الرمل والحصى إلى أن وصلنا إلى الجرجا (El Garha) التى تعد تلاً مخروطيًا إلى الغرب بالقرب من طريقنا، وهنا توقفنا طوال الليل .

٢٢ ديسمبر:

تحركنا قبل طلوع النهار ومررنا على بعض التلال الرملية الخشنة ، والتى اختلطت مع الأحجار الحمراء فى الغرب وعبرنا فوق سهل من الحصى الناعم وتوقفنا بما يسمى الهامر (El Hammar) تحت رأس عريضة والتى شاهدناها منذ أن غادرنا معسكرنا فى الصباح ، وصدرت تعليمات فى هذا اليوم لكى تظل الجمال متجاورة، وألا يتخلف العرب عن الركب فى التبو (Tibboo) .

وأثناء اليومين الآخرين مررنا على ما بين ستين وثمانين أو تسعين من الهياكل العظمية كل يوم لكن الأعداد التى تتواجد حول الآبار فى الهامر لا تحصى حيث توجد امرأتان بأسنانهن الكاملة تبين أنهما من الشابات، وكان منظرهما مثيرًا، ولا تزال أذرعتهما تتعانق معًا، ورغم أن اللحم قد تلاشى واندثر بسبب أشعة الشمس المحرقة، كما أن العظام السوداء هى الباقية، وأما الأظافر والأصابع وبعض أصابع اليد فما زالت باقية، كما أن لسان إحدى المرأتين كان لا زال ظاهرًا من بين الأسنان ، لقد مضى علينا ستة أيام فى الصحراء دون ظهور أى نباتات خضراء وأحضروا لى فرعًا صغيرًا من السواك كنوع من الراحة وحب الاستطلاع .

وفى اليوم التالى مررنا بالتدرج على سهول من الرمل والحصى الناعم وشاهدنا على بُعدٍ بعض التلال ناحية الغرب، وبينما كنت أستريح على حصانى حوالى الظهر أصبت بضربة الشمس التى كانت دائمًا ساطعة فى ذلك الوقت من اليوم بشدة ، وفجأة استيقظت على صوت ارتطام أسفل أرجل الحصان والذى أزعجنى كثيرًا، ووجدت أن الحصان دون أى إحساس أو خجل من الفزع قد داس على هيكلين كاملين من البشر، وكسر عظامهما الهشة تحت أرجله، وبضربة واحدة من رجله فصل الجمجمة عن بقية

الجسم وتدحرجت مثل الكرة أمامه، وقد أعطتنى هذه الحادثة إحساسًا ظل يلازمنى فترة من الوقت قبل أن أنساه، كما أننى لم أهتم بالحصان مثلما كان الوضع فى السابق .

٢٤ ديسمبر :

عندما تسقط الأمطار التى تعودوا عليها هنا فى هذا الموسم ينمو العشب ويرتفع عدة أقدام، وعندما نمر فى الصحراء فإن العرب يقومون بجمع هذه الأعشاب الجافة التى تدفعها الرياح وهم يصرخون فرحًا من أجل الإبل الجائعة، وكان السهل فى هذا اليوم مغطى ببعض الأعشاب غير المنتظمة والمحاطة بأنواع مختلفة الألوان من الأحجار التى تنعكس عليها أشعة الشمس .

وبعد أن اختفت الشمس خلف التلال غربًا نزلنا إلى الوادى حيث وجدنا كميات من الأعشاب والنخيل تحدد النقطة حيث توجد المياه .

وحتى هذه الأعشاب الضعيفة كانت مريحة للعين مع المناظر المتشابهة والمخيفة فى الأيام السابقة، وفى فجر اليوم التالى لم أستطع التوقف عن الابتسامة عندما شاهدت هيلمان ينظر إليها بكل سرور بينما أعلن أنها تذكره بوادٍ بجوار منزله فى غرب إنجلترا، أما الآبار فإنها تقع تحت حافة منخفضة من تلال رملية وحجرية تسمى «مافرسبان كارتسا» (Mafrashsben - Kasarettsa) حيث توجد وديان وتلال من الجير، وكانت الآبار مليئة بالرمال لدرجة أننا أزلنا منها كميات كبيرة من الرمال قبل أن تصبح المياه صالحة للشرب وظل ذلك حتى العاشرة مساءً، وفى ذلك اليوم سقطت إحدى الإبل فى الطريق وكنا نتطلع إلى اللبن الذى أكد العرب أنها سوف تدره بكثرة وكانوا يحقدون علينا بسبب ذلك، ومع ذلك سقطت المسكينة فجأة وماتت، وكانت صيحات العرب مخيفة "عين الحسود ... عين الحسود" لقد كنت متأكدًا أنها ستموت، ولو كانت هذه ملكى كنت أفضل فقدان طفل أو ثلاثة عبيد ، الحمد لله، الله أكبر والله قوى عزيز، وكانت نظرات الناس رهيبة .

٢٥ ديسمبر :

لقد كان صباحًا معتدلاً ولطيفًا حيث كانت درجة الحرارة ٥٤ درجة فى السادسة والنصف، وكانت القرب مليئة بالماء غير الصالح للشرب لأنه مالح ، وتحركت الإبل فى الساعة الثامنة، وظهرت رؤوس سلسلة من التلال فى الجنوب الغربى يطلق عليها تيجر اندوما (Tigge rindumma) وهى تشبه تلك التى مررنا بها تقريبًا ، فهى تمتد إلى الغرب حتى أرودا (Arooda) التى تبعد خمسة أيام من هنا حيث يوجد بئر، وعلى بعد عشرة أيام توجد مدينة جارات، وعلى مسافة أربعة أميال من مافراس (Mafras) وصلنا إلى وادٍ صغير حيث شاهدنا أولى قمم أشجار النخيل التى كانت مليئة بالثمار رغم أنها خضراء ، واستمر السير حول سلسلة من التلال وعبرنا طريقين متقاطعين حيث توجد أعشاب جافة (عشب) حتى الساعة السابعة، وتتكون هذه التلال من أحجار رملية سوداء وملونة ولا توجد مياه.

فى ٢٦ ديسمبر :

خرجنا من بين التلال ودخلنا فى وادٍ يمتد شرقًا على طول مدى النظر حيث نجد غربًا تيجر اندوما تنساب مكونة شبة دائرة تمتد إلى الجنوب وهى سلسلة جميلة رغم أنها لا تزيد فى ارتفاعها عن ستمئة قدم .

وبعد أن مررنا بين حافتين منخفضتين من التلال الداكنة وصلنا إلى سهل تحده تلال مخروطية ذات قمم مسطحة تسمى لاجابا (La Gaba) ، ووجدنا قطعًا من خام الحديد فى ذلك اليوم تشبه الكلية وغيرها من الأشكال الأخرى، واستمرت الرحلة حتى التاسعة مساءً حتى سقط البعض منا من على ظهور الخيل نتيجة التعب، وبعد ذلك عبرنا ممرًا حجريًا ضيقًا وتوقفنا فى وادٍ يسمى إزهيا (Izhya) .

وقد هبت رياح من الشمال الشرقى ولمدة ثلاثة أيام غطت خيامنا تقريبًا فى الرمل، واضطررنا إلى أن نلتف فى بطاطين كل الوقت .

٣٠ ديسمبر :

يسمى التيبو منطقة إزهيا باسم يات (Yaat) وتوجد هناك أربعة آبار منحوتة فى الرمل، وعمقها ما بين اثنين وثلاثة أقدام ، ويقال إنه عن طريق الحفر يمكن أن نحصل على الماء فى أى جزء من الوادى، وأقمنا معسكرنا تقريبًا غرب هذه الآبار وعلى بعد مئة ياردة بين كل خيمة، وكانت هناك رأس مرتفعة على مدى البصر لبعض الوقت، وهذه الرأس علامة مميزة للقوافل القادمة من كل الاتجاهات .

ومررنا على امتردامو (Ametradumima) حوالى الساعة الرابعة، واتجهنا من هناك إلى الغرب حيث يوجد وادى النخيل، ويسمى سجدوم (Seggedem) كما يوجد ماء عذب وتوجد قبيلة من التيبو المتجولين الذين يبحثون دائمًا عن القوافل الصغرى ، لكن لا توجد مياه .

٣١ ديسمبر :

صباح بارد تتخلله رعشة، ففى السابعة والنصف كانت درجة الحرارة ٤٩° فهرنهيت، وكان السير طوال اليوم عبر سهل يختلف عن منطقة إزهيا، ولم يعرف العرب أية معلومات عن الطريق، وكنا نعتمد كلية على المرشدين من التيبو، واستمر السير حتى أعترف التيبو أنه ضل الطريق وأن البئر ليس بعيدًا لا يعرفه، وعلى هذا توقفنا تحت بعض التلال ذات الرمال بنية اللون وعزمنا على الانتظار طوال اليوم، وفى هذا اليوم فقدنا أحد الإبل نتيجة التعب .

عام ١٨٢٣ :

فى الأول من يناير وبعد مسيرة ستة أميال وصلنا إلى وادى إكبار (Ikbar) وفى اليوم التالى استرحنا وقد اصطاد العرب دبة وأحضروها إلينا، ومع هذا لم تكن لدينا الرغبة للنظر إليها، وعندئذ ربطوها فى شجرة وصبوا عليها النيران حتى مزقوها إربًا، وقد كانت أكثر النقاط ثراء تلك التى رأيناها منذ عدة أيام حيث توجد أشجار الدوم المحملة بالثمار رغم عدم نضجها والتى تتساقط بكثرة بين الأعشاب ،

وكنت أتمنى البقاء أسبوعًا وأنا مسرور، وكانت منـــاظر الخضرة تدعو للانتعاش إذ إنها توحى بجمال الطبيعة بعد الحياة الموحشة فى الصحراء الطويلة المخيفة التى مررنا بها .

٣ يناير :

نظرت إلى الخلف وأنا أشعر بالأسى عندما غادرت الشجيرات الخضراء القليلة فى إكبار (Ikbar) وليس أمامنا سوى تلال داكنة وصحراء رملية، وصعدنا قليلا من الوادى تاركين تلال إكبار وتقدمنا نحو رأس بارزة داخل حافة نحو الشرق من طريقنا تسمى تومار أسكوما (Tummer askumma) ومعناها "سوف تشرب الماء حالاً"، وبعد التقدم لمدة ساعتين توقفنا تحت حافة من التلال نفسها بعد أن قطعنا أربعة وعشرين ميلاً .

وخلال مسيرة ذلك اليوم سقطت أربعة جمال من التعب، وفى هذه الظروف يتوقف العرب بفارغ الصبر الشديد فى المؤخرة حاملين سكاكينهم ومستعدين عند رؤية بطن ذلك الحيوان المسكين، ويمزقون جزءًا من اللحم لوجبة العشاء، وكنا مجبرين على ذبح اثنين منهم فى الحال أما الاثنان الآخران فكنا نأمل أن يلحقا بنا فى الليل، وحضرت ذبح أحدهما وسلخه حيث وضعت السكين فى قلب الجمل بينما اتجهت رأسه إلى الشرق ومات فى الحال، لكن قبل هذه اللحظة تم وضع عشرة سكاكين فى اللحم لكى نستخلص أفضل جزء منه، وحيث أن القلب يعتبر ألذ شىء فقد تم نزعه بعد فصل الجلد عن الصدر والأرداف، وتم نزع بعض اللحم من العظام، ويوضع هذا اللحم فى الحقائب التى حملناها لهذا الغرض، أما بقية الجمل فقد تركناها للغربان والطيور الجارحة والنسور بينما تبع العرب القافلة بسرعة .

٤ يناير :

عبرنا السلسلة الجبلية أمامنا حوالى الثامنة صباحاً، وتقدمنا بين التل المخروطي نحو الشرق وفرع نحو الغرب يسمى جوماماتوما (Gummaganumma) ووجدنا مكاناً فسيحاً لمسافة ميل فى العرض بين هذه التلال، وعند الظهر وصلنا إلى كتلة كبيرة من الحجارة الرملية الرخوة الداكنة والتى يصل ارتفاعها حوالى مئة قدم، وعلى بعد عشرين ياردة من هذا الحجر يوجد بئر من الماء عميقة عدة بوصات وتحيط بها مجموعة من الحشائش، ويسمى العرب هذه البقعة "إرشات تيبوس أناى"، وتوقف جيش السلطان يومين فى هذا المكان عند عودته من باجرمى (Begharmi) .

وتتكون مدينة أناى (Anay) من أكواخ قليلة مبنية على كتلة مماثلة للصخر الذى تركناه منذ قليل، وحول قاعدة الصخر توجد بعض المساكن لكن ثرواتها لا تزال قليلة، ويقوم الطوارق سنوياً بزيارة لسرقة الماشية وكل شىء تصل إليه أيديهم، وفى هذه المناسبات يلجأ الناس إلى قمة الصخرة، ويصعدون على سلالم بدائية يسحبونها خلفهم، وحيث إن جوانب القلعة دائماً شديدة الانحدار فإنهم يدافعون عنها بأسلحتهم وقد حمل كل رجل من الذين جاءوا لمقابلتنا أربع حراب قصيرة وحربة أخرى طويلة .

٥ يناير :

وكان سلطان تيبو الذى تمتد مناطق نفوذه من هذا المكان إلى بلما (Bilma) يزور مدينة فى الجنوب الغربى من أناى (Anay) وتسمى كيسبى (Kisbee) ، وطلب من بوكالوم أن يتوقف هناك ذات يوم ووعد بالتقدم معه نحو بلما، وعلى هذا فإننا اتجهنا إلى كيسبى هذا اليوم والتى تبعد خمسة أميال، وقد قامت حيواناتنا بالتقاط بعض الأعشاب الجافة .

وتعتبر كيسبى مكاناً عظيماً للفسحة لكل القوافل والتجار، ومن هذا المكان يحصل السلطان على جزية وضرائب نتيجة السماح لهم بالمرور فى بلاده .

وهي تبعد مسافة ثمانية أيام عن أغاديس وأربعة وعشرين يومًا عن كاشنا (Kashna) وإذا كان السفر جيداً ومن أقرب الطرق فإنها تبعد سبعة وعشرين يومًا عن بورنو، والسلطان لا يهتم بالعظمة أو الأناقة في المظهر، ووصل إلى خيمة بوكالوم وبصحبته ستة أو سبعة من رجال التيبو بعضهم «ملثم» وأخذوا كمية من النشوق (الجزء المحترق من فتيل الشمعة) سواء في أفواههم أو أنوفهم، وكانت أسنانهم صفراء اللون، وأنفهم لا يشبه شيئًا سوى كتلة من اللحم المستدير ملتصقة بالوجه أما فتحة الأنف فكانت واسعة لدرجة أن أصابعهم تدخل إلى أكبر مسافة إلى أعلى، لكي يضمنوا وصول النشوق إلى الرأس .

وكانت ساعتي والبوصلة وجهاز الموسيقا مثار دهشة بسيطة حيث نظروا إلى وجوههم في الملابس البراقة ولم ينتبهوا إلى ما تثيره هذه الأمور من خيال لكن بوكالوم أعطى السلطان سروالاً لطيفًا أحمر اللون وغيَّر ذلك من ملامحه السيئة، وكان الرقص رشيقًا وبطيئًا لكنه لم يتكيف مع الرجال مثل النساء، وتبعه رقص قام به بعض الرقيق المحررين من السودان والذين كانوا يعيشون مع التيبو، ونالوا حريتهم كما يقولون، ويبدو أن إجهاداً عنيفًا عندما وضع أحد الرجال وسط دائرة حاول كسرها، وعندما يقترب منه أي شخص فإنه يحاول إبعاده بينما يحاول من خلال القفز أن يصعد عدة أقدام بعيداً عن الأرض ، وعندما يكمل أحدهما الجولة يحل رجل آخر محله .

وقد عاد أحد العرب هذا المساء وكنت قد أرسلته الليلة الماضية بقصد البحث عن كلب (Poodle) كنت قد اصطحبته من مالطة، وكان قد تخلف بسبب التعب في اليوم الذي غادرنا فيه إكبار (Ikbar)، ولم يفلح الرجل في هذه المهمة وقال ربما أن أحد التيبو المتجولين قد أكله حيث وجدنا آثار أقدام لهؤلاء الرجال في الرمل، كما أن بقايا الجملين الذين تركناهما على الطريق قد حملا بعيداً، وتتبع آثارهما ناحية الشرق لكنه خشى أن يواصل المتابعة .

وبسبب هؤلاء المتجولين فإن القوافل الصغيرة من التجار تخشى من الهجوم، وعلى العموم فإن الشيوخ يقتنعون بجباية الضرائب بينما يرضى الناس بألا يحدث نقص في مطالبهم .

٦ يناير :

فى تمام السابعة صباحًا كانت درجة الحرارة اثنين وأربعين درجة فى الخيمة، وعلى بعد خمسة أميـــال من كيسبى (Kisbee) غادرنا واديا يســـمى كلبو (Kilboo) على يسارنا ووصلنا بالقرب منه تحت حافة التلال فى نقطة تسمى أمترجما (Ametrigamma) وتقدمنا إلى أشينوما (Ashenumma) وتقدمنا مع وجود تلال مرتفعة ناحية الشرق وأيضًا يوجد وادٍ لطيف ناحية الغرب تتخلله أشجار النخيل مع أشجار أخرى، وحدثت عدة مشاكل عنيفة هذا الصباح فى الطريق بين العرب عندما صوب أحدهم كرة جهة قميص أحد أبناء قبيلة الماجارها (Magarha) وأوقف شيخ الماجارها المشاجرة، وأنقذ الرجل نفسه من العقاب بأن تعلق بالجلد الموضوع على سرجى، واستخدم الشيخ العربى بعض التعبيرات التى يدافع عن أحد أبناء قبيلته لكن لم يعجب ذلك بوكالوم والذى قام بإسقاطه فوراً من على حصانه وقام عبيده بضربه بالعصا بشدة .

أما تيجما (Tiggema) التى توقفنا عندها فهى تعد واحدة من أعلى النقاط فى هذه السلسلة، وتضم بيوت المدينة من الطين، وتقع هذه النقطة فى أقصى شرق الوادى الذى يتكون من التلال وارتفاعها تقريبًا أربعمائة قدم، أما الجوانب فإنها شديدة الانحدار، وتبتعد عن التلال الأخرى .

وعندما اقتربنا من الطوارق سارعت جموع السكان إلى قمة هذه المرتفعات مع ممتلكاتهم وحصنوا أنفسهم بقدر ما يستطيعون، أما داخل هذه المنازل فكان نظيفًا ومنظمًا، والرجال فى العادة تجار متجولون، وربما لا يمكثون أكثر من أربعة أشهر مع عائلاتهم لأن التيبو لا يذهبون أبعد من بورنو فى الجنوب أو إلى مرزوق فى الشمال ويبدو أنهم خفيفو الظل وطيبون ، وهم دائمًا فى خوف من مثل هؤلاء الزوار مثل الطوارق الذين لا يراعون سنًا أو جنسًا .

ويمتد واد خصيب نسبيًا عدة أميال موازيًا للمرتفعات التى تقع القرية أسفلها، وينتجون التمر والأعشاب بكثرة، كما توجد بحيرة مالحة على بعد ميلين من هذا المكان كما توجد فى هذا المكان طيور جارحة، وقد قام السيد كلابرتون بصيد نوعين منها فى أجنحتها بحرابه . وصدرت تعليمات وتحذيرات بألا يغادر أى شخص المكان بعد غروب الشمس .

٨ يناير :

لا زال طريقنا تحت هذه السلسلة من التلال، وبعد مسيرة خمسة أميال وصلنا إلى مدينة أخرى هى مدينة اليجهى (Alighi) وبعد مسيرة ميلين وصلنا إلى مدينة تسمى توكومانى (Tukumani) وقد تم بناء هذه المدن ناحية الجنوب حتى تكون محمية بالتلال التى توجد بجوارها، وعادة يخرج الناس لمقابلتنا، وعلى بعد خمسين خطوة من الفرسان يركعون على أقدامهم ويغنون ويدقون نوعًا من الطبل الذى يعبر دائمًا عن بهجتهم وسرورهم .

وإلى الغرب من هذه المدن تقع بحيرة مالحة تشبه تلك التى بالقرب من أشينوما (Ashenumma) لكنها أصغر منها، وتقدمنا من هذا المكان ناحية الجنوب الغربى تاركين التلال. وبينما كنا نستريح هنا شاهدنا منظرًا مريحًا طريفًا من الثيران، وهنا خطرت فكرة أسعدتنا جميعًا وهى الحصول على اللبن الطازج والطعام المتكامل والوفرة فى كل شىء .

وفى الساعة الثانية توقفنا فى دركى (Dirkee) وقد بذلنا جهداً كبيراً من أجل استقبال السلطان الذى التقى بنا عند الاقتراب حيث ارتدى البرنس الأحمر على قميص سيئ المنظر ، وحتى العمامة رغم أنها كانت بيضاء صارت لا تقل سواداً عن الرأس التى تغطيها، وفى صباح اليوم التالى طلب منى قطعة من الصابون وهذا ما يفسر سر الإهمال فى مظهره .

وبعد ذلك جاء تجمع ضخم من النساء اللائى رقصن لبضع ساعات أمام الخيام وكانت بعض حركاتهن رشيقة تشبه الرقصات الإغريقية كما يدعون، وقدم السلطان لنا طعامًا بالجبن والجوز من السودان، وكان الجبن لذيذ الطعم لكنه كان صلبًا لدرجة أننا اضطررنا إلى غمسه فى الماء قبل الأكل .

وتختلف دركى Dirkee فى وصفها عن مدن التيبو التى رأيناها فهى تقع فى وادٍ قطره حوالى ميل وبها بحيرتان أحدهما فى الشرق والأخرى فى الغرب، ومن المفترض أن الطين المأخوذ من هاتين البحيرتين يستخدم فى بناء المدينة وأسوارها المحيطة بها .

ويوجد الماء كما لاحظنا فى أجزاء كثيرة من هذه المنطقة على عمق ما بين ست بوصات إلى ستة أقدام، أما التربة بجوار السطح خاصة التى بالقرب من مدن التيبو تتخللها مادة شديدة الملوحة، أما هذه البحيرات فكانت تحتوى على المظاهر نفسها حيث تتكون من الطين الأسود وبمجرد أن يتعرض للشمس يصبح هشًا مثل الأرض المحفورة حديثًا فى صباح يوم صقيع .

وفى وسط كل هذه البحيرات توجد جزيرة من الطمى (الملح) الذى يتزايد فى الحجم سنويًا، ويبلغ ارتفاع تلك الجزيرة فى البحيرة الشرقية خمسة عشر قدمًا، ويبلغ قطرها مئة قدم، أما الحواف المجاورة للماء فهى يابسة، ولا توجد أية مظاهر للطين حيث يتكسر إلى قطع صلبة لكنها تتحول إلى مادة ناعمة، وتوجد عدة آبار فى المدينة، ومياهها عذبة لكنها مالحة بعض الشىء .

وكانت ديركى من هذا الموقع فى الوادى عرضة لهجوم الطوارق أكثر من المدن القريبة للتلال، وعلى هذا فإنهم يقولون إنها أقل سكانًا، ولا يوجد شىء داخل المنازل ولا حتى الحصير، والسكان هم من بعض النساء وكبار السن، ويقولون إن الرجال فى رحلات أو فى مدينة كيسبى أو بلما أو أشينوما حيث يذهبون إلى هناك بعد موسم التمر، وخلال هذه الفترة التى توقفنا فيها كان النساء يحضرن التمر لنا مع بعض أوانى عسل النحل والدهون .

لقد توقفنا يومين، وكان الكثير من جمال بوكالوم قد سقط فى الطريق لدرجة أنه رغم كل وظيفتنا السلمية فإن جماعة من الغزاة قاموا بسرقة بعض الحيوانات وإحضارها للسلطان الذى كان يعطيهم تعليمات عن خط السير، وكانت هذه الأعمال من جانب العرب تعيش فى مخيلة التيبو، ولهذا فإنهم وسعوا المسافة بين أكواخهم والطريق العام بتغيير مكان الخيام من حين لآخر، ولقد أحضرنا تسعة جمال لكن دون مناوشات وأرسلنا مجموعة أخرى لكنها لم تعد حتى الليل وصدرت الأوامر لنا بالانتظار وعدم إنزال الحمولة وألا يغادر أى واحد منا الدائرة المنظمة التى نصبنا فيها الخيام .

وفى **اليوم الحادى عشر** تقدمنا على طول الوادى حيث هيأت لنا أشجار السنط الكثيفة والمنتشرة أنواعاً مختلفة من الظلال، وكان طريقنا حوالى ميلين بعيداً عن التلال التى تسمى هنا تجما (Tiggema)، وبعد السير وبينما كنا ننتظر قدوم الإبل جرب التيبو رماحهم بكل مهارة وكانوا أكثر خبرة مما كنت أتوقع منهم، فالذراع منحنٍ واليد لا تعلو الكتف الأيمن عندما يطلقون الرماح وعندما يتم ذلك فإنهم يلفونها بشكلٍ خفيف بالإصبع وعندما تنطلق فإنها تدور ملوية فى الهواء .

لقد ضرب رجل فى سن الستين شجرة مرتين على بعد عشرين ياردة وألقى شاب آخر قوى بالرمح لمسافة ثمانين ياردة وعندما ارتطم بالأرض فإنه التوى تقريباً مرتين، وكل الذين يسافرون سيراً على الأقدام يحمل كل منهم رمحين .

وهناك سلاح آخر يحمله الرجل من التيبو هو سيف له شكل خاص يسمى هانجامانجا (Hungamunga) وهم يحملون من هذا النوع ثلاثة أو أربعة أما العرب الذين كانوا قد خرجوا غاضبين فقد عادوا ومعهم ثلاثة عشر بعيراً عانوا كثيراً من أجل إحضارها، وكان التيبو قد تعقبوهم عدة أميال، كما قمنا بعمل دوريات طوال الليل بقصد ضمان الاستيقاظ طوال الليل ولكى يوقظننا حتى نتأكد أنهم لم يناموا وأنهم أنفسهم مستيقظون ودائماً يصيحون ويهللون "يالك هو" وهى كلمة الحراسة عند العرب.

وكانت بجوارنا بئر للمياه النقية وسط أعشاب عالية، وعلى السطح كانت طبقة حمضية لعدة بوصات فى السمك خلف صخرة من الرمال وعمقها حوالى قدمين، وبعدها مياه نقية وصالحة للشرب، وفى هذا اليوم أيضاً حصلنا على طبق من لحم الغزلان الذى نجح أحد العرب فى صيد اثنين منها حيث كانت أعداد كبيرة منها تمر علينا فى الأيام الثلاثة الأخيرة، وقد وجدنا غزالة صغيرة عمرها بضعة أيام راقدة بين الأعشاب وقد أثار صوتُ هذه الغزالة الصغيرة الأمَ التى جاءت ناحية الموقع وقام أحد العرب بصيدها .

وفى **اليوم الثانى عشر من يناير** وصلنا إلى بلما (Bilma) حيث يوجد وادٍ كبير وكثير من الرمال الحمراء التى تحتوى على خام الحديد، وتلال من الرمل الأسود، وعبرنا على ثلاثة ينابيع من المياه وتوجد مدينة صغيرة حوالى ميلين غرباً بنفس الاسم وحولها عدة مرتفعات من الطمى، وكنت أتمنى أن أشاهد هذه السهول الممتدة من الملح والتى تغطى كميات ضخمة منه .

ومدينة بلما هى عاصمة التيبو ومقر إقامة السلطان الذى نجح فى الوصول قبلنا واستقبالنا، وتقدم نحو ميل من المدينة برفقة خمسين رجلاً من رجاله المدججين بالسلاح، وضعف العدد من الجنس اللطيف، ويحمل معظم الرجال السهام والرماح والكل يحمل الحراب، واقترب الجميع من بوكالوم، ورفعوا الأسلحة فى الهواء فوق رءوسهم، وبعد تقديم التحية تحرك الجميع نحو المدينة وسط الأغانى والصيحات الجميلة، وكانت هذه من طبقة أعلى من المدن الصغرى، وبعضهم كانت ملامحه ومظهره عظيمًا، وكانت أسنانهم الجميلة بارزة وسط أجسادهم السوداء وكانت خصلات الشعر تتدلى على جوانب الوجه وينساب منها الزيت مع إضافة المرجان فى الأنف بالإضافة إلى عدد كبير من عقود الكهرمان وهذا ما أعطاهم منظراً ومظهراً جذابًا ، وبعضهم يحمل مروحة مصنوعة من الحشيش الناعم أو الشعر لأجل طرد الذباب، والبعض يحمل فرعين من الأشجار أو بعض المراوح من ريش النعام.أو غصنًا من شجرة النخيل، الكل يحمل شيئًا فى يديه ويحركونه فوق رءوسهم كلما تقدموا، ويلفون قطعة من القماش السودانى أعلى الكتف الأيسر بينما يظل الصدر الأيمن عاريًا، وهذا يشكل الغطاء بينما يضعون قطعة أخرى على الرأس تتدلى حتى الأكتاف أو تلقى إلى الخلف .

وعندما وصلنا إلى بلما توقفنا عند ظل شجرة ضخمة بينما كانوا يدقون الخيام، وكان النساء يرقصن بكل رشاقة، وقد أكد ابن أخى السلطان أنه ماهر أيضًا فى الرقص، وعندما يقتربون من بعضهم بعضا بصحبة ضربات من آلة مصنوعة من القرع مغطاة بجلد ماعز ولفترة طويلة تقتصر حركاتهم على الرأس واليدين والجسم والتى يلقونها من جانب لآخر، ويرفعونها فى الهواء، وينحنون دون تحريك الأقدام وفجأة يصبح صوت الموسيقا عاليًا ومسرعًا عندما يبدأون فى التحركات الأكثر عنفًا حيث يلفون رءوسهم ويحركون أسنانهم، ويسلمون على بعضهم بعضًا، ويقفزون إلى أعلى وعلى جوانبهم حتى ينهك الشخص أو المجموعة لدرجة أنهم يسقطون على الأرض، ويحل محلهم آخرون .

ولأول مرة أخرجت كتاب الكابتن ليون من خيمة بوكللوم وعندما قلبت صفحات الطباعة على الأهالى أقسم وصاح وقد عرف كل وجه وقال هو عبد "إنه عبدى إنه كان

محقًا لقد عرفه وشكرًا لله وحمداً على المواهب التى منحها للإنجليز إنهم مهرة وأذكياء".

أما عن المناظر الطبيعية فقد وجد أنه لا يعرف شيئًا، ولم أستطع أن أجعله يفهم المقصود بالمكتوب عن الزوابع فى الصحراء والتى وصفها رسم الكابتن ليون، وأخذ يقلبها رأساً على عقب وعندما قلبتها مرتين صاح لماذا ... لماذا إنها الشىء نفسه وكل ما استطعت أن أعرفه هو سواء أكان جملاً أو شخصاً بشرياً فإنه الشىء نفسه وهذا ما جعله يصيح مبتهجاً قائلاً "مدهش ... مدهش" ولفتت العيون انتباهاً، وعندما رأى السيف صاح "الله ... الله" وعندما اكتشف البنادق فجأة صاح "أين الرصاص" ولقد كان هذا مثار دهشة مثلما يحدث للأوروبى فى الظروف نفسها ، فلو أن أوروبيًا وصل إلى سن الرجولة دون أن يلقى نظرة على منظر طبيعى على الورق فهل يشعر فى الحال بالجمال الخاص للصورة والأهداف البعيدة؟ من المؤكد لا .

إنه من تأملنا الأعمال الفنية حتى فى مسيرة الحياة العادية وحتى بالنسبة لغذاء العقل والالتقاء مع المثقفين – فإننا نستقى مداركنا السريعة فى أمور من هذا النوع أكثر من الطبيعة .

وإلى الجنوب من بلما توجد مستنقعات وبرك من الماء الراكد التى لا تستطيع الأفراس أن تشرب منه، وتقع المدينة فى تجويف ويحيط بها أسوار من الطين داخلها منازل بسيطة ويخيم عليها البؤس، وتوجد بعض الأكواخ على بعد ميلين من المدينة كما توجد بالقرب منها بعض البحيرات حيث توجد كميات كبيرة من الملح البللورى النقى، وقد أحضر لنا بعضه لشرائه، وقد حصلنا على بعض منه للبيع فى سلاسل بيضاء وجميلة وله مذاق ممتاز، وعندما قمنا بزيارة اثنين من أكبر البحيرات إنتاجًا له والتى تقع بين تلال رملية منخفضة – أعربت عن دهشتى للفرق بين هذا النوع وغيره من الأنواع التى حملها التيبو من الأكوام بجانب المياه والتى شاهدناها فى اليوم السابق .

لقد وضعوا هذا الصنف البراق فى حقائب وهم يرسلونها إلى بورنو والسودان كما أن هناك نوعاً أكثر خشونة فى شكل أعمدة وله أسواق خاصة .

ففى السودان يزن عمود واحد من الملح أحد عشر رطلاً ويباع بأربعة أو خمسة دولارات، ويحصل الطوارق على الملح كلية من وديان التيبو .

ويقال إن الطوارق قد نقلوا عشرين ألف كيس من الملح خلال العام الأخير، ويقول التيبو "إنه من الصعب سرقتنا وإن الملح ضرورى ليس فقط لأجل استهلاكنا الخاص ولكن لأغراض التجارة أيضًا"، ونتيجة لعدم دفع أى شىء للسلع فإنهم يدفعون سعراً أقل مثلما هو فى أسواق السودان لكن التيبو يجب أن يكونوا أناسًا آخرين قبل أن يمنعوا الطوارق من نهب أوطانهم فهم دولة لا تزرع ولا تبذر، وتقوم ثقافتهم على المهارة واستخدام الرمح ويعيشون على سلب المحيطين بهم أو الذين تجبرهم الحاجة أو الصدفة للمرور خلال أوطانهم .

وعلى بعد ميل من مدينة بلما يوجد ينبوع من الماء الصافى الجميل يرتفع إلى مستوى سطح الأرض، والمياه ترتفع على سطح الأرض لمسافة مئتى ياردة، وتغطى المنطقة أعشاب خضراء، ولكن بعد أن مررنا على هذه المناظر كان على المسافر أن يقول وداعًا لكل مظهر من الخضرة، ويدخل فى صحراء تحتاج إلى ثلاثة عشر يومًا لاجتيازها .

تمكنت من صيد حيوان صغير وجميل الشكل أبيض اللون يشبه الثعلب بمساعدة اثنين من العرب لكنه لا يكبر عن القطة العادية، فالبطن بيضاء والظهر وبقية الجسم ذات لون بنى فاتح، والذيل يشبه ذيل الثعلب وأبيض اللون، أما بقية الشعر فهو يميل إلى اللون الأسود .

١٦ يناير :

يطل طريقنا على تلال واسعة من الرمل لدرجة أن الجمال كانت تغرس أقدامها وحتى ركبها تقريبًا عند عبور هذه الصحارى الموحشة حيث تختفى التلال خلال ليلة واحدة بسبب انجراف الرمل، وحيث أن القافلة الكبيرة تختفى أحيانًا فى ساعات قليلة، أما التيبو فإن لهم نقاطًا معينة فى هذه الرمال السوداء التى تظهر من حين لآخر رءوسها وسط هذا المحيط الجاف من الرمال وتشكل المنظر الوحيد المتغير فى طريقنا .

ومن أحد هذه العلامات دخلنا خلال رمال شكلت تلالاً وصل ارتفاعها ما بين عشرين وستين قدمًا ولها جوانب عمودية، وكانت الجمال تتساقط بسبب حمولتها الثقيلة، وكان الحرص الشديد هو ألا يقع السائقون عند اختراق هذه المناطق وكان العرب يتعلقون بكل قواهم على ذيل الجمل وبهذه الطريقة يجعلونه معتدلاً في الهبوط، وبدون هذا الحرص فإن الجمال تسقط إلى الأمام، وبالطبع فإن كل الحمولة تسقط على رأسه. توقفنا عند مجموعة من التلال ذات رمال سوداء داكنة، ولها قمة غير منتظمة ناحية الشرق تسمى جوسر (Gusser) أو القلعة، وفي نهاية هذه التلال والتي تبعد ميلين عن الطريق يوجد وادٍ يسمى زو سجرير (Zow Seghrir) تنمو فيه أعشاب وأشجار، وكان اتجاهنا نحو الجنوب لكننا اضطررنا إلى الدوران حول تلال رملية مختلفة حتى نتجنب الهبوط والنزول السريع والذي يزعج ويضايق الجمال، وقد عسكرنا تحت رأس يسمى زو (Zow) ناحية الشرق حيث وجدنا عدة آبار .

١٨ يناير :

في هذا اليوم كانت تلال الرمال أقل ارتفاعًا لكن هبطت الجمال عميقًا جدًا لدرجة أنه كان يومًا مملاً، لقد استلمت أربعة جمال من قافلة بوكالوم وذبح العرب اثنين منها وترك الاثنين للصدفة على أمل القيام قبل الصباح، لقد كانت هذه المناطق وعرة ومخيفة حيث توجد وسائد من الرمل التي تحجب الرؤيا، وعندما شاهدنا المسافر الوحيد للقافلة ومعه إناء للماء في يده يسقط أسفل هذه المنحدرات وهو يشق طريقه بعنف وحيداً على أمل أن يقطع عدة خطوات في يوم حافل بالعمل ولا يستطيع أن يواصل سير الإبل فإن جسم الإنسان يرتعد من أجل سلامته ، ومرت العقبة التي حجزته عن المنظر، والعين تنظر نحو هذه الرمال الكثيفة والغزيرة .

أما التاجر من طرابلس ذو الحظ السيئ ويدعى محمد نظيف الذي كان يعاني طول الطريق من آلام وتضخم في المرارة فقد نصحه الزملاء بأن يجري عملية حرق بقطعة من الحديد الملتهبة وهو العلاج العربي المثالي لكل هذه الاضطرابات، ووافق وقبل أن نتحرك في هذا الصباح تم وضعه على ظهره، وأمسك به خمسة أو ستة رجال من

العرب على الرمل، وقام الرجال الحمقى بحرقه على الجانب الأيسر فى ثلاثة أماكن كل مرة حجم العملة الستة بنسات، وتم وضع الحديد فى النار، وأثناء التسخين فإن أصابع أكثر من اثنى عشر من العرب قد وضعت فى أماكن مختلفة من جسد المسكين، وبعد حرقه عدة مرات أوشكت العملية على النهاية لكن أحد العرب الذين كانوا يتجمعون خلفه لبعض الوقت أمكن طلب قطعة حديد ساخنة وقام بحرق عظام الحنجرة بشدة ، لقد رضخ الرجل المسكين بكل صبر لكل هذه الأعمال وبعد أن شرب جرعة من الماء تحرك مع القافلة، وقطعنا فى هذا اليوم إحدى وعشرين ميلاً وتوقفنا فى شوكوما (Chukoeme) التى تعد منتصف الطريق، ولقد فقدنا أكثر من عشرين من جمالنا هذا اليوم عندما ضلت الطريق .

٢٠ يناير :

وعدنا العرب بأننا سنجد الماء قريبًا، وحيث أن الحيوانات لم تشرب منذ الليلة الماضية فإننا أسرعنا بخيولنا حيث أخبرونا أن الآبار قريبة لكنها على بعد عشرين ميلاً فوق تلال رملية ملتوية، وفى أقل من منتصف الطريق مررنا على تلين من الحجارة الرملية الداكنة تسمى جيسجا (Geisgae) والتى كانت فى مدى النظر طوال يوم الأمس. وفى الساعة الواحدة والنصف وصلنا إلى وادٍ يسمى دبلا (Dibla) (الحجر الثقيل) .

ويوجد فى الوادى القريب منه بعض الأعشاب والحشائش التى حاولت الحيوانات بكل مشقة الحصول على بعض منها، وكانت المياه حمضية لكنها عذبة وباردة ولذا كانت شرابًا لذيذًا لنا .

وفى وادى دبلا يوجد تل مخروطى، ومن ينظر إلى قمته يجد شكلاً أسود يتكون من تربة فحمية جافة وتحتها توجد طبقات أو شرائح رقيقة تشبه ورقة النبات من الصلصال الناعم الأسود والأصفر والأخضر وهى تتهشم عندما تلمسها الأيدى .

وعلى بعد عشرين ميلاً من دبلا وصلنا إلى شيجاروب (Chegarub)، وبعد أربعة أميال أخرى وصلنا إلى كيرشروما (Kershrma) حيث استرحنا طوال الليل ولم يوجد خشب أو ماء .

٢٢ يناير :

لقد كان قضاء اليوم مملاً فوق صحراء رملية دون أى أمل لرؤية تل غامق اللون تتطلع إليه، وعند غروب الشمس وصلنا إلى بقعة خضـــراء من الحشائش تسمـــى سبيت (Sbeet) مع زهرة تسمى النسيى (Nisse) وقطعنا خمسة وعشرين ميلاً ثم توقفنا فى كاساما فوما (Kasama Foma) أو الأشجار الخمس، ولا توجد مياه ولا أخشاب، وخوفًا من التيبو ركب كل واحد دابته واتجهنا بعيداً .

٢٣ يناير :

لا تزال الصحراء والتلال الرملية عالية كالأمس ، وفى الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى وادٍ واسع يسمى أجاديم (Agadem) وهنا توجد عدة آبار من الماء العذب وعدد كبير من الأشجار تسمى (Suog) تشبه ثمارها الفراولة، واندفعنا نحو مجموعة ضخمة : حوالى مئة من الغزلان التى كانت تستمتع بخصوبة الوادى، ورغم هذا فإنه بصعوبة بالغة استطعنا صيد واحدة زودتنا بوجبة كافية، وهنا أخذ الطريق يتفرع نحو الغرب إلى بلاد الطوارق والسودان – لكنه لم يكن مـألوفًا للقوافل، وكانت أجاديم (Aghadem) مكانًا عظيمًا للنزهة لكن تخشاه القوافل الصغيرة والرحالة .

٢٤ يناير :

توقفنا فى ذلك اليوم وكانت درجة الحرارة فى ظل خيمتى ١٠١ْ فى الثانية والنصف، وكانت الحيوانات تستمتع جميعًا بهذا الخير وتلك النعمة من الخضرة التى تمتد بين التلال السوداء من الشمال والجنوب عبر الوادى، وكانت الإبل خاصة تأكل الأعشاب والفروع الصغيرة من أشجار السواك (Suag) التى تغرم بها تمامًا، وكانت أشجار الحناء كثيرة وتتشابك أغصانها وتقترب من معسكراتنا .

لقد قدم التلسكوب الخاص بى هذا المساء بهجة عظيمة لبوكالوم وشقيق القاضى فى مدينة مرزوق ويدعى محمد عابدين وغيرهم لمدة ساعة، وكنت أقضى بعض الوقت كل مساء فى خيمة بوكالوم ووعدتهم برصد القمر لبعض الوقت وساعدت شيخًا منا

بعض الوقت لأنه لم يستطع تثبيت العدسة على الشيء وبعد أن صاح متعجباً ونظر إليّ لم ينطق بكلمة وخرج مسرعًا وهو ينطق بآيات من القرآن الكريم. لقد أعجبت بهذا التصرف الذى كان مثار تهكم من الآخرين وسألت مئات الأسئلة، لقد كانت الليلة لطيفة كما كانت مجموعة النجوم الثلاثة أوريون (Orion) وكانيس (Canis) وتوروس جذابة ومؤثرة .

٢٥ يناير :

تحركت الجمال بعد الثامنة ووجدنا حماية من أشعة الشمس تحت بعض الأعشاب العالية بالقرب من الآبار حتى تشرب الخيول فى لحظة رحيلنا حيث أنه كان يتبقى أمامنا ثلاثة أو أربعة أيام قبل أن نصل إلى المياه العذبة، وكانت الإبل متعبة جداً لدرجة أنها لا تستطيع أن تحمل أكثر من طعام يوم واحد للفرسان، وبينما كنا فى هذا الوضع عاد اثنان من العرب الذين كانوا بصحبة الجمال وكانوا يهرولون إلى الخلف وهو يقولون أنهم شاهدوا اثنين من جواسيس التيبو فى طريقهم من بورنو إلى مرزوق، وفى الحال ظهروا وركبوا الخيول فقط لمدة ثمانية أيام من كوكا، وحملوا أخباراً بأن الشيخ الكانيمى الذى يحكم بورنو حينئذ قد عاد من حملة حربية ناجحة ضد سلطان باجرمي، وأنه قد هاجم ودمر قبيلة قوية من العرب تسمى الصالة (Lasala) وأن السلطان عندما سمع بهذه الأخبار هرب إلى الجنوب مثلما فعل من قبل، واستقر إلى جانب النهر العظيم بين الجماعات الوثنية .

واستمرت مسيرتنا الطويلة عبر صحراء متصلة وعند غروب الشمس توقفنا فوق الرمال بدون أن تكون معنا أخشاب أو مياه بعد أربعة وعشرين ميلاً، وأكد لنا الجاسوس (الرسول) من بورنو إلى مرزوق أنه لم يأخذ أكثر من ثلاثين يومًا على الطريق من حيث تركناه .

ومنذ إقامة الشيخ الكانيمى فى كوكا كان الجواسيس يمرون بين بورنو ومرزوق، ولم تكن الأمور معروفة قبل هذه الحادثة، وكانت إحدى زوجات الكانيمى مع ثلاثة من

أطفاله يعيشون فى مرزوق، ولكى يثبت الحاكم (الباشا) خضوعه الكامل فإنه رفض السماح لهم بمغادرة هذا المكان .

والتيبو هم الوحيدون الذين يمكنهم القيام بهذه الخدمة الشاقة، وكانت فرص العودة سالمًا صعبة لدرجة أنه لا يمكن إرسال شخص بمفرده، وكان الرجلان اللذان قابلناهما يمتطيان جوادين مسرعين ويهرولان بسرعة ستة أميال فى الساعة، وكان معهم كيس من القمح المهروس وإناء خشبى يأكلون منه ويشربون وكان هذا يجلب لهم الراحة، وكانوا أحيانًا يضيفون قطعًا من اللحم المجفف فى الشمس إلى طعامهم لأنهم نادراً ما يشعلون ناراً للطبخ رغم الحاجة إلى هذه النار بالليل خاصة عند الاقتراب من فزان حيث الرياح الباردة تكون شديدة بعد حرارة النهار وتؤلم الرحالة، ويوجد كيس يتدلى خلف ذيل الحصان يحفظ فيه الروث لكى يستخدم كوقود عند التوقف ليلاً، وبدون قافلة وبدون وجود عدد كاف من الإبل لحمل هذه المستلزمات كالخشب والماء يصعب حقاً القيام بهذه الرحلة الخطرة .

وفى اليوم **السابع والعشرين** اقتربنا تدريجيًا نحو شىء يشبه الخضرة حيث توجد رمال مرتفعة وبعض الأعشاب طوال الطريق، وهذا المكان يشبه المروج الخضراء فى إنجلترا .

وعند المساء ازداد عدد الأشجار، وحيث توقفنا وجدت الحيوانات الطعام بوفرة وعبرت جموع تزيد عن مئة غزالة الطريق عند المساء، واكتشف العرب وقع أقدام وآثار النعام وبعض ريشه، وتسمى النقطة التى وقفنا عندها جيجو بالوى (Geoge Balwy) .

٢٨ يناير :

التقينا باثنين من التيبو فى ذلك اليوم وأخبرونا أن الطوارق كانوا فى كانم، وقام ثمانية من الرجال الأقوياء بنهب كل شىء من المدنيين وكان العرب تواقين للقاء بهم وكانوا يسرقون الخيول، ولا يختلف الطريق عن الأمس، وكان البئر هنا عميقًا وكان على العرب النزول إليه، ويخرجون كميات كبيرة من الرمال قبل استخراج أى مياه،

واستغرق ذلك وقتًا طويلاً من الليل، ومع طلوع نور الصباح التالى حضر مينا طاهر (Mina Tahr) شيخ تيبو جوندا (Gunda) ومعه ثلاثة من أتباعه اقتربوا من المعسكر أما بير كشفيرى (Beere Kashifery) فقد استقر فى منطقته ولا تمر قافلة إلا بعد دفع الجزية والتى تبلغ أحيانًا أكثر مما يمتلكون، وفى حالتنا كان قدومه زيارة احترام وترحيب، واستقبله بوكالوم فى خيمته وألبسه سروالاً أحمر من القماش الخشن وقفطاناً من الحرير وتعد هذه هدية قيمة .

وكان التيبو أناسًا نشطين أنيقى المظهر يمتطون أفراسًا صغيرة ذات سرعات عالية، وكانت السروج من الخشب الخفيف الصغير موضوعة على عظام الظهر، وكانت الأخشاب مربوطة بأربطة من الجلد، وكان اللجام من الحديد الخفيف ، وتقفز هذه الأفراس بسرعة أكبر من خيول العرب وكان اللجام خفيفًا وقويًا ولم تتوقف الجمال عن الشرب حتى أصبحت الشمس على ارتفاع ستة فراسخ كما يقول العرب، ولما كنا فى حاجة إلى المزيد من اللحم الطازج بل وحتى فى حاجة لكل شىء فقد اقترح مينا طاهر بأنه يجب أن نذهب إلى بئر بالقرب من رجاله وشعبه، وهو بئر كما أكد لنا لم يعرفه أى عربى من قبل .

وعلى هذا فإنه فى الساعة الحادية عشر من **التاسع والعشرين من يناير** تحركنا بصحبة التيبو حوالى تسعة أميال نحو الجنوب ووصلنا إلى بئر دوجسمنجا (Duggesheinga) حيث توجد آثار لكثير من القطعان التى كانت تشرب فى الصباح، وكانت هذه منطقة منعزلة غير معروفة للمسافرين ومختفية تمامًا عن الطريق بسبب وجود تلال رملية مرتفعة وهنا تركنا التيبو على وعدٍ بالعودة فى اليوم التالى ومعهم ثور وأغنام وعسل ودهون، ولقد كانت هذه أخبار سارة لأناس لم يتذوقوا طعم اللحوم الطازجة لمدة أسبوعين أو أكثر عدا لحم الجمل الصغير، وكنا طوال اليوم مرهقين بسبب الرياح الشرقية التى تحمل كميات كبيرة من الرمل الذى غطى وجه الطبيعة .

٣٠ يناير :

لقد كانت الرياح والرمال التى تحملها عنيفة لدرجة جعلتنا نلزم خيامنا طوال اليوم فضلاً عن أننى كنت قلقًا أكثر مما كنت عندما غادرت مرزوق، ووجدت أن قميصاً واسعًا يعد أفضل غطاء لأن الرمال مع الملابس الثقيلة تسبب التهابًا يصعب تحمله، وقد قام أحد الزنوج بتدليك رقبتى ببعض الزيوت وكان هذا أفضل علاج وراحة لحالات من هذا القبيل، ورغم أنه حسب ديانتى المسيحية فإننى محرم من امتلاك حوالى ستة أنواع من الشامبو – إلا أننى عندما زوجت عبدى باركا (Barka) من إحدى الإماء المحررات كما فعلت مع سوكنا (Sockna) فإننى أصبحت إلى حد ما سيد الزروجا (Zerega) والذين كان تعليمهم فى القلعة من نوع أسمى، وكانت ذات فائدة عظيمة لى فى هذه المناسبات من التعب أو المرض، إنها حقيقة لا شك فيها ولا توجد فى حالة أفضل من حالتى أن الإنسان يحتاج إلى الرعاية والاهتمام من أيدى النساء مهما كان لونهن عندما يصاب بالمرض .

وعند المساء هدأت الرياح واستعادت السماء صفاءها ولونها الأزرق ، وعاد شيخ التيبو ومعه ثلاثون من الرجال والنساء لكن إمداداتهم كانت ضئيلة لقافلة تضم ثلاثمئة شخص، وقد تحول اللبن الطازج إلى حامض ملىء بالأوساخ والرمال، وكانت الدهون قليلة الكمية وسيئة، ومع ذلك اشترينا نعجة باثنين من الدولارات وكانت فعلاً لذيذة ويجب الحرص الشديد عند شراء اللحوم بعد الامتناع فترة طويلة عن الأكل لأن أكل أى كمية أكثر من المعتاد ربما تحدث ارتباكًا فى المعدة يصحبه عادة حمى وآلام وكل الشرور المصاحبة لذلك، ويجب أن يتجنب الإنسان المرض بأية وسيلة لأنه يختلف عن الأمراض فى أى مكان آخر، فالإصابة المفاجئة تجعل الشخص عاجزًا عن القيام بأى شىء ويتركه فى حالة من الضعف الشديد يصعب أن يصدقها إلا شاهد عيان .

وكانت الفتيات اللاتى أحضرن اللبن أجمل من الرجال، وهن يختلفن عن بنات البلما (Bilma) حيث لونهن نحاسى مع جبهة عالية ومع انخفاض بين العينين، وأسنانهن لطيفة وحجمهن أكبر من التيبو اللاتى يسكنّ المدن ، وأحضر الرجال فرسين هدية لبوكالوم إحداهما من نوع راقٍ وارتفاعها تسعة أقدام ونصف من الأرض حتى وسط الظهر .

وتعتبر حيواناتهم هى ثروتهم كما قال لى مينا طاهر فإن قبيلتهم تمتلك أكثر من خمسة آلاف جمل وهم يعيشون على ألبان هذه الحيوانات لمدة ستة أشهر فى السنة، وفى النصف الثانى من العام يستخرجون من الأرض حبوبًا مثل فول الصويا تكفى احتياجاتهم، وفى الفترة السابقة حيث لا توجد اتصالات مع فزان وبورنو كانوا تقريبًا عراة لأن محصولهم من القطن لم يكن كافيًا بسبب الجفاف، وبالتالى لم يحصلوا على الغطاء الكافى، والآن تحضر لهم القوافل القطن والفيلة والصوف الذى يصنعون منه أثوابًا، وكان التيبو يبادلون الجلود وريش النعام باللحوم المجففة من الغزال والثيران .

ولقد كان مظهر اثنين من الخيول لطيفًا رغم أنهما صغار الحجم، عندما لاحظت أنهما ممتلآن باللحم عرفت أنهما يتغذيان على لبن الإبل والقمح الذى يعتبر محصولاً نادراً عند التيبو .

ولا يوجد بين التيبو فى جوندا أشخاص يزيدون عن منتصف الحجم العادى وهم مفتولو العود يتسمون بالرشاقة ولونهم نحاسى، وأذكياء وعيونهم واسعة بارزة والأنف مفلطح، والفم واسع والأسنان منتظمة – لكن لونها أصفر بسبب شرب التبغ، والجبهة عالية، ويلبسون عمامة فوق الرأس، ويحملون حقائب مختلفة الألوان الأحمر والأخضر والجلد الأسود الذى يلف حول العمامة .

ويرسم معظم الرجال ندوبا فى أجزاء مختلفة من وجوههم، وهذه العادة تحدد مراتبهم كما أنها تعد نوعًا من الزينة، وعند شيخنا واحدة تحت كل من عينه وأخرى على جانب الجبهة تشبه نصف القمر، ومثلهم مثل العرب فى الشمال فإن الرئاسة عندهم وراثية ويختار الوريث الأنسب والذى يستحق المنصب، وأى عمل يدل على الجبن يحرمه من تولى الوظيفة التى تنتقل إلى الذى يليه، وشيخ قبيلة الجوندا ويدعى مينا طاهر بين سوجو لامو كان السابع فى سلسلة الحكام، وتسمى هذه القبيلة نافرا جوندا وهم دائمًا يقيمون بالقرب من بيرى كاشفرى (Beere - Kashifery) .

لقد أعجبته ساعتى واندهش لرؤيتها ولكن بعد فترة من الوقت وجدت أنه نظر إلى نفسه فى الجزء البراق اللامع من داخل الحقيبة وهذا ما أعطاه ارتياحًا عظيمًا، لقد ارتدى مينا طاهر أفضل الملابس التى كانت قد أحضرت إلى بيرى كاشفرى والتى تعد

بالنسبة إليه مناسبة جداً لإبراز شخصيته، وقدمت إليه مرآة صغيرة، واتخذ مكانه فى ركن من خيمتنا لعدة ساعات، ونظر إلى نفسه بكل الرضا الذى انفجر من بين شفتيه معبراً عن السرور الذى ظهر من حين لآخر من خلال حركاته .

٣١ يناير :

بعد أن وصلنا إلى الطريق الرئيسى تحركنا حتى الظهر عندما ارتوت الخيول من بئر يسمى كانيمانى (Kanimani) (أو بئر الغنم) حيث حصلنا على كميات كافية من اللبن والجلود داخل أوانٍ كبيرة تسع بعضها جالونين أو أكثر، وشربنا وكنا شاكرين للمعدة الضعيفة قبل أن نكتشف أنه من لبن الجمال .

ولا يتخيل أى رحالة فى أفريقيا أنه يستطيع تحمل هذه الحياة، ومن المدهش أن نوق الإنسان يتوافق مع احتياجاته، ومنذ ستة أشهر كان لبن الإبل بالنسبة لنا يؤدى إلى نوع من القيء والآن نعتقد أنه منعش حقًا، لقد تحسن منظر المنطقة كل ميل حيث عبرنا واديًا مريحًا مليئًا بالزهور والحشائش والأشجار العالية، وعند الظهر توقفنا عند ظل رائع حيث الأرض مغطاة بأشجار زاحفة والتى شكلت مع الزهور الحمراء لأشجار كوسوم (Kossom) منظراً جميلاً تدلى فوق الرءوس .

وعند المساء شاهدنا نسريْن أسودين كبيرين لكن لم نستطع صيدهما لأنهما كانا بعيدين، وعند المساء نصبنا الخيام وحولها أماكن للخيول، بينما بدأت الإبل الجائعة تتغذى على الأعشاب الموجودة ويسمى هذا المكان أول مول (Auoul Mull) .

١ فبراير :

فى الساعة الثالثة صباحًا بدأ رجالنا جمع الأمتعة ومع طلوع النهار تحركنا، وكان القمح البرى منتشراً ويصل ارتفاعه حتى ركب الخيول، لقد قتل العرب فى هذا اليوم أكبر أفعى رأيناها، وتسمى ليفا حيث أن لدغتها قاتلة إذا لم يبتر الجزء المصاب، ومن الخطأ أن يسمى كل عائلات الأفاعى باسم ليفا فهذا النوع يحمل هذا الاسم فقط، ويوجد لها

قرنان ولونها بنى فاتح ولقد كان الخادم القـديم كوشى جرينم (Choush Ghreneim) قد فقد قدمه نتيجة لدغة أفعى سامة، ورغم بتر هذا الجزء المصاب فإنه ظل ثلاثة أشهر محجوزًا فى كوخه وليس متوقعًا شفاؤه .

إن العرب دائمًا يبحثون عن السلب "إن هذه حرفتى" ولم يجد أى واحد حرجًا أو خجلاً من هذا الاعتراف لكنهم فى هذه المناسبة يعارضون ذلك، رغم ذلك فإنهم لم يكونوا راضين عن هذا وبدأوا يقللون من السلب بل وشكلوا جماعات صغيرة استكشافية على جانبى الطريق يحذرنا بأى شىء يحدث، وقام شخص سيرا على الأقدام بتتبع آثار قطيع من الأغنام حتى وصل إلى قرية صغيرة من الخيام شرق طريقنا، وقدم تقريراً عما توصل إليه، لكن الأهالى شاهدوه وادعوا أنه ضرب خيامهم، وشعرت أنه يجب أن توقف عمليات السلب، وقمت أنا وبوكالوم واثنا عشر فارسًا ومع كل واحد أحد المشاة لتعقب هؤلاء عند رجوعهم إلى أعالى التلال فى الشرق .

وعندما وصلنا إلى المكان فى ذلك الوادى الجميل حيث شاهدنا هذه المجموعات من الخيام كان المكان مهجوراً تماماً حيث كان الرعاة قد ابتعدوا مع قطعانهم على أساس أن هذا هو الحل الوحيد للبعد عن البيض أى العرب، ومع ذلك فقد أعطى هذا الحرص المبرر لسلبهم، وفى الحال صممنا على متابعتهم "ما هذا ألا يتوقفون لتسويق أغنامهم هؤلاء الحمقى – إننا سنأخذها جميعًا دون أن ندفع شيئًا"، وبحثنا فى واديين دون أن نجد الهاربين وبدأت أشعر أنه يجب على التيبو أن يتوقفوا عن المطاردة لكن بعد صعود حافة التل وجدنا حوالى مئتى رأس من الماشية وحوالى عشرين شخصاً من النساء والرجال والأطفال ومعهم عشرون بعيراً محملة بالخيام واللوازم الأخرى والكل يتحرك بعيداً وفى الحال اندفع العرب خلف قيادتهم واندفعوا أسفل التل ووصلوا إلى الماشية ومنعوها من الهرب، ونزلت الإبل ورفعت البنات أيديهن مستسلمة لى، ولم أستطع سوى إنقاذ حياتهن .

لقد أكد لى شيخ ومرابط أنه من الأمور الشرعية والقانونية أن تسرق أملاك هؤلاء الذين يتركون خيامهم بدلاً من مساعدة الرحالة واستقبالهم، ووصل بوكالوم وتوسل إليه الجمع، وكان مستاءً من هذا الأسلوب الذى اتبعه أتباعه كما أنه تأثر بالدموع التى انسابت من هؤلاء المساكين .

انتهزت هذه الفرصة الثمينة وطلبت من العرب أن يعيدوا كل شيء ويحتفظوا ببعض الأغنام وثور واحد للوليمة .

وأعطى بوكالوم الأمر وأعاد العرب العقود التى نزعناها من نساء التيبو، وكنت سعيداً من كل قلبى عندما أخذنا عشرة نعاج وثورا ضخماً، وتركنا هؤلاء المساكين لمصيرهم، وأخيراً توقفنا بعد الظلام فى مكان يسمى المول (Mull) .

٢ فبراير :

لقد كان طريقنا كالأمس حيث تحف بالوادى الواسع تلال منخفضة شمالاً وجنوبًا، وعند الظهر نزلنا ووجدنا أنفسنا فى سهل غنى بالأشجار الخضراء، وحوالى ساعة قبل غروب الشمس وصلنا إلى ما يشبه قاع بحيرة حيث كانت الرغبة نحو الماء العذب ؛ حيث لم تشرب الخيول منذ ظهر يوم الحادى والثلاثين من يناير، وكانت على وشك السقوط فى الوادى من التعب ولكن عندما وصلت البئر شعرت بالراحة ، وكان اسم هذا البئر كوفى (Kofri) .

فى الحادى والثلاثين من يناير فكر بوكالوم أنه من الواجب أن يرسل أحد التيبو حاملاً أخباراً عن قدومنا إلى الشيخ الكانيمى الذى كما فهمنا كان يقيم فى كوكا، وفعلاً أرسلنا رسولاً مع أحد رجال مينا طاهر، وعند وصولنا إلى كوفى وجدنا أن التيبو من قبيلة واندلا Wandela بالقرب من البئر فى المساء السابق قد سرقوا كل شيء منه حتى القبعة وأخذوا منه الرسائل قائلين إنه لايهم الشيخ أو بوكالوم وربطوه فى جذع شجرة ثم تركوه ورحلوا وهكذا وجدناه بهذه الحالة، وأسرع السيد كلابرتون وأخرج بعض البسكويت والحلوى من حقيبته وأعطاها له لأنه لم يذق طعاماً منذ أربع وعشرين ساعة، وقال إن ثمانية عشر رجلا قد ربطوه وقيدوه وأخذوا الجمل والرجل الآخر وطالبوا بفدية لإطلاق سراحه أو قطع رقبته، وشبه مينا طاهر بأنها أسوأ أناس على طول الطريق فهم لايمتلكون قطعانا وليس عندهم أكثر من ثلاثمئة من الإبل رغم أن عددهم يفوق الألف نسمة، ولا يستطيع أحد أن يطاردهم، وخيامهم فى قلب الصحراء ولا توجد آبار مياه لمدة أربعة أيام فى طريق رجوعهم ورئيسهم هو جيدى بن اجا Gaiddy-ben-agah،

إنهم الجماعات التى تهاجم وتقتل الرحالة والقوافل الصغرى أما الجاندوا Gundowy فلهم شرف احترام الغرباء .

وفى المساء حضر رجال التريتا Traita ورئيسهم إسكو بن جولو للترحيب بنا، وكان بئر كوفى تابعا لهم كما أنهم تألموا كثيرا لتصرف الواندلا Wandelas وأعاد الرئيس الرسائل لبوكالوم وقال إن رئيس الواندلا قد أرسلها له هذا الصباح وطلب أن يقابل القافلة عند البئر وأن يقدم الرسائل لبوكالوم وقال لو عرف ما حدث للعبد لكان قد ضربهم ضربة قاتلة قبل أن يتسلم الرسائل، لقد كان بوكالوم متضايقا وعرفت أنه سوف ينتقم من رؤساء التريتا ومع ذلك أخذنا العبد من التيبو وركب الجمل واتجه إلى بورنو ، ويقال إن سكان التريتا لا يزيدون عن ثمانمئة رجل قوى .

٣ فبراير :

كان اتجاهنا نحو الجنوب وخلال مناطق كثيفة النباتات وقابلنا قافلة اعتقدنا أولا أنها من الغزلان لكنها كانت أنواعا كبيرة من البقر الوحشى ولونها أصفر مع خطوط بيضاء وسوداء تحت البطن، أما الطيور من البوم وكانت بأعداد كبيرة لكنها كانت حجولة جدا لقد كان السير طوال اليوم فى مناطق غابات جميلة وعند الغروب وصلنا إلى ميتمى Mittimee التى تعنى بلغة البورنو الدفء، وتزيد الآبار عن الخمسين وتقع تجويف به الأشجار والأعشاب التى تعانق جذوع الشجر وتصل إلى أعلى الأغصان وعندما تتساقط تشكل منظراً جميلاً .

وتقدمت مع بوكالوم وستة من العرب وظننا أننا قد ضللنا الطريق وسوف نبتعد عن البئر، وكان اليوم حارا وأصدقائى مرضى ومتعبين وخشينا ألا نجد الماء وزاد من آلامنا هبوط عواصف ترابية، لكن عندما اكتشف العرب البئر كانت صيحاتهم تشبه الموسيقا ، وبعد أن ارتوينا (والحيوانات) رقدت إلى جانب أحد الآبار بعيداً عن رفاقى لأستمتع بهذه اللحظات الهادئة وهذا الهواء النقى وبأصوات المئات من الطيور، ولم يستمر الأمر طويلاً عندما سمعنا صوت قافلة ورياح متربة تعقبها، وهذا ما أيقظنى من هذا الحلم اللطيف الذى كنت أعيش فيه .

٤ فبراير :

قبل أن نصل إلى لارى Lari مررنا على عدة تجمعات للتيبو التريتا الذين يطلقون على أنفسهم شعب الشيخ ، وكانت أكواخهم كثيرة ومبنية على شكل مربع مع مساحات بينها بأقبية جهة الشمال والجنوب من أجل سكنى الحيوانات، والأكواخ مصنوعة من الحصير الذى يعزل الشمس ولا يسمح إلا بالهواء والضوء .

وهذه المساكن منفصلة عن الخيام التى يسكنها العرب فى الشمال، وداخل الأكواخ نظيف ويحتوى الكوخ على أوانٍ خشبية لها غطاء لحفظ اللبن وهى معلقة على الحائط ، وداخل هذه الأحواش يوجد أكثر من مئة وخمسين رأسًا من الماشية تتربى منذ الولادة لأجل إدرار اللبن فضلاً عن العجول والأغنام .

وفى البداية استقبلنا التيبو بالترحاب لكنهم أعلنوا أنهم لا يعترفون بحماية الشيخ الكانيمى، وعندما طلبنا بعض اللبن رفضوا وبإشارة من رئيسهم بدأوا الهجوم على التيبو وقبل أن أمتطى جوادى أخذوا نصف أمتعتى، ولأن بوكالوم كان رحيما بهم وقام بمطاردتهم حوالى ميل ، ثم سمح لهم بالعودة بعد أن وعدوه بأن يكونوا متعاونين فى المستقبل وحيث أن هؤلاء الناس تعودوا على السلب والنهب فإنه لا يتوقع منهم حسن معاملة الرحالة والزائرين اعتماداً على قوتهم ، وهم أسياد فى فن السرقة سواء الرجال منهم أو النساء .

وقامت سيدة عجوز جالسة بجوار أحد الأكواخ بإرسال بنت جميلة جداً إلىّ عندما كنت واقفا بجوار جوادى وكانت تلبس عقوداً كثيرة من الكهرمان والودع، والأنف محلى بالأصداف والأقراط وذلك من أجل سرقة أى شىء، وبعد أن أخذت منديلى وبعض الإبر عندما أدرت رأسى وفى لحظة وضعت يدها فى جيب السرج لكى تحصل على الخرز وذكرت أنها تعرف أننى أمتلك الكثير منه .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر وصلنا إلى لارى التى تبعد عشرة أميال عن متيمى Mittimee وبعد أن صعدنا إلى الأرض المرتفعة التى تقع عليها المدينة ظهرت مجموعات كبيرة من الرجال والنساء مع عائلاتهم تسير فى هذا الوادى وفى كل

الاتجاهات معتمدة على قوة القوافل، وفيما وراء ذلك يوجد شيء يهمنا جميعًا ومنظره يوحى لى بإحساس جميل لدرجة أن اللغة تعجز عن التعبير عن قوته أو متعته إنه بحيرة تشاد العظيمة التى تتوهج بالأشعة الذهبية للشمس فى قوتها ، والتى بدت على بعد ميل واحد منا لأننى أعتقد أن هذه البحيرة هى مفتاح لكل الهدف العظيم الذى نسعى إليه ، ولا أستطيع أن أخفى حماية الله لنا والذى مكننا أن نتقدم وبصحة جيدة وقوة لكى ننجز هذا العمل العظيم .

ومنذ زمن طويل يحاول بوكالوم استعادة ثقتنا حيث أن الطوارق سرقوا السكان فى العام الماضى وقد قتل أربعمئة من رجالهم، وقبل هذا بعدة أيام هاجمت مجموعة من الشعب نفسه وعندما اقتنع هؤلاء الناس أخيرًا أنهم لن يصابوا بضرر جاءت نساؤهم حاملة العسل والطيور والودع والخرز الملون لبيعها مقابل قطع صغيرة من الفاكهة ، وقد اشترى أحد التجار جملاً صغيراً مقابل قطعتين من الكهرمان قيمتهما فى أوروبا اثنين من البنسات كما اشترينا ديكًا بإبرتين وبحفنة من الملح اشترينا خمس سمكات كبيرة من البحيرة .

ويسكن لارى شعب الكانيم الذين يطلق عليهم اسم الكانمبو والنساء حسنات المظهر وهن من الزنوج المبتسمات وكلهن عرايا وهذا ما تعودنا عليه وذلك لا يثير أية مشاعر للدهشة، ومعظمهم يضع قطعة مثلثة من الفضة أو الرصاص تتدلى من خلف الرأس تتعلق فى الهواء وتنساب إلى شرائح صغيرة تتدلى حول الرقبة .

٥ فبراير :

مع شروق الشمس كنت على حدود البحيرة وحولى أعداد ضخمة من الطيور التى يبدو وكأنها ترحب بقدومنا كما أن جماعات البط والأوز تتغذى على بعد مسافة قصيرة منا ، لكننى لم أكن أرغب فى الصيد وعندما تحركت نحوها غيرت أماكنها قليلاً ناحية الشمال أو الجنوب، ولم يكن لدينا أى نوايا عدوانية تجاهها .

لقد كان شيئًا جديداً ولم أرغب فى أن تفقد هذه الطيور الثقة التى نظرت بها إلىّ ، وجلست بهدوء أتأمل المنظر أمامى، ووجدت أمامى أنواعًا مختلفة من الطيور والديوك

والنسور والكل يلعب أمامي ، ولم أحاول أن أزعج الهدوء الذى يعيش فيه سكان هذه المياه بإطلاق الرصاص من بندقيتي .

ولقد كانت التربة بجوار حواف البحيرة من الطين الأسود ولتقدير ارتفاع وانخفاض مياه البحيرة فإن عيدان النباتات لا تزال فى البحيرة أكثر من أربعين ياردة بعيداً عن الشاطئ والمياه عذبة ولذيذة الطعم وهى مليئة بالأسماك التى يصطادها الناس بطريقة غريبة حيث تذهب ثلاثون أو أربعون امرأة داخل البحيرة وملابسهن مرفوعة إلى سيقانهم ومربوطة حول الوسط، ويشكلن خطا لمسافة فى المياه ويواجهن الأرض لأنها ضحلة قرب الحافة ويدفعن السمك أمامهن حيث يتم صيده باليد أو يقفز على الشاطئ ، واشترينا بعض الأسماك اللذيذة .

وحدث عندما كنت على حافة البحيرة أن العرب لم ينسوا العطف الذى أظهرناه لهم مما يؤكد أنه لايوجد شعب متوحش على وجه الأرض ، وأن المعاملة الحسنة والصراحة تكسب الثقة والاعتبار .

فمثلاً نجد أن الحمل (الخروف الصغير) وهو أكثر الأشياء غير الضارة على وجه الأرض أزعج طفلاً يرى حيواناً لأول مرة فى حياته .

لقد تركت حصانى حرا لكى يذهب إلى الطيور حولى وربما اعتقد أن الخيام ربما تعطيه حماية أفضل لكنه عاد إلى المعسكر، وفى الوقت نفسه وجدت إحدى النساء الروب الخاص بى الذى سقط من سرج الحصان وأحضرته إلى بوكالوم، كل هذا أحدث إزعاجاً لكن اكتشفت أن قاربين قد قدما من الجنوب الشرقى حيث توجد فى هذا الاتجاه جزر يسكنها البدوماه **Biddoomah** وهم شعب يعيش على السلب من سكان الأرض الأصليين ويحملون أى شىء يحصلون عليه، ولقد كان هذا كافياً لأن يظن بوكالوم أننى قد انتهيت أو أننى فى خطر كبير، وأرسل عدداً من العرب المسلحين للبحث عنى ومعهم بعض التجار ووجدونى بعد بحث طويل على شاطئ البحيرة بين عيدان البوص حاملاً عدداً كبيراً من الطيور، ولا أظن أننى شاهدت أياً من الأعداء أو القوارب مثل هذا الخوف الذى يحمله الأهالى من سكان الجزر يماثل ذلك الخوف من الطوارق لكن سكان الجزر أقل ميلاً للدماء والعدوانية ومساكنهم تقع على مسيرة ثلاثة أيام فى اتجاه الجنوب الشرقى نحو وسط البحيرة .

وفى المساء زرت مدينة لارى وهى تقع على مكان مرتفع وتضم حوالى ألفى نسمة، والأكواخ مبنية من النباتات التى تنمو على جوانب البحيرة ولها قمم مخروطية وتحاط بأحواش نظيفة مصنوعة من أسوار من نفس أشجار البوص ولها ممرات طويلة توصل إليها وفى الأحواش ترى ماعز أو بعض الدواجن وأحيانًا بقرة، والنساء جميعا يغزلن القطن الذى ينمو جيداً هناك رغم عدم وفرته بالقرب من المدينة أو البحيرة . وداخل الأكواخ نظيف فهى دائرية تمامًا لا تسمح بدخول الهواء أو الضوء باستثناء الباب الذى تتدلى منه حصيرة من أجل الحراسة، وقد دخلت أحد هذه الأكواخ رغم أن صاحبها لم يقابلنى بابتسامة لكنه كان يسير خلفى ومعه حربته وخنجره فى يده، وفى أحد الأركان يوجد سرير ووسادة والسرير مثبت بستة أعمدة فى الأرض ومغطى بجلد النمر أو الثور الوحشى، وتتدلى حول الجوانب أوانٍ خشبية تستخدم لحفظ الماء واللبن ، ويوجد الدرع مستنداً على الحائط وينقسم الكوخ إلى قسمين يفصلهما حصير أحدهما للنساء ومع ذلك فإن مضيفى استمر فى النظر إلىّ بكثير من الشك ويبدو أنه لم يكن مسروراً من وجودى أو زيارتى رغم محاولاتى لأؤكد له أننى صديق ؛ ولذا أسرعت بالخروج وواصلت سيرى وسط المدينة .

٦ فبراير :

لقد حدث مشهد رائع هذا الصباح عند رحيل حوالى ثلاثين عبداً من المحررين من أهالى كانم، وقد تركونا إلى أوطانهم فى رحلة تستمر ثلاثة أيام ناحية الشرق .

وكنت مشغولاً مع بوكالوم فى الليلة الماضية لأننا علمنا أن الشيخ مشغول فى حرب مع بعض الرؤساء من الكانم، ومصمم على أخذهم إلى بورنو خوفًا من أن يتعرضوا للسلب فى الطريق الذى يسير فيه الرقيق، ولقد وجد هؤلاء المساكين تاجراً من بنى وطنهم فى لارى الذى ضمن لهم السلامة فى الطريق بين هذا المكان وأوطانهم، وغادر العبيد مقبِّلين يديه والدموع فى عيونهم وكان معظمهم فى خدمة الباشا لعدة سنوات وأخيراً سيعودون إلى أوطانهم للموت هناك، وإحدى هؤلاء الأسرى كانت امرأة خرساء ولا تسمع أخذها سلطان فزان الذى لا يفرق بين سن أو جنس ولا إعاقة

وقد أخذت تذرف الدمع عندما علمت بالإشارة أنها سوف تذهب إلى بورنو وكانت قد تركت طفلين خلفها ومعها الثالث بين يديها عندما أخذها العرب وكانت قد جذبت من صدرها حتى تظل تلاحق الإبل ، وكان وصفها مؤثرًا للطريقة التى أخذ طفلها من على صدرها وألقى على الرمل حيث بقى إلى أن مات بينما كانت السياط تنهال على جسدها وكانت عرجاء ومريضة .

إن الجميع كانوا أصدقاء لى لمدة أكثر من خمسة أشهر وقدمت لبعضهم خدمات حيث حملت أكياس الملح الخاصة بهم وكانوا شاكرين لى وكان وداعًا مؤثرًا لدرجة أذهلت العرب .

وعندما غادرنا لارى دخلنا مباشرة فى غابة كثيفة من أشجار الاكسيا ذات الفروع الطويلة وعلى بعد مسافة عدة مئات من الياردات من المدينة وصلنا إلى أكوام ضخمة من روث الفيل مكونة تلالاً تبلغ أربعة أقدام فى الارتفاع وتوضح خطواتهم، وازدادت آثار هذه الحيوانات كلما تقدمنا وكان جزء من اليوم قد ضاع على شواطئ بحيرة تشاد والبحث عن آثار الأفيال ذات الأحجام الضخمة وضاع وقت قليل فى الراحة .

لقد تدمرت أشجار كثيرة حيث كانت الأفيال تأكلها وحيث كانت تسند أجسامها الضخمة كما أن الكثير من الشجيرات الصغيرة والأعشاب قد توارت تحت أقدامها الثقيلة .

وفى هذا اليوم قتلنا ثعبانًا ضخمًا وكان حيوانًا مرعبًا ومقززًا وطوله ثمانية عشر قدمًا من فمه إلى ذيله، وقد قتلناه بخمس طلقات وكان مازال يتحرك عندما قام اثنان من العرب ومع كل واحد منهما سيف لفصل رأسه عن جسده وعندما فتحنا بطنه وجدنا عدة أرطال من الدهون وقام اثنان من المرشدين الوطنيين باستخراج هذه الدهون وأعلنوا إلىّ أنها علاج للماشية المريضة ، وبعد السير لمسافة ميل آخر وجدنا جماعات من الماشية الحمراء المتوحشة والتى ظننت فى البداية أنها غزلان وكانت تتجه إلى الغرب، ولم يكن معى بندقية لكن اقتربت منها تمامًا ووجدت أنها ما يطلق عليه العرب «بقر أحمر برى» وهى تشبه الجاموس أو الثيران مع كتلة ضخمة على الكتف .

واقتربنا من مجموعة من الأكواخ تسمى نياجامى Nyagami وهى تقع على موقع جميل من الغابات الكثيفة لدرجة أننا لم نجد مكانا خاليا من أجل إقامة معسكرنا، وبينما كنا نثبت الخيام صدرت أصوات إنذار من الأصوات البرية وصدر صوت من مجموعتنا بأنهم قد شاهدوا أسدا وبالقرب منه سبع غزلان ومع ذلك فإننى لم أجد من الأهالى ما يؤكد أن الأسود تتواجد فى هذه المنطقة ، كما ظهرت حيوانات أخرى وهذا ما يؤكد وجهة نظرى .

٧ فبراير :

فى الساعة الثامنة تحركنا نحو وودى (Woodie) وبصحبتنا اثنين من عرب بوسيف، وتركت القافلة وتقدمت قليلاً ناحية الغرب فى حركة موازية للإبل، وتتكاثر الطيور على كل أغصان الأشجار وكانت طيور غينيا الجارحة تطير فى مجموعات من ثمانين إلى مئة، كما أن القرود كانت تداعبنا وحاولت السير خلف واحد منها، ولم يكن يسير بسرعة بل كان دائمًا ينقلب ويضع رأسه على كتفه ليرى من الذى يقترب منه، وكان حيوانًا لطيفًا لونه بنى فاتح مع لون أسود عند الرقبة .

وعند الظهر وصلنا إلى قرية من أكواخ تسمى Barrah ورغم أن عددهم كان ثلاثة إلا أن الأهالى اندفعوا وفروا فى كل الاتجاهات، وعندما اقتربنا من المدينة تعرفنا عليهم ونزلنا من على الخيول لكى نقدم لهم الثقة وجلسنا تحت ظل شجرة ضخمة، وكان أول من تقدم إلينا رجل زنجي عجوز ويعرف قليلاً من اللغة العربية ، ولما لم يصبه أحد بأذى تقدم الآخرون خلفه، وطلبت بعض اللبن الرائب الذى يعد مشروبًا منعشًا بعد هذا السير الساخن لكن لم نجد شيئًا إلى أن تأكدوا أننى سوف أدفع ثمنه، وعندما شاهدوا الدولار قفزوا جميعًا وتحركوا مثل القرود وبدأت آكل بعض البسكويت الذى كان فى جيب سرج الحصان وقد أثار ذلك دهشتهم وعندما أعطيت أول من قابلنا بعضًا منه رفض أكله ، ولكن رجلا آخر أكثر جرأة وضع قطعة صغيرة فى فمه وقال إنها جيدة بحركات غريبة جعلت كل الزائرين مسرورين، ولفترة طويلة رفضت إعطاء شىء للرجل الذى شكك فيها فى البداية .

لقد وعدت العرب أن نشارك معهم أكل خروف ، وأظهروا رغبتي في شراء واحد وذهب رجلان لإحضار واحد بدين وبعد برهة صغيرة عاد الرجلان ومعهم الخروف المسكين الذى حاولوا إغرائى أنه جيد وأعلن العرب أنه لا يساوى شيئًا ، وعندئذ أعدت الدولار إلى جيبى وأعطيت إشارة إلى حصانى، ولدهشتى اندفعت كل القبيلة نحو الخروف وأخذت ترقص حولي، وتم إحضار خروف آخر لكى أفحصه، ورغم أن الأمر لم يكن يتطلب أى حصافة يبدو أنه قد زاد من احترامهم لى .

لقد كانت الأكواخ الصغيرة التى يعيشون فيها فى موقع جميل من مكان مرتفع وسط غابة غنية بالأشجار وعلى بعد حوالى ثلاثة أميال فى الجنوب الشرقى من وودى (woodie) ، والآبار التى تقع فى منطقة كثيفة من أشجار النخيل وهى الأولى التى رأيناها فى هذا الجزء من الصحراء ، ووجدنا أكثر من مئة وخمسين تشرب من البئر وقد رافقنا أحد العرب من كبار السن حاملاً الخروف المذبوح إلى وودى، وقد كافأته باثنين من الكهرمان وقليل من النشوق .

ووجدنا الخيام قرب المدينة، وقد قطعت جماعتنا حوالى أربعة عشر ميلاً دون أن نغادر شواطئ البحيرة على مسافات بعيدة وشاهدنا فيلين يسبحان فى البحيرة فى هذا اليوم، وكان هيلمان قد ذهب إلى مقدمة بغله وهو يعانى من الضعف والإرهاق ورقد فى ظل لطيف ينتظر وصول الإبل ولم يكن يتوقع أن يشاهد فيلا، وكان يستريح بالقرب من فيل ضخم دون أن يدرى، وعندما ضرب أحد العرب الحيوان بالحرية صرخ عاليا وتحرك بعيداً ، لقد انزعج هيلمان بشكل مروع .

٨ فبراير :

وعندما سرنا على شواطئ البحيرة فى هذا الصباح بعد شروق الشمس مباشرة كنت فى دهشة عندما وجدت المياه زادت عن اليوم السابق حيث أن أكثر من ميلين من الأشجار قد غُمرت وغطيت أشجار القطن بالمياه ، ولو أزيلت الأشجار من الأرض وهو يعد عملاً شاقًا لأن الأشجار عالية وليست كبيرة – فإنه يمكن إنتاج أى شىء .

٩ فبراير :

أرسلنا الحارس مرة ثانية بعد أن غيَّر ملابسه وذلك لكى يتسلم أوامر الشيخ، ولن نتحرك فيما وراء وودى حتى نعرف رأى الشيخ، لقد كان أمراء الزنـوج أكثر غيرة وشكا عند قدوم العرب لدرجة أننا نتأمل عما إذا الشيخ سوف يسمح لهم بالاقتراب من عاصمته .

لقد وجدنا سوقًا على بعد ميل من المدينة، لقد كانت النساء تتجمع فى مجموعات من قـرى الزنوج المجـاورة، وكن يركبن على عـجل يتـدلى غطاء جلدى من على ظـهره، توضع فيه كل السلع المعدة للبيع، وكانت البضائع تشمل اللبن الطازج والعسل والطيور وغيرها من السلع كالبامية وأعشاب خضراء يحبها الزنوج وأيضًا المسيحيون كما اكتشفنا فيما بعد، وأحضر الرجال الثيران والغنم والماعز والعبيد وكان عددهم قليلاً وفى حالة معنوية سيئة .

وودى Woodie هى العاصمة أو البلد الكبير كما يقولون ويحكمها شيخ من الأقزام وهو رجل ذو مظهر مقبول، ويبدو أنهم يمتلكون كل ضروريات الحياة بوفرة وأنهم من أكسل الناس الذين قابلتهم، فالنساء يغزلن القطن وينسجنه ملابس خشنة بعرض ست بوصـات والرجـال إما يرقـدون كسـالى فى أكواخـهم طوال اليوم أو فى ظل مـبنى من أربعة أعمدة ومـغطى بالأعشاب فى مكان مكشوف بين الأكواخ وهو المكان الذى تعقد فـيـه المحكمـة ومكان الصـلاة أيضًـا ، والرجـال طوال القـامـة ومظـهرهم رياضـى لكن ملامحهم كئيبة المنظر .

وتقع المدينة على بعد ميل غرب تشاد وعلى مسيرة أربعة أيام من بورنو وحولها البحيرة المليئة بالأسماك والطيور، ويعتبر السمك إنتاجهم الوحيد الذى يعرضونه للبيع، والنسـاء مـثل نسـاء التـيبـو يربطن قطعـة مـربعـة من القـمـاش الأزرق أو الأبيض على أكتافهن وهذا يشكل غطاء الجسم، ورغم هذا فإن شعرهن مصفف بشكل غريب وكما لاحظت لايوجد أى شـخص فى مـقتبل العـمر تحـتوى رأسـه على الشـعر كاملاً فـمنذ الطفولة تحلق الرأس وتترك القمـة فقط مغطاة بالشعر الذى يتدلى من الجبهة وحول الرقبة ويوضـع بعد ذلك فى شكل خصلة وتظـل من الأمـام مستقيمة فوق العينين،

ومن الخلف تلتوى قليلاً فتشبه الشعر المستعار لرجال عربات الكارو القديمة فى إنجلترا ، وبعضهم رغم هذا جميل المنظر .

١٠ فبراير :

اتجهت فى هذا اليوم إلى الشرق لكى أرى نهاية الغابة وإذا أمكن ألقى نظرة على القطيع الذى يضم أكثر من مئة وخمسين فيلا والتى شاهدها العرب فى اليوم السابق بينما كانت الحيوانات تقوم بالرعى، ولم يخب ظنى حيث وجدتها على بعد ستة أميال من المدينة فى أرض تغمرها المياه سنوياً من البحيرة وحيث توجد الحشائش الخشنة وتبلغ ضعف ارتفاع الرجل، ويبدو أنها تغطى كل أرض المنطقة ويبدو أنها تزيد عن العدد الذى توقعته، وعندما تنساب المياه على هذه المراعى فإنها تضطر بسبب الجوع للاقتراب من المدن وتنشر الدمار فى كل مكان تسير فيه حيث تدمرالمزارع الكثيرة التى هى أمل الأهالى فى العام التالى، وأحياناً يتم تدميرها فى ليلة واحدة، ولم نشهد إلا بعض الثعالب والبقر الوحشى، وقد تتبعنا حوالى نصف دستة من هذه الأبقار المتوحشة لمدة ثلاث ساعات وقد غيرت طريقها حتى اختفت عن الأنظار لكنها لم تمكننا من الاقتراب منها لصيدها .

وبعد أن أصابنا التعب قررت الذهاب إلى بعض الأكواخ البعيدة لأطلب بعض اللبن سواء الطازج أو الرائب، ولم نعرف أى صاحب كوخ فى هذه المنطقة يعرف شخصية الزبون أكثر من هؤلاء الزنوج الماكرين الذين وجدناهم .

فقد أنكر أحدهم أنه يمتلك أى لبن رغم الأوانى المعلقة والمليئة خلفهم ، سألت ماذا أملك لأدفع لهذا الشخص، حقًا لا أمتلك شيئًا، وبعد أن قدمت منديلى أعادوه لى لأنه لا يساوى شيئًا وكنت على وشك الرحيل رغم أننى بعيد عشرة أميال عن الخيام، وكنت عطشانًا عندما أشار العربى إلى إبرة ملتصقة بمعطفى، وبهذه مع قطعة من الكهرمان أعطاها لى حصلنا على إناء من اللبن وسلة من جوز الهند التى كانت سعادة لنا، وعدنا إلى السكن قرب البحيرة حيث اصطدت طائرين، كما شاهدت قطيعًا من البجع لكن لم أستطع الاقتراب منها وصيدها .

لقد كان سطح الأرض طوال ثمانية عشر يومًا مغطى بأعشاب تعطى نوعًا من الزهور المليئة بالأشواك التى تؤلم الإنسان بشكل لا يطاق، وهى أشواك تهاجم كل جزء من ملابسنا وكانت بقاياها صغيرة لدرجة لا يمكن استخراجها من الملابس أو الجسم، وكنا مضطرين لاستخراجها من الملابس والبطاطين والأقدام والحصر والسراويل التى أصبحت تضايقنا بشكل رهيب لدرجة أنه لم يعد من السهل التخلص منها بالليل أو النهار، وباختصار لم يسلم أى جزء من الجسم من وخز هذه النباتات ، أما بذور هذه الحشائش فكانت تسمى كاشيا Kashia وكانوا يأكلونها .

١١ فبراير :

فى الليلة الماضية حضر مسئولان من رجال الشيخ ومعهم خطابات وهدية من جوز السودان وكان طعمها لذيذا ويقدرها كل شعب طرابلس، وبعد أكل هذا الجوز السودانى كان للماء مذاق طيب بعد أن كان سيئًا، ويسميها العرب فى هذه المناطق القهوة السوداء، وتطالب الرسائل التى استلمناها بوكالوم أن يستمر فى سيره حتى كوكا مع كل جماعته، وهو دليل قوى فى الموقف السلمى لرؤسائنا، وكان الرجلان يرتديان سراويل وعمامة وقبعة حمراء وبعد أن قدما خمسة عشر ثوراً وستة خراف عادا إلى وطنهما ووعدا بتقديم إمدادات جديدة عند الوصول إلى يوى Yeou التى تبعد مسيرة يومين قرب بورنو، وقد حل الظلام عندما وصلنا إلى مدينة تدعى برواها Burwha وقد ابتعدنا مسافة كبيرة عن البحيرة بعد أربعة أيام من الرحلة حيث نتجه جنوبياً نحو الشرق .

وبرواها مدينة مسورة وقد قابلنا أول زنجى فى هذه المنطقة ، ويقال إن الزنوج يتمتعون بالقوة ولإثبات ذلك فقد كانوا يتحدون رجال الطوارق الذين لم يدخلوا المدينة أبداً، ويبلغ ارتفاع أسوار المدينة حوالى ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدماً وهى مغطاة بطبقة من الطين الجاف .

وتبلغ مساحة المدينة حوالى ثلاثة أميال مربعة وتحتوى على خمسة أو ستة آلاف نسمة، وهناك طريق مغطى يضع فيه المدافعون عن المدينة حرابهم ورماحهم،

ثم يختفون بسرعة، كما توجد بوابتان إحداهما شرقية والأخرى غربية ، وهى أكثر الأماكن تعرضاً للهجوم ولذا فهى تضم كتلاً ضخمة من الطمى على كل جانب وتمتد لمسافة عشرين ياردة أمام البوابة وبها فتحات عمودية، وهذه المواقع المتقدمة محصنة وتعد أقوى الأماكن للدفاع عن الأسوار، وهذه المدينة تعد مكاناً حصيناً إذا قدرنا وسائل الهجوم التى يمتلكها العرب ، وكنا مندهشين لمظهرها .

١٢ فبراير :

تجولت فى المدينة منذ الصباح الباكر قبل أن نتحرك، وتضم الأكواخ الرئيسية فى المدينة الأحواش المحيطة بها والتى تحتوى على بقرة أو اثنتين وبعض الماعز والدواجن ووجدت سمكة لطيفة يبدو أنها مشوية أو مقلية والتى قدمت لنا كوجبة إفطار شهية، ونشاهد العشب فى سلال كبيرة من القش فى كل مكان كما أن النساء يغزلن القطن أمام أبواب معظم الأكواخ .

وكنت أتجول طوال هذا اليوم مع مينا على طاهر شيخ التيبو وهو من جاندو ، كان يصحبنا إلى بورنو وكان بين الشيخ وبينه بعض الاختلافات لكنه مستقل، ولكن بوكالوم بدبلوماسيته وسياسته استطاع أن يزيل سوء الفهم، ولم يظهر سلطاته أو نفوذه بل حافظ عليه بطريقة تضمن مستقبل طاهر، ويعد المكان الذى يعيش فيه من أخطر مناطق التيبو فى الطريق إلى مرزوق ، وكان طاهر شخصاً ذكياً ويتحدث القليل من اللغة العربية، وكان دائماً يسأل الكثير عن بلدى وسلطاننا لكنه هذا اليوم كان أقل أسئلة عما تعود، وقال "يا ريس خليل ماذا سيفعل سلطانكم مع مينا على إذا ذهب إلى إنجلترا هل سيقتلنى أو يحتفظ بى سجيناً ؟ إننى أود أن أذهب إلى هناك فى غضون شهر" . وكان ردى "لا هذا ولا ذاك إنه سوف يكون أكثر رغبة فى أن يقدم لك هدية جميلة ويعيدك مرة ثانية" وهنا صاح مينا على "سوف أقدم له شيئاً ولكن ماذا أقدم له ؟ لاشيء سوى جلود وريش اثنتى عشرة نعامة وبعض أسنان الفيل وجلد أسد".

إن قيمة الجائزة لاتهم سلطانى لكنه سوف ينظر إلى النية حاول أن تصادق شعبه تذكر الرجل الإنجليزى الذى رأيته، وفى أى مرة تستقبلهم فى خيمتك قدم لهم اللبن

والأغنام وأرشدهم إلى الطريق الصحيح ، عدنى أن تفعل ذلك وأنا أعدك أن سلطانى سوف يرسل لك سيفًا دون أن تذهب إلى إنجلترا أو أن تقدم إليه شيئًا وقال مينا على إنه هذا الرجل بارك الله ما اسم السلطان؟ "إنه جورج جورج أعطاه الله الصحة بارك الله فيه" أبلغه أن مينا على يتمنى له الصحة والسعادة إنه من التيبو الذين يحملون ألف حربة ولا يخافون أحداً هل هو من الأحرار؟ هل قلبه واسع؟ "قلبه كبير هل يقدم هدايا لشعبه" طبعًا هدايا كثيرة إن شعبه يعتقد أنه كريم جداً يامينا على ورأس أبى إن السلطان الذى يحكم شعبًا عظيمًا يجب أن يكون قلبه كبيراً وإلا فإنه لا يستحق هذا الشعب. ومن الذى سيخلفه بعد موته؟ أخوه؟ ما اسمه؟ فريدرك. بارك الله فيه أتمنى أن يكون مثل جورج. هل هو حر. سلام على فريدرك بارك الله فى صحة فريدرك وكم زوجة عندهم؟"

إن الرجل الإنجليزى لا يمتلك إلا زوجة واحدة وكان رده عجيب. عجيب ومدهش. مدهش لماذا. لا يمتلكون مئة زوجة وكان ردى لا لا إن هذا يُعد خطيئة، والله حقًا؟ لماذا أنا أمتلك أربعة الآن وكان يمكن أن يكون لدى ستين زوجة، إننى أحب أفضلهن. إنكم شعب عظيم وتعرفون كل شىء وأنا كأحد التيبو لست أفضل أو أحسن من الغزال الصغير .

لقد كان الطريق مليئًا بالأشجار المتناثرة، وشاهدنا قطعانًا من الماشية الحمراء، وقتلنا حملاً بريًا، ووجدنا حيوانًا مقتولاً أكل الأسد نصفه، وطوال الليل أشعلنا النيران، ورغم ذلك استمر الصياح والزئير طوال الليل حتى الصباح، ولم نسترح كثيراً، وتوقفنا بجوار ماء يسمى شوجيلام (Chugelarem) وكان أمامنا أحد عشر ميلاً يجب أن نقطعها قبل أن نصل إلى يوو (Yeou) .

١٣ فبراير :

ويقال إن شو جيلارم هى فرع من بحيرة تشاد وإن الماء يرتقع فيها مع انسياب الماء فى البحيرة فى فصل الأمطار وإن قاع البئر ملىء بالطمى ولا يزيد عمقه فى أى مكان عن قدمين ، وكانت الإبل والخيول وأصحاب القافلة يتجولون فيه دون أن تصل

المياه إلى الركبة، وشكله ملتوٍ ويتجه أولاً ناحية الشرق ثم إلى الشمال وبعد ذلك إلى الشرق ثانية .

وقد اتجهنا جنوباً ومررنا على عدد من قرى الزنوج وبعد أحد عشر ميلاً وصلنا إلى مجرى مائى يسمى «يوو» لا يزيد عرضه عن خمسين ياردة وقاعه يتكون من الرمل الصلب النظيف، وكانت شواطئه عمودية، ويجرى به تيار قوى لمسافة ثلاثة أميال ونصف فى الساعة ويتجه نحو الشرق، وكما توقعت قال العرب إنه النيل وإنه يصب فى البحيرة العظيمة تشاد وتقع مدينة بالاسم نفسه على الشاطئ الجنوبى للنهر، وتضم سكاناً كلهم من السودان، وفى بعض الأحيان يتضاعف العرض ويزداد العمق، وكان هناك قاربان بجانب الرمل وهما ينقلان البضائع للقوافل فى فصل الأمطار، ولقد سبحت الخيول والجمال فى الماء حتى القوارب التى تتكون من ألواح خشبية سيئة ومربوطة بشدة بأحبال تمر من خلال ثقوب داخل الأخشاب، وكانت الرياح اللطيفة التى تهب على هذه المياه النقية مريحة لنا بعد أن سرنا مسافات فى صحراء جرداء لدرجة أن الرجال والحيوانات قد استعادوا قوتهم، وسبح الرجال وحتى النساء كما سبحت الخيول، وحسب أوامر الشيخ فقد أعطانا عشرة ثيران لتضاف إلى الخمسة عشر التى أعطاها لبوكالوم فضلاً عن بقية السبعة عشر حملاً من المؤن التى تصحبها .

١٤ فبراير :

زرنا مدينة يوو وهى مدينة نظيفة الأكواخ ولها أسوار لا تزيد عن نصف حجم أسوار برواه، وتقدمنا أربعة عشر ميلاً عندما وصلنا إلى بئر، وهنا كان لابد من التوقف مع الإبل والخيول المتعبة - لكن الزنوج ومعهم عشرة أو اثنى عشر ثوراً محملاً بالبضائع ذكروا أن هناك بئراً قريباً، وعلى هذا فقد عزم بوكالوم على السير قدماً حتى المحطة الثانية وكان الكل متعباً حيث حملت النساء بعض المشتريات من السوق، وامتطى الأطفال العرايا ظهور الماشية، وبعد مسيرة اثنى عشر ميلاً أخرى أى بعد ساعة ونصف من غروب الشمس توقفنا دون أن نصل إلى البئر، وكانت أغصان الأشجار تتدلى بكثرة على الطريق وهذا يعرقل حركة الإبل كثيراً لدرجة أن الساعة صارت العاشرة مساءً ولم نصل إلى البئر .

١٥ فبراير :

وجدنا البئر بعد الطريق مباشرة حوالى أربعة أميال قرب بورنو وكنا ندفع الإبل بسرعة وبقدر الإمكان لكى نصل فى اليوم التالى إلى كوكا مقر إقامة الشيخ فى ساعة مبكرة، وتفرع الطريق إلى فرعين، حيث يتجه الطريق الغربى إلى كوكا، وبعد ذلك مباشرة وصلنا إلى بئر ومدينة صغيرة وبعد غروب الشمس وصلنا إلى بئر أخرى حيث وجدنا أبناء فزان يعمل فى خدمة الشيخ والتقينا به حيث أعطانا أوامر بأن تنصب خيامنا بجانب مياه راكدة تسمى دورخو (Dowergoo) وبقينا حتى اليوم التالى حيث أن الأكواخ التى ستعد لنا لم تكن قد جهزت بعد، وعند الساعة الثامنة وصلنا إلى هذه المياه الراكدة حيث توجد قرية صغيرة تسمى جورداوا (Gurdawa) .

١٦ فبراير :

توقفنا ولم يكن زوارنا كثيرين رغم أننا لم نبتعد أكثر من رحلة ساعة واحدة من مقر إقامة الشيخ فى كوكا، وقد وصلت تقارير عديدة إلى الشيخ عن حجم القوة التى تصحب بوكالوم، واتفق الجميع على أن يتم استقبالنا على بعد مسافة من المدينة من خلال مجموعة من القوات كنوع من التحية للباشا ولإحاطة ممثله عن مدى استعداده لمواجهة أى محاولة من هؤلاء الذين اختاروا أن يكونوا من أعدائه .

وفى هذا اليوم أحضر لى أحد العرب بجعة طولها ثلاثة عشر قدمًا من جناح للآخر .

١٧ فبراير :

كان هذا اليوم بالنسبة لنا يومًا حاسمًا الشىء نفسه بالنسبة لقيادتنا، ورغم كل المشاكل والمصاعب التى واجهتنا فى المراحل المختلفة من الرحلة فقد أصبحنا أخيراً على بعد أميال قليلة من محطة وصولنا، وكنا على وشك التعرف على أناس لم يسمعوا عن أو لم يشاهدوا أى أوروبى، وأن نطأ مكانًا وأرضًا لم تكن معلوماتنا عنها معروفة،

وبالطبع فإن هذه الأفكار لم تعد تثير اهتمام أى شخص وربما لا تكون مفيدة لشعب سوف تختلط به بعد فترة قصيرة، ولوضع أول حجر فى العمل الذى قد يؤدى إلى تحضرهم إن لم يكن تخليصهم من جهلهم وأحقادهم، وربما فى الوقت نفسه فتح مجال من التجارة مع وطننا الذى ربما يزيد من ثرواته ورخائه .

لقد كانت تقاريرنا متناقضة عن أحوال هذه الدولة لدرجة أنه لا يمكن تكوين رأى عن حالة أو عدد السكان .

لقد أخبرونا أن جنود الشيخ مجموعة قليلة من الزنوج الذين يحملون الحراب والذين يعيشون على السلب من الدولة الوثنية السوداء والتى يمكن الحصول عليها وأخذها بمساعدة بعض العرب الذين يعملون فى خدمته، ومرة ثانية أكدوا لنا أن قواته لم تكن كثيرة فحسب ولكن إلى حد ما كانت مدربة تدريبًا جيدًا لكن كل هذه التقارير لم تكن مؤكدة، وأخيرًا تقدمنا نحو مدينة كوكا، ولم يكن مؤكدًا ما إذا كان الشيخ سيقابلنا على رأس الآلاف من رجاله أم سيقابلنا تحت ظل شجرة يحيط به مجموعة من الزنوج العراة .

لكن سرعان ما زالت كل هذه الشكوك، فلقد ركبنا مسافة قصيرة أمام بوكالوم ومعه جموع العرب الذين ارتدوا أفضل ما عندهم من ملابس، وبسبب سُمك الأشجار سرعان ما اختفوا عن الأنظار وتخيلت أننا لم نضل الطريق ، وتقدمت فى السير، وعندما وصلنا إلى نقطة كثيفة النباتات لم أكن مندهشا عندما شاهدت أمامى مجموعة من عدة آلاف من الفرسان فى صف واحد يمتد من اليمين إلى الشمال وأوقفت حصانى وانتظرت وصول جماعتى تحت ظل شجرة ضخمة من الأكاسيا .

وقد ظلت قوات بورنو ثابتة دون ضوضاء أو فوضى، وأصدرت إلى مجموعة من الفرسان الذين يتحركون فى المقدمة تعليمات بخط السير .

وعندما ظهر العرب على مدى النظر صدرت صيحات من رجال الشيخ الذين تحركوا لمقابلة بوكالوم ورجاله من العرب وكانت حركاتهم وانضباطهم ودقتهم فى إدارة هذه التحركات من الأمور التى أدهشتنى، وتحركت ثلاث مجموعات من قلب كل فريق وتحركت نحونا على بعد عدة أقدام من رءوس خيولنا ودون كبح سرعة خيولهم حتى

وصلوا إلينا ، وفى الوقت نفسه تحرك الجمع نحونا وكان الجميع يمتطى خيولاً أنيقة تتحرك وتتوقف بكل رشاقة وهم يرفعون الرماح فوق رءوسهم ويصيحون قائلين " الله يبارك فيكم، أبناء وطنكم، أبناء وطنكم"، وعادوا بسرعة إلى مقدمة المجموعة لكى يكرروا النداء نفسه .

بينما كانت هذه الأفعال تتم فإن فصائل اليمين والشمال تتقدم يحيط بهم مجموعة صغيرة من محاربى العرب لتقديم تحية القدوم والترحيب بهم ، وكنا نشعر بالخطر من التحام الرماح وتقارب الخيول .

وتحركنا بكل صعوبة ثم توقفنا، وكان رئيسنا غاضبا لكن دون فائدة حيث كان الرد صيحات الترحيب والرماح مرفوعة بشكل سيئ فوق رءوسنا .

لكن هذه المضايقات لم تستمر طويلاً عندما ظهر باركا جانا (Barca Gana) القائد الأول فى رجال الشيخ وهو زنجى أنيق المظهر ويرتدى سروالا من الحرير على ظهر حصان جميل، وبعد فترة بسيطة تم إخلاء المؤخرة وتحركنا لكن ببطء شديد .

وكان زنوج الشيخ كما يسمونهم أى الرؤساء السود وأتباعهم قد وصلوا إلى هذه المرتبة نتيجة أعمال الشجاعة التى أظهروها من قبل، وكان هؤلاء يرتدون معاطف تتكون من سلاسل حديدية تمتد من الحلق حتى الركبة مفتوحة من الخلف وتتدلى على كل جانب من الحصان، وبعضهم يلبس خوذات من المعدن نفسه من قطع حديدية قوية لرد أى ضربات من الحراب، كما أن رءوس الخيول كانت محصنة بقطع حديدية من النحاس والفضة تاركة مسافة كافية لعينى الحيوان .

وأخيراً عندما وصلنا إلى بوابة المدينة سمح لنا مع بوكالوم واثنى عشر من أتباعه بدخول البوابات، وتقدمنا على طول شارع عريض تحفه جماعات من رجال الحراب وأمامهم الفرسان حتى وصلنا إلى مقر إقامة الشيخ .

وخرج بعض الحراس الرئيسيين وبعد الترحاب عادوا وجاءت جموع أخرى للتحية ، وتركونا جالسين على خيولنا فى الشمس ، وبدأ بوكالوم يفقد صوابه وأقسم برأس الباشا أنه سوف يعود إلى الخيام إذا لم يسمح له فورا بالدخول ، ولكنه لم يجد رداً مقنعاً سوى حركة من يد أحد الرؤساء تعنى "انتظر بصبر" وهمست إليه بضرورة

إطاعة الأوامر حيث أننا كنا محاطين بالسلاح من كل جانب والانصراف دون إذن يجعل من الصعب الخروج .

وظهر باركا جانا وأعطى إشارة بأن ينزل بوكالوم وكنا على وشك النزول لولا أن تلقينا أوامر بأنه الوحيد الذى ينزل من على ظهر جواده، وبعد نصف ساعة لم نسمع أى أخبار من داخل المبنى عندما فتحت البوابات، وتم استدعاء الرجال البريطانيين الأربعة وتقدمنا نحو المدخل، وهنا أوقفنا أحد الحراس السود الذين فى الخدمة، وسمحوا لنا بصعود السلالم واحداً بعد الآخر ، وعند القمة توقفنا أمام حراب متعامدة وممتدة، وخرج بوكالوم من الغرفة الداخلية وسأل هل نحن على استعداد لتحية السلطان كما فعلنا مع الباشا، وكان الرد "بكل تأكيد"، وذلك بإعطاء إيماءة الرأس بالموافقة ووضع اليد اليمنى على القلب ، ونصحنا بأن نضع أيدينا على الرءوس أيضاً ولكننا أجبنا أن هذا مستحيل لأننا نقدم وسيلة واحدة لتحية أى شخص سوى الله العظيم .

وحدث تفاوض آخر ولكن بعد دقيقتين عاد وأشار إلينا بالدخول إلى هذا الشيخ صاحب الحراب ووجدناه فى غرفة صغيرة مظلمة يجلس على سجادة ويرتدى روباً (معطفاً) أزرق اللون من قماش السودان وعمامة حولها شال ، ويوجد اثنان من الزنوج حول كل جانب يحملون المسدسات وتتدلى الأسلحة النارية من كل جانب من الغرفة وهى هدايا من الباشا وسلطان فزان مصطفى الأشمر وهى لا تقدر بمال، ولقد كان مظهره جذاباً وابتسامته رشيقة ولا يزيد طوله عن خمسة وأربعين أو ستة وأربعين قدماً، وسلمنا خطابنا من الباشا ، وبعد أن قرأه سأل ما المقصود بحضورنا إلى هذا المكان ؟

وكان الرد "لكى نشاهد فقط هذه المنطقة ونقدم تقريراً عن سكانها ومنتجاتها ومظاهر سطحها ؛ لأن ملكنا يريد أن يعرف كل شىء فى هذا الكوكب" (العالم) .

وكان رده "إنه يرحب بنا، وإن كل ما يمكن أن يقدمه سيعطيه لنا بكل سرور ، وإنه قد أعطى الأوامر بإعداد أكواخ لنا فى المدينة، وأننا يمكن أن ننصرف بصحبة أحد رجاله لكى نشاهد كل شىء، وأنه بعد الاستراحة من عناء السفر فى هذه الرحلة

الطويلة فإنه يسعد بلقائنا " وبهذه الكلمات انصرفنا. وكانت أكواخنا من المبانى الطينية المستديرة داخل أسوار لا تبعد كثيراً عن مقر إقامة الشيخ، وكانت الأماكن المحيطة بها واسعة وتنقسم إلى عدة أقسام يحدها الحصير والقش حيث توجد مجموعات الأكواخ يشغلها التجار الغرباء الذين رافقوا القافلة، وقد تم تخصيص أحد هذه المساكن لنا، وزحفنا تحت ظل هذه المساكن الطينية والتى لم نجد إرهاقًا عند دخولها .

الفصل الثانى

كوكـــا

فى الحال امتلأت خيامنا بالزائرين لدرجة أننا لم نجد لحظة للهدوء وكانت الحرارة لا تُطاق ، لقد تسلم بوكالوم هداياه من الباشا وأحضر لنا خطاب شكر مع إحاطة بأن هدايانا سوف نتسلمها فى اليوم التالى .

وعند الظهر تلقينا دعوة لحضور لقاء الشيخ ، وتقدمنا إلى القصر وأمامنا الزنوج حاملين الهدايا المخصصة للشيخ من حكومتنا والتى تتكون من بندقية ذات خزنتين ومعها صندوق وكل لوازمها ، وزوج من المسدسات فى جرابها، وقطعتين من القماش الممتاز إحداهما زرقاء والأخرى حمراء، وأضفنا طقمًا من الصينى واثنين من مجموعة البهارات .

وكان احتفال ظهور الشيخ مضحكًا حقًا رغم أنه كان بسيطًا جداً عند دخول الشيخ نفسه، فقد مررنا على صفوف من الحرس، وكان رجال المقدمة يجلسون القرفصاء وعندما تقدمنا بسرعة أوقفنا هؤلاء الحراس فجأة وقبضوا علينا وأمسكونا بقوة من الأرجل ولو لم يتدخل الجمع لمنعنا من السقوط لكُنّا سقطنا قبل أن نصل إلى حضرته وقبل أن ندخل فى البلاط المكشوف حيث يتم الاستقبال ، وخلع الحراس الصنادل الخاصة بنا وجلسنا على بعض الرمال النظيفة على كل جانب من كرسى مرتفع عن الأرض مغطى بسجادة يجلس عليها الشيخ .

ووضعنا البندقية والمسدسات أمامه وشرحنا لــه كيفية استخدام هــذه الأسلحــة وكيفية تزويدها بالرصاص ، أما بقية الأشياء فقد حملها العبيد فور وضعها أمامه مباشرة، ومرة ثانية سألنا الشيخ عن أسباب زيارتنا ، ومع ذلك أظهر (الشيخ)

الرضا الكافى عن تأكيدنا بأن ملك إنجلترا قد سمع عن بورنو وعن شيخها، وبسرعة التفت إلى مستشاره قائلاً إن هذا نتيجة لهزيمتنا لشعب باجرمى والتى بناءً عليها فإن الرئيس الذى اشتهر فى هذه المعارك المشهورة ويدعى جامع الفرسان قد جلس أمامنا وسأل هل سمع عنى ؟ وكان الرد العاجل "بكل تأكيد" وكانت الصيحات عالية ، أه إن ملككم لابد وأنه رجل عظيم، وقد دوت الصيحات فى كل جانب . ولم يقدموا إلينا أية مشروبات وغادرنا المكان .

وألاحظ هنا أنه إلى جانب الهدايا التقليدية من الثيران وأحمال الإبل من القمح والأرز وجلود الحيوانات والزبد وأطباق العسل وأرسلوا أوانٍ خشبية من العسل كل هذا كان يرسل إلينا صباحًا ومساءً، الأرز والعجين والشطائر المصنوعة من الشعير والدقيق ، وفى أول أيام وصولنا كان العسل يصل إلينا مع الحلوى .

وفى إنجلترا فإن كمية من الأسماك تعد هدية جميلة لرحالة يصل إلى مجرى مائى مجاور لكن فى بورنو الأمر يختلف تماما بل إن جملاً محملاً قد ألقى أمام أكواخنا فى صباح اليوم التالى لوصولنا ، وخوفًا من عدم كفاية هذه الحمولة فقد ألقى حمل آخر فى المساء .

هنا يوجد سوق أمام واحد من أبواب المدينة، كانت الأغنام والرقيق والثيران التى تتواجد بأعداد كبيرة هى السلع الرئيسية للبيع، ويوجد على الأقل ١٥٠٠٠ شخص يتجمعون معًا بعضهم جاء من أماكن تبعد مسيرة يومين أو ثلاثة أيام ، ويتواجد القمح والأرز بكميات وفيرة فضلاً عن الجوز والفول والنيلة التى تتواجد بكثرة من أجل صباغة الملابس (الأثواب) والصوف مع بعض الأقمشة البيضاء التى تفضلها نساء بورنو والتى تجمع بأعداد كبيرة للسوق – أما الخضروات فهى نادرة وكان البصل والطماطم هى السلع التى تعرض للبيع، والفاكهة أيضًا ليست كثيرة ، وأرسل إلينا الشيخ بعضًا من حديقته وهى الفاكهة الوحيدة التى شاهدناها فى بورنو ، وكانت الجلود بكميات كثيرة بالإضافة إلى جلود الثعابين وجلود التماسيح التى تستخدم لتزيين الخناجر والتى أرسلوها إلينا للبَيع ، كل هذا فضلاً عن الزبد واللبن والعسل والأوانى الخشبية من السودان .

لقد كانت ملابس النساء تشكل جزءًا كبيراً من سلع الشراء وكانت ملابس الكانم والبرنو متعددة، وكان التنوع فى ملابس النساء يختلف فى نوع الزينة التى تغطى الرأس حيث نجد الاختلاف فى اختيار الإنسان له والذى يربط قطعة من الصوف الأزرق أو الأبيض تحت الأذرع وعبر الصدور أو يربطها بإحكام على أحد كتفيه تاركًا أحد صدريه عاريًا .

وتترك نساء الكانمبو قطعًا صغيرة من الشعر تتدلى حول الرأس حتى نهاية الرقبة كما أنهن يضعن خيوطًا من حلقات الفضة بدلاً من النحاس ، وقطعة فضية كبيرة أمام جباههن .

أما النساء الرقيق فى مملكة موسجو (Musgow) فى الجنوب الشرقى من ماندارا (Mandara) فكن غير ملائمات فى المظهر رغم الثقة فيهن وقدرتهن على العمل الشاق، ويلتف شعرهن فى ثلاث خصلات تمتد من الجبهة إلى مؤخرة الرقبة مثل أهل بورنو والخصلة الأكبر فى الوسط واثنتان على الجانبين، ويوجد الودع فى الأنوف وواحدة كبيرة أسفل الشفة فى حجم الشلن والتى تمتد مباشرة خلال الفم حتى تفسح المجال للزينة ، ويمكن استبدال أحد الأسنان .

ويتولى الرقيق الأساسى مسئولية بيع السلع التى يطلب أصحابها الاستغناء عنها ، ولو كانت السلع قادمة من أماكن بعيدة فإنها تحمل على ظهور الثيران .

وفى العادة لا يحضر الرقيق معهم الحراب، ويتم الشراء فى العادة بنظام التبادل سلعة بأخرى أو دفع القيمة بالودع ، وقطع من المرجان أو القماش الصوف المصنوع هناك ، بواقع دولار لكل أربعين ياردة .

ومن بين السلع المعروضة للبيع وخاصة لى كانت عبارة عن أسد صغير وقرد وكان القرد أكثر خطراً من الأسد، وكان الأسد يسير دون اهتمام كبير ، ومربوطًا فقط بحبل صغير حول رقبته وكان الزنجى قد اصطاده منذ أن كان عمره شهرين وظل عنده ثلاثة أشهر ويرغب فى التخلص منه وكان حجمه مثل حجم القرد الكبير مع أطراف كبيرة ، وكان الناس يقتربون منه دون خوف رغم أنه ضرب أحد الرجال الذين وقفوا فى طريقه مما تسبب فى نزول الدم بغزارة ، وقد فتحوا الحلقة حول هذا الحيوان عندما اقتربت

على مسافة ياردتين أو ثلاثة ، وركز عينيه عليّ بدرجة لا يمكن وصفها، وبعد ذلك طلب زميل منى الاقتراب أكثر وأكثر فى الوقت نفسه الذى وضع يديه على مؤخرة الحيوان ، وفى هذه اللحظة أدركت أنه لا يوجد خطر فى وضعى هذا وتقدمت مع الزنجى واعتقدت أنه وضع يدى على ظهر الأسد الذى اندفع بين أرجلى وكسر الحلقة وسحب الزنجى معه بعيداً ودفع الكثيرين الذين كانوا أمامه .

٢٢ فبراير :

فى هذا الصباح وصل بوكالوم إلينا بعد أن قابل الشيخ وقال إنه شرح له رغبتنا لرؤية كل شىء ، وأن نأخذ ريش الطيور لبلادنا وأن نجمع النباتات التى تهمنا وأن نسجل ملاحظات عما نراه . وكان رد الشيخ "أننا وأى شخص من مواطنينا يرى الباشا أنه مناسب ويرسله إلينا له الحرية فى مشاهدة أى جزء من البلاد" وكان بوكالوم يدرك تماماً الأمور الكثيرة التى نود أن نراها، وعبّر عن رغبته الجامحة فى خدمتنا والتى ستكون مفيدة لنا خاصة وأنه يعرف هذه الشعوب، وكان رأيه أننا يجب أن نقتنع أولاً بمطلب الشيخ وهو عدم التحرك حالياً وألا يدخل الشك فى قلوبنا من نواياه ، وكما هى العادة فى التعرض للسلب والنهب عند رؤية الأجانب وممتلكاتهم وقدراتهم الخارقة وأسلحتهم التى تتفوق على تسليحهم كل هذا لا يدعو للدهشة ، وعندما يقدم هؤلاء الأجانب على أنهم جاءوا من أماكن بعيدة لا يدركون مكانها ولأغراض لا يفهمونها وبالتالى فإن هذا يتطلب الكياسة وحسن إدارة الأمور وتهدئة عقولهم ، وإدخال الثقة فى أنفسهم .

ولقد خرج تقرير إلى الخارج بأن هدفنا هو بناء السفن لكى نبحر بها إلى داخل البحيرة ، ونقودها إلى بلادنا وأن الشعب الأبيض سوف يأتى ويدمرهم .

وبالنسبة لهذه التقارير فإننى بلاشك أتقدم بالشكر لبعض التجار من مرزوق الذين سبقونا ، ومع أن زياراتهم المتكررة كانت خطيرة علينا فإن نصائحهم كانت هامة لنا لولا الظروف التى منعتهم من التصرف .

وأكد بوكالوم لنا أن هذه التقارير قد لقيت قبولا معقولا وأنه أكد للشيخ أن معظم الشكوك لا أساس لها من الصحة ، وأن مانقوم به هو الشيء نفسه الذى سمح به الباشا فى العام الماضى فى كثير من مناطق إمارة طرابلس .

لقد كان كل العرب الذين فى صحبتنا فى فرح كبير عندما سمعوا عن تقرير بقدوم سلطان باجرمى مع قوة كبيرة وعلى بعد أربعة أميال من كوكا .

وكان الشيخ الكانيمى قد دمر فى حملات سابقة كل المنطقة وفى كل مرة يطرد السلطان من كيرنك (Kernuk) أو العاصمة ، وفى آخر مرة دمر بالنيران المدن التى هجرها الناس ، وظل ثلاثة أشهر فى الدولة ، وأما السلطان مع كل عائلته وعبيده فقد انتقلوا إلى الجانب الآخر من نهر كبير ، واتجهوا إلى المناطق الجنوبية التى يسكنها الوثنيون الذين قدموا لهم رغم ذلك المأوى والحماية .

ويصفون هذا الشعب بأنهم يشبهون رمال الصحراء فى عددهم وقد اصطحبوه لكى ينتقم لنفسه من شيخ بونو .

إن مشهد السلب واسترقاق الناس الذى تلصقه هذه التقارير بالعرب رفع من معنوياتهم إلى درجة أنهم قضوا نصف الليلة فى الجدال حول هل يمكن نقل الأسلوب عبر الصحراء دون أن يعرف أعداؤهم أنهم قد انهزموا ، ومجرد ظهور بندقية جعلتهم يعلنون أنها كافية لطرد ألف من الزنوج .

٢٤ فبراير :

سمعنا فى هذا اليوم أن الباجرميين قد توقفوا فى مكان يدعى جولفى (Guiphi) عندما سمعوا أن بوكالوم فى هذا المكان ومعه مجموعة من محاربى العرب ، لكن أكدت التقارير أن الشيخ سوف يرسل قوة إلى بلادهم لكى يعاقب السلطان لمجرد أنه فكر فى الانتقام .

٢٦ فبراير :

لقد كان على بوكالوم أن يرى الشيخ لكى يقنعه أن كل الهدايا التى خصصتها له حكومتنا قد سلمت إليه وأننا سوف نراه بأنفسنا ونطلب منه السماح بزيارة بعض المدن المجاورة ، وعاد بوكالوم إلى أكواخنا بعد هذا اللقاء ، وشرح لنا أن الشيخ قد ذكر لرئيس حراسه أنه قد سمع عن ساعة خصصت له فضلاً عن البارود، وحيث أنه لم يرها فإنه شعر بالغضب ، وأنه يرغب فى زيارتنا فى اليوم التالى ، ولقد أعطى الشيخ لشعب بوكالوم قماشًا أبيض ، وأعطاه لنفسه اثنين من العبيد النساء الجميلات من السودان ذوات اللون النحاسى الغامق دون سن العشرين من العمر ومعهما اثنان من الزنوج لخدمتهما ، ولقد وصلت أخبار فى ذلك اليوم بأن شعب باجرمى قد غادر جولفى عائدين إلى ديارهم وأنهم على وشك بناء عاصمتهم .

٢٧ فبراير :

قبل الظهر بحوالى ثلاث ساعات حضرنا لقاء الشيخ حيث قابلنا بكل ترحاب وبدت عليه علامات الرضا عندما وصلته كل الهدايا ، وعندما شرحنا له كل شيء أشار أنه لا داعى لإظهار حسن النية لكنهم أخبروه أن السلع التى ذكرها قد أحضرت وعلى هذا فإنه طلبها حقًا لو سلمت كل الهدايا بشكل مناسب فى حينها فإنه لم تكن هناك أية قضايا مثارة حول هذا الموضوع ، ومرة ثانية سأل عن طلباتنا وتساءل عن الكثير من الأمور وتمنى أن يتم وصف الخريطة له وطلب من على (كما يطلقون على هيلمان النجار) أن يعد له بعض الصناديق ، وطلبنا أن نرى بحيرة تشاد ونهر شارى والمياه فيهما مع مشاهدة مدينة بورنو القديمة ، ووعد بأننا سوف نزورها فى أيام قليلة ، وسأل أسئلة كثيرة عن طريقتنا لمهاجمة مدينة «مسورة» وعندما شرحنا له أننا نمتلك بنادق تحمل كرات زنتها ما بين أربعة وعشرين واثنين وثلاثين رطلاً نهاجم بها الأسوار ثم نبدأ فى مهاجمة المكان عندئذ ظهر بريق وشعاع من عينيه وهو يصيح متعجبا "مدهش.. مدهش" وتساءل هل معنا أى شيء يشبه النيران البرية التى تلقى على أى مكان لتحرقه ، وكانت خيبة أمله كبيرة عندما أجبنا بالنفى ، ورغم هذا حاولت تهدئته بأن الذى أحضرناه هو الشيء المناسب له تمامًا ، وأن عملية إرسال جملين محملين بالبارود أسهل بكثير من إرسال الكمية نفسها من البلح من فزان .

ووعدنا بأننا سنعرض عليه فى المساء اثنين من الصواريخ ، ولم نكد نتناول طعام الغداء عندما جاء (كراواشى) أحد أتباعه ليقول إن الشيخ قلق وأنه يوجد فى المدينة مجموعة من الشواس (Shouaas) الأعداء وهم مجموعة غريبة من العرب وهم يحتلون مناطق فى مملكته ، وأنه شغوف بأن يرى آثار هذه الأسلحة المرعبة ، ولقد قام السيد كلابرتون بوضعها على بقية ثلاث حراب فى مقدمة مسكن الشيخ ، وأمام مجموعة من الأشخاص من رجال الشيخ الذين تجمعوا أمام أكواخهم ، وتعالت صيحاتهم حتى فى داخل الأكواخ عندما تم إنزال الصواريخ .

٢٨ فبراير :

لقد حدث اضطراب فى المعسكر هذا الصباح وصل إلى حد التمرد المباشر بين العرب من أتباع بوكالوم حيث أحضر معه مجموعة كبيرة من السلع التى لم تجد إلا سوقًا محدوداً فى كوكا أو أنجورنو، وكان متعجلاً للتحرك نحو السودان .

ورفضت جماعات المشاة أن تصحبه وقالوا إن الباشا قد أمرهم ألا يسيروا مع الإنجليز أكثر من ذلك لأن السودان بلاد بعيدة لكن أشار أحد الأشخاص بأن الباشا يرغب فى إرسال حملة سلب ونهب إلى باجرمى وأن بوكالوم قد عارض هذه الرغبة لأنها لاتتفق مع ما عنده من أوامر ، وأن مكاسبهم من إرسال حملة سلب ونهب سوف تكون أكبر من إرسال حملة سلام وتجارة ، وأنهم فضلوا الشرق عن الغرب .

وبالتأكيد فإن بوكالوم يرفض القيام بإحدى هذه الحملات للسلب والنهب حبًا فى النواحى الإنسانية، كما أنها تمجد الأمة البريطانية ، ومع ذلك فإن العرب عرفوا رغبات الشيخ وظلت الأمور فى حالة غير مستقرة تماماً .

فى هذا المساء قمت بزيارة إلى سولو Sooloo أحد رجال الشيخ البارزين والذى كنت قد أعطيته منديلاً من الحرير فى الصباح ، ويتكون مسكنه من غرفتين إلى جانب مكان للحصانين وبقرة وبعض الماعز ويمكن أن تتخذ عينة (نموذجًا) لأحسن المساكن فى كوكا .

ويوجد فى أحد هذين القسمين كوخ دائرى مغطى تماما بالقش الذى يشبه القمح الهندى ، والحوائط مصنوعة من المادة نفسها ، إلى جانب سور من الطمى بارتفاع قدمين ويفصل هذا الجزء عن الآخرين وهنا يحفظ القمح الخاص به ، وفى الجانب الآخر يوجد مجلس بسيط التكوين هو مكان راحته ومغطى بالحصير وبه حرابه والأوانى الخشبية التى يحفظ فيها الماء واللبن وهنا تكون شقته الخاصة ، وعلى الجانب الآخر هناك كوخان أصغر حجمًا يبتعد الواحد عن الآخر عشر خطوات حيث تسكن زوجتاه وقد استدعاهما إلى الباب لكى يقدما لى التحية ولكن عندما نظرنا إلى أعلى صاحتا بأعلى صوت وعادتا بسرعة لدرجة جعلت وجهى يحمر خجلاً .

١ مارس :

أرسل الشيخ إلينا بعض خضروات اليام وهى الأولى التى شاهدناها ، وقدم إلينا كمية كبيرة لأنها كانت الخضروات الوحيدة التى ذقناها لعدة شهور ، وعند الفجر تم عقد لقاء تحت ظل شجرة كبيرة أمام مقر إقامة الشيخ وفى حضوره بين شيوخ العرب وبوكالوم ، ورغم أن العرب قد توسلوا إليه أن يكون ممثلهم ورغم أنه لم يظهر أى اتجاه للمشاركة فى الحديث الخاص بهم إلا أنه قد فهم الوضع وطالب بتجهيز مئة من العرب وإرسالهم إلى أحد رؤسائه حسب أوامر بوكالوم إلى باجرمى ومعهم ما بين ١٥٠٠ وألفى فارس ، مع جزء كبير من منتجاته فى هذه الحملة كهدية للباشا .

ولم يكن هناك أى شىء أكثر إيلامًا من موقف بوكالوم الذى عرف وضع سيده تمامًا لدرجة أنه لم يشعر بما سيكون عليه مصيره إذا رفض هذه الفرصة بأخذ ألفى عبد على الأقل ، وكانت ميوله أن يتجه إلى السودان لكنه كان أيضًا قلقًا فى أن يتجنب كونه أداة عقابٍ لأحد الشعوب أو أن يرضى بانتقام شعب من آخر .

وانقسم العرب أيضًا ، ففى الحملة السابقة أفسد شعب باجرمى خطط الغزاة بترك المدن وساقوا قطعانهم من الماشية ، وأجبروا رجال الشيخ على العيش كلية على القليل من الطعام الذى صنعوه من الدقيق لمدة خمسة وعشرين يومًا والتى كانوا يأخذونها معهم عند التوجه إلى المعارك وكان هذا ما يخشاه العرب على خيولهم

أما المشاة فلم يجدوا شيئًا يتاجرون فيه سوى بنادقهم ولن يخسروا شيئًا سوى حياتهم ، صاحوا بصوت مرتفع .

٢ مارس :

فى هذا اليوم شق بوكالوم طريقه إلى بيرنى (Birnie) بقصد تقديم واجبات الاحترام للسلطان الذى يقيم هناك ، وقد صحبناه فى هذه الزيارة ، وتقع مدينة أنجورنو وهى مدينة كثيفة السكان وكانت مقر إقامة الشيخ قبل بناء كوكا – على بعد ستة عشر ميلاً من هذا المكان ، وعلى بعد ميلين من بيرنى ، وأخذ بوكالوم معه الهدايا التى تساوى مئة وعشرين دولاراً ولكن نتيجة لخطأ ما ذهبنا خالين الوفاض .

وعندما وصلنا إلى «بيرنى» – وهى مدينة مسورة تضم أكواخًا تشبه تلك التى شاهدناها فى كوكا ، ومن المحتمل أن سكانها عشرة آلاف نسمة – توجهنا فى البداية إلى بوابة مقر السلطان وهى من الطين حيث اصطف عدد من حاشيته لاستقبالنا وفى مقدمتهم أحد الرجال يرتدى ثمانية أثواب من ألوان مختلفة من قماش السودان وكان يحمل فى يده آلة ضخمة تشبه الطبلة ، ويلبس عمامة على رأسه تفوق حجم أى عمامة شاهدناها من هذا النوع من قبل .

وكان هذا أمر تافه بالنسبة لهؤلاء الذين سوف نراهم فى الصباح التالى ، وبعد التحية والاطمئنان على الصحة "بارك الله فيكم هل أنتم بصحة ؟ الحمد لله " وقد استمرت هذه التحية بضع دقائق توجهنا بعدها إلى بعض الأكواخ التى ستكون مقر إقامتنا هذه الليلة ، ولم يكن وصفها مغرياً .

واقترح بوكالوم أن يتم إعداد خيمة كبيرة فى أى مكان فربما تكون أفضل من هذه الأكواخ ، وقد تم بالفعل تحقيق هذه الرغبة بسرعة ، وفعلاً تم تجهيز خيمة كبيرة لاستقبالنا ، وحولها ستائر من القماش ، ورغم أنها حجبت الجموع التى تجمعت فى الخارج والتى كانت تجرى حولنا إلا أنها كانت تسمح بدخول الهواء ، كما أنها منعت الشمس المحرقة فوق رءوسنا .

وبعد قليل أرسل السلطان إشارة بأنه سوف يلتقى بنا مع شروق صباح اليوم التالى ، وفى المساء قدموا لنا وجبة شهية من سبعين طبقا كل منها يكفى لإطعام ستة أشخاص ، وأرسل السلطان نفسه عشرة أطباق ، وأرسلت زوجاته ثلاثين طبقًا ووالدته ثلاثين أخرى وخوفًا من ألا يأكل الإنجليز مثل أهل بورنو أرسل عبدين يحملون الطيور كطعام الغداء وكانت اللحوم من الدواجن والضأن وكانت مشوية أو مسلوقة أو محمرة .

٣ مارس :

بعد شروق الشمس استدعونا لمقابلة سلطان «بورنو» حيث استقبلنا فى مكان واسع أمام مقر الإقامة الملكى ، وكنا على بعد مسافة معقولة بينما تقدم شعبه حوالى مئة ياردة ومرت جماعة على ظهور الإبل وقد استعرضوا أنفسهم أمامنا ، واتخذوا مكانهم على الأرض أمامنا ولكن اتجهت ظهورهم للشخص الملكى وهى عادة هذا القطر وكان السلطان يجلس فى شكل يشبه القفص من الخشب أو البوص، بجوار باب حديقته وعلى مقعد يبدو من على مسافة أنه مغطى بالحرير أو الستان وهو يشبه دائرة تمتد من المقعد إلى المكان الذى يجلس فيه .

وليس هناك شىء غريب سوى بعض الشخصيات التى تضم هذا البلاط ، وهنا نجد كل مظاهر الفخامة والعظمة دون أن نجد لها مبرراً حيث يحكم ويسيطر بقوة الشيخ الذى يحاول أن يكون شعبيًا ومحبوبًا بين كل الجماعات ، كما يحاول أن يسر السلطان بأن ينغمس مع كل الجماعات فى كل الممالك الزنجية القديمة .

فالبطون الكبيرة والرءوس الكبيرة لا يمكن الاستغناء عنها لهؤلاء الذين يخدمون بلاط بورنو ، وكانت القمصان الثمانية أو العشرة أو الاثنتى عشرة وبألوانها المختلفة تسهم فى إبراز عظمة الشخص ، كما أن الرأس ملفوفة عدة لفات من القماش أو الصوف بألوانه المختلفة رغم أن اللون الأبيض هو السائد .

وعندما اتخذ هؤلاء الفرسان الذين يزيدون عن مئتين وستين أو ثلاثمئة أماكنهم أمام السلطان سمحوا لنا أن نقترب على بعد مسافة طلقة مسدس من المكان الذى يجلس فيه ، وجلسنا عندما شاهدنا هذا القزم الأسود وهو الشخص الوحيد الذى اقترب من مقعد السلطان وطلب الهدايا .

وقد أعد بوكالوم هداياه التى وضعها فى شال كبير وحملها دون أن يفتحها أمام الحاضرين ، وبنظرة سريعة على السلطان شاهدنا أن عمامته أكبر من عمامة أى من رعاياه وأن وجهه من الأنف إلى أسفل مغطى تمامًا ، وعلى يميننا قليلاً وبالقرب من السلطان ارتجل أحد أعوانه خطابًا وهو يصيح مادحًا سيده ، وبجواره رجل يحمل آلة خشبية طويلة تصدر صوتًا مثل المزمار المرتفع ولكن صوته ليس موسيقيا . ولا شيء يثير السخرية أكثر من منظر هؤلاء الناس الذين يربطون فى أماكنهم يعانون من ثقل وعظمة العمائم والبطون بينما ظهرت السيقان الرفيعة أسفلهم لتحمل بقية أجزاء الجسم .

وبعد هذا الاستقبال وذلك الحفل رحلنا إلى أنجورنو التى تعد أكبر مدن بورنو وأكثرها سكانًا ، وتقع على بعد عدة أميال من بحيرة تشاد ، وتضم هذه المدينة مالا يقل عن ثلاثين ألف نسمة ، وهى مدينة واسعة لكنها ليست مسورة ، كما أن أكواخها أكبر من أكواخ كوكا وبعضها يضم أربعة أسوار من الطين وغرفتين . ولقد تحرك الأصدقاء والتجار الذين اصطحبوا القافلة من طرابلس ومرزوق إلى هذا المكان بعد أن قدموا كل الاحترام للشيخ فى كوكا وهنا وصلنا إلى سوق المدينة حيث زارونا مباشرة بعد وصولنا ، والتجار الوحيدون إلى السودان من المغاربة ووجدت هنا أحد أهالى لوجوم وكان قد عاد توًا من سنار وكان فى رحلته لمدة عامين لكنه أجبر على الخروج من هناك وكنت شغوفًا للقائه .

عندما وجدته فى اليوم التالى فى كوكا ، أرسل لى رسالة تفيد أنه لا يستطيع أن يأتى إلى الكوخ حتى يقابل الشيخ .

ويوم الأربعاء هو يوم انعقاد السوق العام ويحضره ثمانون أو مئة ألف شخص كما يقول السكان لكن سوق هذا اليوم كان حافلاً وينعقد فى مكان واسع وسط المدينة ، ويعقد كل مساء وهنا يوجد السمك واللحم والدواجن بكثرة فضلاً عن الملابس والبصل والطماطم – لكن لا توجد خضروات ، وكان وجود البعض يثير الشفقة والدهشة إن لم يكن الاحتقار حيث تتبعنى مجموعة من الناس فى السوق والبعض كان يهرب عند اقترابى كما أن بعض الناس كان يتخلص من سلعته حتى يشق طريقه بعيداً عنى رغم أن اثنتين منهم من هول الدهشة ظلتا فى مكانهما دون أن يدركا هروب بقية الزميلات،

ولقد كان اليوم حاراً وكان المساء أقل حرارة ، وإننى أعتقد أن «كوكا» أفضل هواءً من الاثنين ، وفضلت أن أنام هذه الليلة فى الهواء الطلق .

٤ مارس :

إن الصوف رخيص جداً لدرجة أغرت رجال أنجورنو بلبس القمصان والسراويل ، كما وقف عدد من الفقراء الشحاذين بالقرب من السوق وهم يحملون بقايا بعض الملابس القديمة فى أيديهم لإثبات فقرهم .

إن المطلب الرئيسى فى أنجورنو كان الكهرمان والمرجان وكانت القطعة الكبيرة من هذا الأخير تساوى أربعة دولارات ، وكنا نبحث عن قطع من النحاس فضلاً عن أن كل البضائع كان يتم دفع ثمنهـا من الرقيق أو القماش لأن هذه تجلب مالاً ويسهل بيعها .

وكان معظم السكان من بورنو كما أن الأجانب كثيرون ويسكن الكثير من التيبو والكانميين هنا عدة شهور من السنة ، والرجال أصحاء لكن ليس مظهرهم مثل شعب كانم فالفم واسع والشفاه غليظة والمظاهر سيئة ، وتقريباً كل الرجال يحلقون رءوسهم ، وكان الرجال الوحيدون المسلحون بجوار السلطان هم عدة مئات من الزنوج فى ملابس زرقاء ويقفون خارج دائرة الحوش (البلاط) .

وهم يحملون هراوات ضخمة ذات رءوس كبيرة مستديرة ، وأسهماً ورماحاً تتدلى من الجوانب مع مسدس قصير على الجانب الأيمن من الذراع ، وظهر أحد المشاة فى الخدمة وهو هذا الشخص رجل حاملاً أربعة حراب .

٥ مارس :

اقترحت القيام برحلة ترفيهية لعدة أيام إلى النهر فى الجنوب من «كوكا» ويسمى نهر شارى باعتباره الطريق الوحيد للحصول على معلومات أكيدة عن مجراه، وكانت رغبة الدكتور أودنى أن يصحبنى فى هذه الجولة لكننا اضطررنا أن نؤجل الرحلة

بسبب مرضه أولاً ثم ثانيًا لعدم تسوية مشكلة بوكالوم مع العرب، لكن بوكالوم قام لنا بزيارة بعد أن شاهد الشيخ وقد فهمت أنه رغم عدم وجود أى أخبار فإنه من المحتمل أنها حملة، ولقد صنع هيلمان صندوقين من الخشب للشيخ الذى أعجب بشدة بهذا العمل ، وفى فترة غيابنا أرسل إليه وطلب منه أن يبدأ فى صنع نوع من المحفة لتوضع بين جملين أو بغلين مثلما سمع أن سلاطين فزان يستعملونها ، وقال النجار الذى معنا بصراحة أنه يستطيع أن يصنع أى شىء يطلب منه لكنه لا يستطيع العمل فى الشمس وأنه لابد من بناء مظلة له مع وجود الخشب المطلوب .

وقد تم شرح هذه المطالب للشيخ الذى وعد بأن يقوم الزنوج بإعداد الحصير مباشرة لهذه المظلة وأن آخرين سيذهبون إلى الغابة لإحضار الأخشاب الضخمة اللازمة ، وفى المساء وصلت هدية إلى النجار تشمل القمح والأرز والعسل والزبد .

٦ مارس :

فى هذا الصباح أرسل الشيخ يخبرنا أنه يرغب فى الحصول على بعض الصواريخ لأن أعداءه من الشواس (Shouaas) ربما يرون ما يحضره الإنجليز .

وفى يوم الإثنين وهو يوم السوق عندما يكونون فى المدينة وعدناه بستة صواريخ – لكن ذكرناه فى الوقت نفسه أن لدينا القليل وأننا لا نستطيع أن نجهز الكثير ، وأيضًا أرسل إلينا أسدًا صغيرًا لطيفًا مستأنسًا ولقد تأسفت عن الاعتذار بأننا نرفض تخصيص جزء له فى ركن من أكواخنا حتى أنه أمر بذبحه إذا لم نقبله .

٧ مارس :

ازداد مرض الدكتور أودنى وكان يصاب يوميًا بنوبات من السُعال التى أصبحت حسب حالته الصحية مخيفة ، ولقد أصبح شغلى الشاغل بل وواجبى أن أعمله وأوثق صداقة بوكالوم وعن طريقه تمنيت أن أعرف نية الشيخ الحقيقية نحونا، أما الرجل من لوجوم والذى عاد أخيرًا من سنار فقد حاولنا أن نراه دائمًا لكن وجدت أن هذا أمرًا صعبًا وأرسل لى رسالة سرية أنه لا يستطيع الحضور .

٨ و ٩ مارس :

ازداد عدد الأشخاص الذين يجتمعون حول كوخى من الصباح حتى الليل ، وبالتالى فإن زياراتهم صارت مملة أكثر منها عادية ، ولقد كان كل شىء من البوصلة إلى القلم إلى الحبر ، ومن الساعة إلى العلبة التى أشرب منها كل هذا أثار اهتمامهم وحب استطلاعهم ، ونظراً لأنهم أصبحوا أكثر جرأة كانوا يلمسون كل شىء بعد أن كانوا ينظرون إليه من بعيد ، وبل وصل الحسد إلىّ على كل شىء نمتلكه مثل المرآة والفانوس الذى أنقذته من الأيدى اثنتى عشرة مرة .

أما نسخة كتاب الكابتن ليون الذى سبقته شهرته إلى هذه المنطقة بسبب قيام الدكتور أودنى بإظهار نسخة منه لبعض التجار فى مرزوق كل هذا جعله مطلوباً عشرين مرة فى اليوم ، ويتطلب هذا منى تحمل الصبر وشرح الصور كلما طلبوها ، وكان له تأثير فعال ، ولكن الكل مندهش وأكثر شكاً .

وقد سمع الشيخ عنه واستعاره أحد عبيده من خادمى سراً وذلك أنه لا يرغب أن يعرف أحد أنه رآه ولمدة ثلاثة أيام بعد هذا قام رؤساؤه بتكليفى بأن أوضح لهم ما كتبته أو رسمته كما يقولون عنه فى بورنو ، ولقد كررت لهم مراراً أن ما هو موجود فى الكتاب ليس من تأليفى وأن الشخص الذى كتب هذا بعيد جداً لكنهم هزوا الرءوس .

وقالوا إننى رجل ماكر وأننى لم أشرح لهم ولكنهم غيروا النغمة وتوسلوا إلىّ ألا أكتب عنهم أو أرسمهم لأنهم لا يرغبون ذلك ، وأن الشيخ نفسه لا يرغب ذلك ويعتبرها خطيئة ، وإننى متأكد بالإيحاء أنه من الأفضل عدم إخراج الكتاب .

وعبر الشيخ عن رغبته فى إطلاق صاروخين بعد صدور إشارة من أعلى المنزل ، وأعطيت لكاروواش ضوءا أزرق مع تعليمات بكيفية إصدار الإشارة ومع ذلك فإن قلبه خانه عندما وصل إلى النقطة ، وأعطيت الإشارة بعود من القش ، وأطلق الصاروخ الأول بشكل عمودى وكان له تأثير كبير ، وخفضت ارتفاع الثانى الذى أطلق فوق المدينة فيما لا يزيد عن مائة ياردة أعلى قمم الأكواخ ، وانفجر أثناء سيره محدثاً دوياً شديداً واستمر لبعض الثوانى . وعلى هذا فإن تأثيره لم يكن كما أظن خطيراً مثل العرض الأول للأسلحة النارية فى مرزوق .

١٠ مارس :

قضينا فى كوكا حوالى الشهر ولم نشاهد الشيخ إلا ثلاث مرات واكتشفنا أن أناسًا جاءوا من الشرق ومن الجنوب لزيارتنا ولكن لم يسمح بالزيارة إلا لنفر قليل منهم ، واكتشفت أيضًا أن حوارًا دار بين بوكالوم والشيخ أشار فيه الشيخ إليه أنه قد سمع عن أن الدكتور يرغب أو ينوى التقدم نحو السودان لكنه لا يسمح بهذا الإجراء لأن رسالة الباشا لم تذكر مثل هذه الرغبة من ملك إنجلترا .

لقد أخذت فى هذا اليوم راحة قليلة، وانخفضت مواعيد الزيارة لأن هذا يوم السوق حيث يوجد كالعادة وفرة من كل الضروريات رغم أن لوازم الرفاهية كانت قليلة ، ونظرًا لأن الناس قد تعودوا على مظهرى فقد صاروا أكثر ألفة وقد قفزت امرأة من على ثورها ومزقت جيب ملابسى كما تقول أنها تريد تذكارًا ، ورغم أنها ترتدى عقدًا من سن الفيل وعقدًا من المرجان وقرطا من الفضة الثقيلة ولم أجد بدًا من إعطائها هدية بسيطة ولكــن كنت معجبًا بشجاعتها وقد صافحنى الجميع قائلين "بركة – بركة" أما السيدة التى تغطى وجهها بكميات من الدهون فقد صبت فى جيب قميصى حفنة من الفول السودانى .

١١ مارس :

ظل الدكتور أودنى معتكفا فى سريره وتلقيت دعوة من الشيخ حيث أعد تقريرًا عن صندوق أو آلة الموسيقا الخاصة بى والتى تعزف أو تتوقف بمجرد رفع إصبعى . وأعلن الرسول أنه فى أشد الشوق لرؤيتها ويجب أن أسرع ، أما صيحات التعجب والصراخ والسرور الذى نجم عن هذه الآلة قد وضح بشدة من جانب الشيخ الذى كان مندهشًا فى البداية قائلاً "عجيب – عجيب" لكن حلاوة النغمة السويسرية التى تعزفها قد غطت على كل المشاعر ، وغطى وجهه بيده واستمع فى صمت ، وعندما صاح أحد الجالسين بجانبه ضربه ضربة جعلت كل الموجودين من الأتباع يرتعدون ، وفى الحال سأل لو أن واحدة ضعف هذا الحجم ألا تكون أحسن ، ورددت " نعم .. نعم لكن ثمنها سيكون مضاعفًا " ورد قائلا " يا إلهى لو أن ثمنها ألف دولار فإنها ستكون رخيصة " من سينكر أن الطبيعة أعطتنا كل هذا التذوق من أجل رفاهيتنا .

وخلال هذه المحادثة القصيرة أصبحنا أفضل صداقة عما كنا من قبل خلال زياراتنا الثلاث السابقة ، وكانت دهشته كبيرة عندما وجد أننى أتحدث العربية بلباقة ، وطلب أن يرانى فى أى وقت أختاره ، وكانت هذة الشروط التى رغبت أن تكون معه ، واعتقدت أن هذه هى اللحظة المناسبة لتقوية مشاعره الحالية ، ورجوته أن يبقى الصندوق ، وكان أكثر سروراً لأننى رفضت إعطاءه من قبل لكرواش (karowash) الذى سبق أن طلبه باسم الشيخ .

١٢ مارس :

لقد كان لى لقاء آخر مع الشيخ فى حديقته فى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وكنا ثلاثة أشخاص فقط ، باركاجانا كبير قواده وكرواش وأنا ، وظل صندوق الموسيقا يعزف حتى فهم طريقة إيقافه وأيضًا أنا وبعد لقاء طيب استمر ساعة افترقنا ، وصار رأى الواحد فى الآخر جيداً .

وطلبت زيارة تشاد فى اليوم التالى ، وفى الحال أعطى تعليمات إلى باركاجانا (Barca Gana) بأن يرافقنى شخص يعرف الطريق وأن يكون الطعام جاهزًا مع إعداد كوخ بالليل .

ولم أدع هذه الفرصة تضيع ، وفى الحال بعد شروق شمس النهار فى اليوم التالى وصل المرشدون إلينا وهم فاجاه (Fagah) من الكانمبو وله مكانة خاصة عند الشيخ ، ومارامى (Maramy) وهو أحد الفلاتا والذى أرسله لأنه يتحدث العربية قليلاً .

وتقدمنا حوالى عشرة أميال إلى قرية تدعى برى (Bree) حيث حضر الحاكم إلى جوار جوادى عندما تلقى الأوامر ، وقال إنه جاهز فى التو لصحبتى ، واقترح أن نعود فى الليلة نفسها إلى المدينة حيث سيجهز كوخا مع العشاء مع بعض الراقصات من البنات ، ومع ذلك فقد رفضت ذلك وقلت إننى جاهز ومعى بطانيتى وأننا ننام بالقرب من البحيرة ، وتحركنا شرقًا لمسافة خمسة أميال عندما وصلنا إلى بحيرة تشاد .

ولم أشهد أى جزء من البحيرة أكثر كثافة من الأشجار مثل هذا المكان ، وهناك دلائل بالمد والجزر والانسياب والانحسار بجوانب الشاطئ ، ولكن فيما وراء ذلك يوجد

امتداد متصل من المياه على مدى النظر شرقًا أو فى الجنوب الشرقى ، وعلى شواطئ البحيرة تنمو حشائش جميلة بكثرة وتوجد آلاف الماشية التابعة للشيخ وهى حصيلة حملته السابقة إلى باجرمى ، وكانت هذه الماشية ترعى وهى فى حالة جيدة .

وكانت الشمس فى أزهى قوتها وسويت حصيرتى تحت ظل مجموعة من الأشجار الضخمة ، وكنت أعد وجبة من الخبز وعسل النحل عندما وجدت اثنين أو ثلاثة من الصبية الذين رافقونا من مدينة برى (Bree) قد اندفعوا نحو البحيرة وعادوا حاملين خمس أو ست سمكات لطيفة والتى وضعوها فى المياه لعدة دقائق وبسرعة أوقدوا النار وقاموا بشيِّها جيداً وبطريقة غريبة حيث وضعوا قطعة خشبية مرت من فم السمكة وتمتد على طول البطن والذيل ثم تلصق هذه القطعة الخشبية فى الأرض مع وضع رأس السمكة لأسفل وتتجه نحو النار ، ثم يضع الزنوج بسرعة حلقة من هذه الأسماك حول لهيب قوى .

وبتحريك السمكة بصفة مستمرة من خلال الذيل فإن النار تغطى الأسماك بشكل ممتاز ، وتسمى هذه الأسماك حسب الكانمبو كيرواها (Kerwha) وبالعربية ترفاو (Turfow) ، وعموماً فإن السمكة فى لغة البونو – بونى (Boonie) .

وأخبرت أتباعى أنه سيكون مقرنا هذه الليلة فى هذا المكان ولكن أكدوا لى أن الباعوض سيكون كثيراً بل وكبيراً لدرجة أنه من المستحيل البقاء ، كما أن الأفراس ستكون بائسة ، ونصحونا أن نبتعد مع الماشية لمسافة قصيرة بعيداً عن الماء وأن ننام بجانبها ، وبهذه الوسيلة فإن انتباه هذه الحشرات سوف تتجه إلى هذه الحيوانات ذات الأربعة أقدام . وكرجل إنجليزى فأنا عنيد وفى الحال رحت فى النوم رغم أنه فى ضوء النهار أحسست بلدغة الناموس الذى يشبه فى حجمه الذبابة حيث أننى كنت سعيداً بعد الاستيقاظ فى الأخذ بنصيحة المرشدين ، وعند المساء امتطينا الجياد ، وقمنا بمطاردة بعض الظباء أو الثيران الوحشية ، كما شاهدنا قطيعًا من الأفيال على بعد مسافة يزيد عدده عن الأربعين كما شاهدنا جاموستين ترعيان بجرأة فى البحيرة وعندما اقتربنا منهما أسرعنا بالدخول إلى البحيرة، أحدهما كانت متوحشة يزيد طولها عن أربعة عشر قدما من الذيل حتى الرأس وكانت الطيبة جميلة ولونها بنى فاتح مع

وجود بعض الخطوط السوداء والبيضاء حول بطنها ، ولم تكن سريعة الحركة وتتواجد بالقرب من بحيرة تشاد وفى المياه الأخرى الواسعة .

وتتوافر بكثرة فى هذه المنطقة أشجار التمر الهندى والخروب والتى تجدها محملة بالثمار والأولى لها مذاق طيب .

وأصبحت الخيول منزعجة بسبب الحشرات التى تهاجمها ، وحتى الخيول البيضاء مغطاة بالدماء لدرجة أننا عزمنا على البحث عن قطيع ماشية وأن نقضى الليلة بينه .

تركنا مساحة مربعة فى الوسط ، وجلسنا نحن بعد أن فرشنا الحصير وحوالى ثلاثين جرةً من اللبن الحليب مع بعض أوانى عسل النحل فضلاً عن بعض الأرز الذى كنت قد أحضرته معى واستمتعنا بوجبة لذيذة ، ورغم أننا قبل أن نغادر البحيرة كان وجهى ويداى وخلف الرقبة يشبه الطفل المصاب بالجدرى نتيجة لدغ الحشرات إلا أننى نمت نوما هادئا دون أن تزعجنى أية بعوضة .

١٤ مارس :

لقد سقط فى هذه الليلة الندى الثقيل وهو شيء لم نشعر به منذ أن تركنا جاترون (Gatrone) ورغم هذا فإننى فى الصباح وجدت السروال الذى يغطينى مبتلاً تمامًا وحتى الحصير كان مبتلاً ، وبعد طلوع النهار كانت هناك نقطة بللورية تشبه نقط الثلج ، وعندما وصلنا إلى البحيرة غادرنا مارامى (Maramy) لكى نبحث عن الأفيال لأن الشيخ كان يرغب أن يأخذنى بجواره ، وبدأت عملية الصيد لهذه المجموعة الجميلة من الطيور التى تنتشر بالآلاف فوق البحيرة وعلى شواطئها ، ونجحت فى صيد طائر أبيض جميل من نوع الغربان وله رقبة سوداء ، ومن خلال ثلاث طلقات قتلت أربعة أزواج من البط وزوجين من الأوز البرى وكانت هذه جميلة المنظر ، وبينما كنت منهمكا فى هذه الأمور جاء مارامى مهرولاً وهو يقول إنه وجد ثلاثة أفيال كبيرة ترعى فى الجنوب الشرقى بالقرب من المياه ، وعندئذ اقتربنا على بعد مئات الياردات منها وصدرت الأوامر بالتوقف بينما تحرك أربعة على ظهور الخيول نحو هذه الحيوانات الضخمة .

بدأ شعب الشيخ بالصياح العالى ورغم أنهم فى البداية تعاملوا مع وجودنا بكل احتقار لكن بعد برهة تحركوا بعيداً وهم يصيحون بصوت مرتفع هز الأرض حولنا .

وكان بينهم فيل ضخم يصل ارتفاعه إلى ستة عشر قدما واثنان آخران من الاثنين اللذين تحركا بسرعة بينما ظل الذكر فى المؤخرة وكأنما يرقب انسحابهما ، وأسرعنا نحوه وصوب مارامى الحربة نحوه والتى أصابته فى الذيل وأحدثت له ألما مثل وخز الدبوس، وصرخ الحيوان بصوت مرتفع رافعاً زلومته فى الهواء وهو يصرخ قاذفاً منها كمية من الرمال ، ونظرا لأننى لم أكن مستعداً لمثل هذه المواقف التى أصابتنى بالعمى تقريباً ، ومن النادر أن يهاجم الحيوان لكن عندما يكون متضايقا فإنه يصبح خطيراً ولكن أحياناً يندفع على الرجل والحصان بعد أن يغمرهما بالرمال ويدمرهما فى لحظة .

ونظراً لأننا عزلناه عن متابعة رفاقه فقد اتجه نحو المكان الذى تركنا فيه البغل والحارس ، وبسرعة هربوا فى كل الاتجاهات ، أما كوليس وهو أحد رجالى فقد كان خائفا لدرجة أنه لم يفق من هذا الرعب طوال اليوم .

ودفعنا الفيل ، وضيقنا عليه من كل جانب وركبنا وتقدمنا من أمامه ومن خلفه ، بل وعلى كل جانب منه وكانت نظرته كلما أدار رأسه وكأنه يفحص سرعة حصانى حيث لم تتعد خطواته المشى البطىء لكنها كانت كافية لتجعل الخيول تسير بسرعة بسيطة .

لقد قذفته بطلقة من بندقيتى على مسافة خمسين ياردة وكانت الطلقة الثانية قد أصابته فى أذنه ويبدو أنها أزعجته ، ولكن الطلقة التى صوبت إلى جسده لم تحدث الأثر المطلوب ، وبعد ذلك قذفته بالحربة التى تركته لنهايته .

وصلتنا أخبار بأن ثمانية أفيال لا تبتعد كثيراً عن مكاننا وأنها تتجه نحونا ووجدنا أنه من الحكمة أن نطاردها بعيداً ، وامتطى كل واحد جواده لهذا الغرض ووضح أنهم لا يريدون الذهاب بعيداً بل وحتى لم يلفتوا ظهورهم حتى اقتربنا منهم تماماً ، وكان وميض طلقات البنادق يزعجهم أكثر من أى شىء آخر ، وبالتالى فإنهم تقهقروا وهم يهيلون كمية ضخمة من الرمال ، وكانت مجموعة من طيور تسمى التودا (Tuda) والتى تطير فوق ظهور الأفيال .

وعندما بدأت أشعة الشمس في الاختفاء تابعنا طريقنا بجوار الماء ولولا الآلام التي سببتها حشرات الناموس والذباب لكنت قد نصبت خيمتي لمدة أسبوع في مناطق عديدة ، ووجدت الكثير من البجع لكن كنت بعيداً عنها لدرجة يصعب صيدها .

وبعد أن تقدمت تقريبًا ثمانية أميال على طول شواطئ بحيرة تشاد التي لانجد فيها تنوعًا سواء في المظهر أو في النباتات أو الحشائش الخشنة وبعض الزهور البسيطة وهي النبات الوحيد الذى اكتشفته منذ ساعة قبل غروب الشمس وتركنا هذه الشواطئ ووصلنا إلى كوا (Koua) وهي قرية صغيرة في الشمال حيث كان قاضي القرية غائبًا وكنا سعداء بأن نقيم داخل سور حول كوخه ، وبعد أن أعددنا بعض القهوة نمت طوال الليلة وعند منتصف الليل عاد وعندئذ أعددنا القمح للخيول والدواجن واللبن لأنفسنا ، وكانت كل مدن برِى (Bree) و كوا من المدن الجديدة التي يسكنها الكانمبو الذين هاجروا مع الشيخ من وطنه ولم أجد أناسًا أكثر رشاقة أو أفضل منهم .

وعندما ظهرت المدينة كان منظر يداى ووجهى قد أثار الكثيرين لدرجة أننى كنت أشك فى عدم تغيرها بالليل ، ولقد انزعجت طفلة صغيرة وانفجرت باكية عندما شاهدتنى لدرجة أننى لم أجد شيئًا يهدئ من روعها ومواساتها ولا حتى عقد الودع الذى قدمته إليها ولم ترفع يديها لأخذه .

وعندما كنت أستخرج من جيوب البنطلون بعض عقود الخرز وأوزعها على البنات كانت صيحة التعجب آه... إن هذه الجيوب مليئة بالخرز لكنه لا يريد أن يعطينا منها، وبعد تلك الأخبار تعالت الفرحات واقتربت البنات جميعهن وهن يحاولن أخذ بعض الخرز ، ورغم أننى لم أفهم ما يقلن إلا أن فاجاه (Fagah) المرشد ظن أنه من الأفضل أن تبقى النساء على بعد مسافة بما اعتقدت أنه أسلوب غير مهذب ولو كنت مدركا لكل هذه الظروف لما وافقت على الأسلوب القاسي الذى تم التعامل معهن به مثلما كان يحدث لبنات مثلهن في بلادنا ومحاولة إقناعهن بغير هذه الأساليب .

١٥ مارس :

بعد الظهر بقليل وصلنا مرة ثانية إلى كوكا ، ورغم التعب الشديد نتيجة الحرارة الزائدة كنت مسروراً بهذه الرحلة ، ولم نحصل على معلومات فى هذه المناسبة سوى عن سكان هذه الجزر التى يقال إنها بعيدة نحو الشرق حتى البحيرة .

ويقال إن هؤلاء الكفرة يأتون فى بعض الأوقات إلى النقطة التى أنا بها وحتى بالقرب من أنجورنو .

وأحيانا ينهبون القرى ويحملون الماشية فى قواربهم ويواصل هؤلاء اللصوص غزواتهم دون أية وسيلة لاعتراضهم .

ولم أكن مستعداً لسماع الأخبار التى وصلتنى عندما وصلت إلى محل إقامتى ، فالحصان الذى كان يحملنى من طرابلس إلى مرزوق والعودة مرة ثانية والذى ركبته طول الرحلة من طرابلس إلى بورنو قد مات بعد عدة ساعات من رحيلنا من البحيرة .

وهناك مواقف فى حياة الإنسان يشعر فيها بخسارة من هذا النوع بشدة وهذه واحدة منها ، إنه لم يكن حزنا لكنه شيء قريب من هذا ، ورغم أننى شعرت بالخجل من الحالة التى وصلت إليها والمعاناة التى تحملتها إلا أننى بقيت عدة أيام قبل أن أتغلب على هذه الخسارة .

ولكن يجب أن نتذكر أن هذا الحيوان المسكين كان سندى ومساعدى وراحتى إن لم أقل رفيقى ، لقد تحمل خلال أيام كثيرة وليال مخيفة طويلة الجوع والعطش وهو فى خدمتى بكل أنواع الصبر .

وكان رقيقًا رغم أنه حصان عربى إلا أنه كان يقف ثابتا لساعات طوال فى الصحراء بينما كنت أنام بين أرجله .

وكان جسده هو الذى يهيئ لى الملاذ الوحيد الذى يغنينى من الشمس ، وكان سريعًا جداً وأول فرسان السباق ، وفتح الخادم الزنجى رأسه ووجد كمية كبيرة من هذه المادة تكونت على مخه ، ولقد ماتت ثلاثة خيول عربية بالأعراض نفسها ،

وليس هناك أدنى شك بأن هذا من تأثير المناخ وندرة وسوء المياه والتعرض الشديد الشمس التى عانينا منها كثيراً ، وكانت حرارة الترمومتر فى ذلك اليوم ١٠٣ درجة وهو أحر يوم شعرنا به في بورنو .

لقد وضعت قاعدة أن أظهر بين الناس والتجار لبعض الوقت كل يوم سوق لكي أكون مألوفًا بين الغرباء الذين يحضرون من المدن المجاورة ، وكنت ناجحًا فى هذه المحاولة فى ذلك اليوم حيث اقترب الصغار مني دون انزعاج واضح ، لكن عندما أمد يدى أو أبتسم أو أبدى أي التفات عرضي من رأسي يجعلهم يبتعدون عنى ، ورغم هذا فإن هناك تفاهمًا مشتركًا بيننا وربما كنت مندهشًا لهذا الرضا بل وحتى الارتياح الذى بدأ عندما أخذت أستعرض جمال الزنوج والذى كنت أظهره لأخى بوكالوم والذى كان معى .

يا لها من فتاة جميلة، ماهذه الملامح الجميلة ، دون أن أشير أن هؤلاء دائمًا سود والتى كانت تعقب تعليقى السابق .

١٨ مارس :

حدث تحسن بسيط فى صحة الدكتور أودنى وصمم على رؤية الشيخ فى اليوم التالى للتحدث عن موضوع رحيله إلى السودان أما أنا فكنت سعيداً جداً بالهدية التى تسلمتها من الشيخ وكنت قد صممت من قبل عما إذا كنت سأنجح فى هذا الأمر أم لا حتى إننى لم أعد أطلب أى شىء آخر مع تدعيم أواصر الصداقة مع الكانيمى ، وهنا يتحقق أسمى هدف لنا ، وعلى هذا فإننى لم أكن مندهشًا عندما وجدت الشيخ أعطى رفضًا قاطعًا لطلب الدكتور أودنى لمرافقة القافلة إلى السودان ، وفى هذا الصباح زارنا رئيس من الشوا الذى يقيم شعبه فى خيامهم بالقرب من نهر شارى ووجدته رجلاً ذكيًا وماهراً حيث سأل مئات الأسئلة ، ومن الغريب أنه لم يسأل عن أى شىء مثل الهدية ، وأعطيته مرآة سرته كثيراً .

ولقد انتقل هو وشعبه من خدمة سلطان وادای إلى خدمة شيخنا منذ ثلاث سنوات ، وأخبرنى أن سلطان باجرمى يستعد لإعادة بناء عاصمته فى كيرنك (Kernuk) وحصلت على معلومات عن طريق وفروع نهر شارى بالقرب من باجرمى .

٢٦ مارس :

زارنى حلفائى الجدد هذا الصباح والذين جاءوا وحدهم وأكدوا لى أن الشيخ ليس مستعداً أن نرى أى جزء من المنطقة جنوب نهر شارى وأن صراحتي معه بالأمس جعلته يقسم أن يكون صديقى وأننى إذا وضعت يدى على هذا الكتاب مشيراً إلى رحلتى الخاصة ، هذا الكتاب المقدس كما قال فإنه سوف يحكي لى عن الأمر الذى أصدره الشيخ بخصوص مسلكه عن وصولنا إلى هذه المناطق وهو أننا لن نعبر النهر ، وأضاف أنه رغم ذلك فإذا اخترت أن أعبر نهر شارى أو أن أصل إلى الخيام التى تقع فى منطقة تدعى كيرجا (Kerga) فإنه سيجد الوسيلة لإرسالى إلى أبعد المناطق فى الجنوب وقال" إذا غادرت نهر شارى عندما تكون الشمس على ارتفاع ثلاثة فراسخ سوف تكون معى عند غروبها" ، وسألته عن الخطر الذى يمكن أن يقع إذا ذهبت دون رغبة الشيخ لكنه لم يعلق وكان رده "إنه يوجد ثلاثة إخوة وأن الشيخ يريد أن يضعهم تحت خدمته وأنه ليس من مصلحته أن يتشاجر معهم " .

٢٩ مارس حتى ٨ أبريل : الثلاثاء

قام إدريس (Drees) بزيارتى للمرة الثالثة قبل أن يغادر كوكا وأكد على أن أصل إلى نهر شارى وعلى الأقل أستقر بعض الوقت فى خيامه ، ولقد وصل بالليـل وكان إما متأثراً أو خائفاً بدرجة كبيرة من أن يلاحظه أحد .

وقال" لا تذكر زيارتى لك وكل شخص يزور كوخك فهو جاسوس على أعمالك وكل شىء تقوله ينقل إلى الشيخ " وقلت له "وأنت نفسك " وقال لى " حسن جداً ، ليس هناك ما يجعلك تثق فى ، لاتقل شيئاً لقد قدمت لك العرض ، احضر إذا اعتقدت أنه مناسب لكن لا تلزم نفسك ولقد تحدثت إليك مثلما أتحدث إلى نفسى" .

ويعد عرب الشوا جنساً غريباً ، ونادراً ما نجد أى تشابه بينهم وبين عرب الشمال، وعندهم رزانة واضحة وأعين واسعة وأنف معقوف ولون بشرتهم نحاسى فاتح ، وعندهم دهاء لا يقل عن شجاعتهم ، ويشبهون فى مظاهرهم الغجر فى إنجلترا خاصة النساء ولغتهم العربية مصرية خالصة تقريباً .

وقد وصلت المناوشات بين العرب إلى هذه الدرجة لدرجة أن فكرة أن نسأل إقامة علاقات ودية بينهم قد وصلت إلى نهايتها ، فلقد حصل عبدالله بوجيل (Bougiel) على دعم وتأييد معظم رجال الشيخ ونجح فى جذب نصف العرب الذين يرافقون بوكالوم ، ونصبوا خيامهم على مسافة أميال قليلة من المدينة .

ومع ذلك فإن الرؤساء كانوا فى كوكا كل يوم ودائما يحملون المسدسات تحت ملابسهم خوفًا من القتل وخيانة بعضهم بعضاً .

واتهم عبد الله بوجيل بوكالوم بإضاعة وقته فى كوكا من أجل تسوية وتسويق بضاعته بينما يموت العرب جوعًا ، وربما يقومون بحملة غزو ونهب لصالح الباشا .

وفى الحال اتهم بوكالوم بكل شجاعة وثقة عبد الله بأنه رجل متمرد وسيئ السلوك ويعارضه فى كل الاتجاهات ويقف إلى جانب العرب الذين وجد أنه من المناسب معاقبتهم فى الطريق بسبب السرقة ، وسحبهم من تحت قيادته ، وأعلن بصراحة بأنهم جاءوا كمرافقين للبريطانيين وهو كتاجر إذا رأى القافلة فإنه سيحكم فى الوقت المناسب .

ومع ذلك فإن الشيخ دون أن يقلل من اهتماماته لبوكالوم والذى وعده بأنه سيكون مع شعبه الخاص إلى المنطقة فيما وراء ماندرا (Mandra) شجع عبدالله على أن يواصل خطته لترك بوكالوم ، وكان الانشغال بإعداد مراسلاتنا وأيضًا الضعف المستمر الذى يلازم الدكتور أودنى – كل هذا قد منعنا من القيام بأى حركة خلال الأيام العشرة الماضية وأقول إننا نحاول لأننا فوق أرض هشة وأن النجاح يبدو مشكوكًا فيه .

وأما الدكتور أودنى فقد تحسن بعض الشيء إلا أنه ليس فى وضع مناسب لمرافقة بعثة من هذا النوع ، وأعلنت عن نيتى أن أتقدم مع بوكالوم ، وطلبت منه أن ينقل رغبتى إلى الشيخ .

وهكذا بدأنا فى الثانى من أبريل بعد عشرة أيام من الفشل المتكرر والقلق الشديد والحرارة الزائدة حيث يشير الترمومتر إلى ١٠٦ درجة ، ومات حصان السيد كلابرتون بالمرض نفسه الذى أصاب حصانى وكانت كل حملات العرب على وشك المغادرة دون أن نعرف أية معلومات عن وجهتها .

وكان يوجاتيل يأتى إلى كوخى مراراً وحاول إقناعى بسمو وعلو سلوكه وحبه العظيم للإنجليز "قل دائمًا سيدى الريس" أين تريد أن نذهب وسوف أحضر لك مئة رجل لمرافقتك ويموتون من أجل خدمتك " ، وقلت له "إننى لست محتاجًا إلى مثل هذه الصحبة ولا الأمـــوال اللازمة لمكافـــأتهم وأنه من الأفضـــل أن يعود إلى الخيام" ، وإنه مستريح لبوكالوم وحيث أنه غادر طرابلس معه سيعود معه وعندئذ سيقدم شكواه للباشا .

وقال " لا – بوكالوم ذات مرة أنكر والده وعقيدته " وإنه لن يسامحه ، ولكن هل كتبت إلى الباشا وقنصل طرابلس ، وأقول إنه كان صديقى " وأجبت " بالتأكيد لا .. وإذا كتبت فإننى سأقول بأنه كان مخطئًا عن عمد فى كل شىء كان قد فعله" .

ترك بوكالوم كوكا بعد الظهر فى حملة دون أن يأخذ إذننا وكان هذا دليلاً كافيًا لى أن أطلب مرافقة الحملة وقد لقى إنكارا من جانب الشيخ .

وكانت خيبة الأمل هذه عظيمة حقًا لأننى دائمًا أعوِّل على ترتيب هذه الحملة وكنت على ثقة أنه بهذه الوسيلة نستطيع أن نصل ناحية الجنوب وهى النتيجة التى أثبتت الأحداث المتتالية صحتها .

١٠ أبريل :

وبعد طلوع النهار مباشرة دُعينا للمثول أمام الشيخ وتحققت رغبتنا لزيارة نهر شارى .

وأخرج الشيخ بعض الزينة من الذهب والفضة لمقدمة الرأس والصدر ومعهما عدد من الزجاج والبللور التقليدى من الأحجار الكريمة .

وأعتقد أنها حقيقية وطلب معرفة قيمتها وأظهرت له القطعة الصغيرة من المعدن الأصفر التى تعطى الزجاج لون التوباز (من الأحجار الكريمة) ، وقد اندهش لهذا وقال إن الشيخ الذى أعطاه هذه الأحجارعلى أنها حقيقية سوف يلقى معاملة سيئة فى زيارته القادمة وأن ما فكر بأنه يساوى مئة دولار من المحتمل ألا تصل قيمته عدة بنسات .

١١ و ١٢ أبريل : الحملة

إن الحملة التى تحت إشراف بوكالوم ظلت لمدة يومين فى أنجورنو مع باركاجانا قائد قوات الشيخ لجمع الناس من أجل الحملة .

وكان عبدالله بوجيل قد غادر كوكا فى اليوم السابق متجها إلى كانم .

وفى هذا اليوم قام خمسة من الفرسان واثنا عشر رجلاً على الأقدام باختراق كوكا فى طريقهم للانضمام إلى بوكالوم ، وكان أحد أقزام الشيخ والذى يمتلك ستة منهم قد سمح للرجال منهم بدخول هذا الجزء من منزله الذى يقيم فيه النساء وأخذونى إلى الجزء الذى تقيم فيه زوجته الجميلة وطلبوا عقداً كما تسميه يشبه الذى سبق أن أرسلته لى لفحصه وأضاف أن سيدته سوف تقدم أى سعر له ، وعند هذا الموقف من حب الاستطلاع أخرجت منديلاً من الحرير ولدهشتى شاهدت أحد القطع الزجاجية من نجفة على شكل ماسة وأعتقد أن إحدى نساء العبيد الأحرار من طرابلس قد أحضرتها وقال " آه إنها جميلة حقًا " إن سيدته ستكون تعيسة إذا عرفت أنه سوف يأخذها ، إن هذه القطعة الزجاجية هشة معرضة للكسر وبالتالى تباع بأى شىء .

١٣ أبريل :

أعتقد أنه من الحكمة أن نرسل حصانى الباقى هدية إلى الشيخ ، لقد تركته لأكثر من شهرين دون الركوب لأنه يعانى من التهاب فى ظهره مع جرح عميق فى الوسط تحيط به قطع من اللحم البارز وكان دمه فى حالة سيئة ، وصار نحيفًا جداً .

وفى الوقت نفسه وجدت فى مقابله أن حصانًا من هذه المنطقة ربما يكون مقبولاً بالنسبة لى وأرسل لى الشيخ يعرض أخذ أى حصان أفضله فى بلده .

وسمعنا أن بوكالوم كان عليه أن يغادر أنجورنو فى رحلته فى الرابع عشر وأن ضياع هذه الفرصة لرؤية هذه البلاد والطريقة التى تقود ثلاثة آلاف شخص للعمل فى حملة بهذا العدد ، كل هذا كان يضايقنى أكثر مما كنت أعبر كثيراً .

وشعرت أنها فرصة يجب ألا نضيعها ولقد وعد الشيخ أن الحملة ربما لا تقوم وأنها سوف تكون فى اتجاه آخر ، وعلى أى حال عرفت أننى مع بوكالوم أستطيع أن أتابع خططى والتى يمكن أن أنفذها مع الشيخ ، وفى هذه الحالة من القنوط قررت أن أطلب من كرواش (Karouash) الشخص الرئيسى عند الشيخ والذى أعلن أنه صديقى وأن أقدم إليه خمسين دولارا إذا حصل على إذن لى من الشيخ وفتح هذا الطلب عيونى على أى اتجاه تهب الرياح ، وقال : ألا تستطيع أن تقدم للشيخ هدية جميلة ؟ وفى الوقت نفسه فإنه خائف من أن أصل إلى مناطق خطرة .

ويقول إن الريس شخص ممتاز وكان ردى "إن هذا مستحيل إننا قد قدمنا الكثير من الهدايا الجميلة ، وطلبنا من إنجلترا المزيد ، وبالنسبة لى فإنه يمكن أن يحصل على خمسين دولاراً إذا نجح " وتركنى كرواش قائلا إننى متأكد أن كل رغبة لى سوف تتحقق .

الفصل الثالث

الحملة إلى ماندارا

فى ساعة متأخرة من مساء يوم ١٥ أبريل قبل أن أقرر احتمالية مرافقة الحملة – كان لى لقاء مع الشيخ عندما قال لى يجب أن أرفض لأننى لا أعرف كيف أؤمن سلامتك، لا زلت أرغب فى عدم تلبية طلبك، إن طلب بوكالوم من أجل ذهاب كل جماعتك بعيداً لا يمكن مناقشته ، إن ملكك يمكن أن يزامن على أن أرسلك فى حملة تواجه فيها مثل هذه المصاعب والأخطار ، إنه طلب صعب ولن يسامحنى الباشا إذا وافقت على ذلك ، إن وضعك مختلف تماماً وإن سلطانك يعطيك أوامر بأن ترافق الحملة العسكرية، لكن رغم أنك جندى إلا أنك لا تعرف كيف تحافظ على نفسك فى حملة من هذا النوع، وإذا واجه بوكالوم رفضًا وأنا فى هذه الحالة لا أستطيع أن أوافق على رحيلك، وكان ردى على هذا "إننى مدرك القلق الخاص بسلامتنا لكن يجب إطاعة أوامر سلطانى بقدر الإمكان – ورغم أنه رفض موافقته إلا أننى أثق أنه لن يمنع مرافقتى لبوكالوم – وأضفت حقًا وأنا مبتسم – إنه إذا كان هذا قصدك فإننى أعطيك إشارة أن توضع السلاسل حول رقبتى، وسوف أذهب بالتأكيد لأننى لا أستطيع إضاعة مثل هذه الفرصة لزيارة المنطقة .

وهنا انتهى اللقاء، وبعد فترة من منتصف الليل كان الزنجى الذى سوف يصحبنى إلى أنجورنو حسبما كنت قد خططت – ينتظر وصول الدكتور أودنى وحثنى على أن أبدأ الرحلة وأضاف قائلاً "إننا لن نصل أنجورنو قبل طلوع النهار" وحمل الجمل أمتعتى البسيطة وكان رفيقى الوحيد هو باركا الزنجى الذى ركب بغلته ومعه الأطعمة وبعض القهوة وكيس من الأرز وكان هذا كل ما أمتلك، واعتمدت على المولى القدير فى الحصول على بقية ما أحتاج إليه، وصممت على مرافقة الحملة ولكن لم أقرر بعد كيف

يتم تنفيذها، لقد غادر بوكالوم أنجورنو فى اليوم السابق وقالوا إنه سوف يتوقف يوماً على بعد خمسة وثلاثين ميلاً جنوب هذا المكان، ولا تزال وجهة الحملة سراً، وكان مارامى من السودان ذلك الزنجي الذى كان الشيخ قد عينه لمرافقتي هو نفسه الذى رافقنى فى الرحلة إلى تشاد، لقد ولد كعبد عند أسرة محمد السودانى أول أبناء عم الشيخ، والذى كان فى طريقه إلى مكة، ونظراً لأنه سيأخذ معه حاشية صغيرة فإنه ترك مارامى وعدداً آخر خلفه ، وعمل كجندى لدى الشيخ وكانت شخصيته تتسم بالشجاعة بين رجال الشيخ، وكانت جرأته للاقتراب من القبيلة قد تأكدت لى ولاحظتها بشدة، وخلال هذه الرحلة قدم الدلائل على شجاعته وطيبة قلبه، وكنت مديناً له كثيراً لأنه حافظ على حياتى لدرجة أنه يستحق كل ثناء أستطيع أن أقدمه إليه، وكان مارامى يتكلم العربية ببطء لكن لم يكن يتفاخر بها، وقد وضح ذلك عندما تقدمنا فى الرحلة وكنت أنا لا أحب الحديث كثيراً، وفى أمور كثيرة لم أكن راضياً عن أوضاعها، وشعرت فى هذه اللحظة أننى فى أمس الحاجة إلى رفيق وصديق أثق فيه من كل قلبى .

ولم ألاحظ تقارير مارامى عن معاركه وعن هروبه من جماعات الوثنيين، ومع هذا فإننى أخيراً تأثرت بتساؤله "هل سيذهب الرئيس مع الحملة ؟" وقلت له "كيف أنا أذهب؟ يعارض الشيخ ذلك "ورد قائلاً "هل ستذهب أم لا؟ " وكان ردى "إننى لست متأكداً إن كنت سأرافق الحملة أم لا" .

سوف تتقدم معى حتى نصل إلى مدينة أنجورنو ثم تتركنى فى كوخ عبد النبى – يجب أن أفكر كثيراً بشكل أفضل فى مسلك الشيخ إذا كان يرغب فى أن تكون رفيقى وأن يرسلنى للالتحاق ببوكالوم، وأضاف مارامى "إذا كان الرئيس سيخبرنى عما إذا كان مصمماً فى كل الأحوال أن نتقدم مع القافلة أم لا فإننى سوف أخبره عن أوامر وتعليمات الشيخ لى" وقلت له "لا لا" إنك تعرفنى جيداً وإننى مقتنع تماماً أنه لم تقدم لنا أية خدمة أو تعليمات أعطيت دون أن نجد الجزاء . أخبرنى إذا اخترت اتجاهاتك فإننى لا أستطيع أن أحيطك علماً بنيتى .

ولم يتوقف مارامى طويلاً وكان لابد أن أعلم أن الشيخ يرغب ألا يغادرنى بأى حال من الأحوال ، وإذ وجد أننى عنيد ومصر على مرافقة الحملة فإنه سوف يوصلنى إلى معسكرى بأقصى سرعة ممكنة وأن أكون تحت مسئولية باركا جانا (Barca Gana)

وهو أحد مماليك الشيخ من السود ، والذى يترأس الجميع ومعه كل الصلاحيات للاهتمام بى، ولم يستغرق وقتًا طويلاً حتى نخبر مارامى بنيتي، فلقد كنت مسرفًا فى مدحى للشيخ لدرجة أن رفيقي اعتقد أنه أقرب إلى مصاف الإله وليس من الأحياء، ودخلنا أنجورنو مع الغسق وخططنا أن نغادرها مع طلوع النهار .

١٦ أبريل :

لقد كانت أنجورنو طوال هذا اليوم مليئة بالغرباء نتيجة انعقاد السوق الكبير فى اليوم السابق، وواضح أنها مدينة تجارية كبرى وكان عبد النبى الذى قضيت اليوم فى كوخه من التجار الذين عرفناهم فى مرزوق، وهنا ظهرت مهام حرفته والتى لم يمارسها من قبل أو يضعها فى مجال الاختيار، ولقد نمت على حصير نظيف فى ركن ضئيل من الكوخ بعيداً عن أشعة الشمس، وهذا بالإضافة إلى وجبة عشاء من اللحم المجفف فى الشمس، والأرز والشراب اللذيد الذى يتكون من اللبن والفلفل الأحمر والعسل، وكان المساء شديد الحرارة والرطوبة لدرجة أننى صممت على الانتظار حتى بعد منتصف الليل وركبنا الخيول قبل شروق الشمس بساعة .

١٧ أبريل :

كان اتجاهنا ناحية الجنوب بالقرب من عدد من البساتين لكن البصل كان الخضار الوحيد الذى كان ينمو هناك، ولعدة أميال كان طريقنا فوق سهل ممتد مغطى بالقمح وقبل الظهر بقليل وصلنا إلى يدى (Yeddie) التى تبعد أحد عشر ميلاً عن أنجورنو وهى مدينة مسورة ويحكمها قائد، وقد توجهنا إلى كوخ أعدوه لنا لنقضى فيه اليوم بعيداً عن الحرارة، ومع هذا اتخذت مكانى فى المدخل وهو أبرد مكان قابلته .

وفى الحال زارنا القائد (Kaid) والذى كان نائمًا عندما وصلت، وكان راغبًا أن أذهب إلى سكنه وتأسف لعدم تقديم كل شىء من أجل راحتنا، وتحركنا وكانت الحرارة شديدة وطلبت القليل من اللبن الرائب وأن تتفرق الجموع التى تسد مدخل الكوخ لأننى مضطر لفتح الباب، وأضفت أنهم جميعًا من الرجال ألا توجد نساء فى مدينتكم؟

وهنا قاطع القائد بسرعة وقال "نعم نعم ، يوجد الكثيرات وأنهن جميعًا يرغبن الحضور والنظر إليك إذا أعطيت لهم الإذن" .

ولم أستطع الرفض وكان القائد يجلس بجوارى ومارامى يجلس بجوار الباب ليسمح بثلاثة أو أربعة منهن فى كل مرة، وتقابلت مع أكثر من مئة من الجنس اللطيف، وكانت بعضهن جميلات بحكم طفولتهن ولم أجد شيئًا أعرضه عليهن سوى المرآة وليس هناك ما يسرهن أكثر من ذلك، وأصرت واحدة على إحضار والدتها، وواحدة تريد إحضار أختها لكى ترى الوجه الذى تحبه أكثر بجانب وجهها، وعندما شاهدن انعكاس الصورة كن يقبلنها، وهناك بنت شابة جميلة طلبت أن تحضر طفلها، وعندما سمحت لها أسرعت وأحضرت طفلاً رضيعًا بين ذراعيها، وصرخت من الفرحة وانسابت الدموع من عينها على خدودها عندما شاهدت وجه الطفل فى المرآة، وكانت تهزها بيدها حتى ترى صورتها المنعكسة .

وفى حوالى الرابعة بعد الظهر كنا مرة ثانية على الطريق، وقد رفع مارامى معنوياتى قائلاً "إذا لم يتحركوا سوف نصل إلى معسكرات العرب وقوات الشيخ بعد غروب الشمس"، ولحسن الحظ أننا لم نتحرك، وبعد أربعة عشر ميلاً وصلنا إلى ميرتى (Merty) وإلى الغرب من المدينة شاهدنا خيام العرب، والآن أخبرنى مارامى أن الشيخ يرغب فى أن أضع نفسى تحت حماية باركا جانا، وأن مسئولية بوكالوم تتوقف عند الوصول إلى بورنو، وأنه سوف يقوم بحمايتى وأنه يتمنى أن أبقى مع شعبه وأننى سوف أكون أكثر سروراً أن أقيم خيمتى بالقرب من خيمة صديقى وبين رفاقى القدامى من العرب – ولكن كما أكد لى مارامى بأن الشيخ سيكون حزينًا جدًا إذا رفضت هذه الفكرة .

لقد استقبلنى باركا جانا بكل أدب واحترام كبير فى خيمته رغم أنه أبقانى عدة دقائق خارج الخيمة إلى أن استدعى كاتبه الخاص أو الفقيه الذى لا يمكن الاستغناء عنه وقال إنه يدعو الله ألا أصاب بأى ضرر، وأنه سيبذل ما فى وسعه من أجل إرضائى وأشار إلى المكان الذى يجهز فيه خيمتى بالقرب من خيمته، واستأذنت لكى أزور العرب ولقد كان التهليل ومصافحة الأيدى بحرارة خاصة مع بوكالوم جعلتنى أندم أننى لم أكن معهم رغم كل عاداتهم السيئة ، وصاح بوكالوم مراراً أننى عرفت أنك سوف تحضر وأنك بوسيلة أو أخرى سوف تلحق بنا .

وأشار أحد رجال باركا جانا بأننا سوف نتحرك مع طلوع النهار، وذهبت إلى خيمتى بعد أن أحطت بوكالوم بترتيبات الشيخ وهى أولاً أن أكتب للدكتور أودنى بخطواتى، وبعدئذ أنام بعد هذا التعب، ومع ذلك فقد كان النوم هو وسيلة الانتعاش الوحيدة، وكان كأنما أنا بين طرفين، أحد أصدقائى لا يرى أنه ضرورى والآخر لم يفكر إطلاقًا فى إرسال أى عشاء لى .

١٨ أبريل :

قبل شروق الشمس جمعنا الخيام وبدأ الجميع الحركة . أما باركا جانا المسئول عن رجال الشيخ فقد وقع فى يديه منذ سبعة عشر عامًا عندما كان عمره تسع سنوات، وكان الشيخ دائمًا مرتبطًا به، ورفعه الشيخ إلى المرتبة التى هو عليها الآن كقائد أو حاكم لأنجالا – وهى جزء من لوجون (Loggun) – وكل مدن نهر شارى إلى جانب تعيينه القائد الأعلى لكل قواته، وكان زنجيًا قويًا يتمتع بشجاعة غير عادية له جاذبية جعلته يتخيل أن السهام لن تنفذ إليه ، وكان ماكرًا ويمتلك سرعة الملاحظة ، ونظرًا لأنه ظل فى خدمة الشيخ فترة طويلة فإنه صار موضع ثقته، وكان رجلاً لطيفًا وجذابًا وفضلاً عن كل ذلك فقد كان مسلمًا حقًا .

وكما قلت من قبل فى صباح يوم ١٨ أبريل فقد ركبت إلى جانب باركا جانا لكى نذهب إلى ماندارا، وقبل الظهر بساعتين وصلنا إلى مدينة (آلا) (Alla) وهى تبعد أربعة عشر ميلاً عن ميرتى (Merty) ، وبعدها تحركنا وبعد مسيرة خمس ساعات وصلنا إلى ديجو (Deegoa) التى تبعد عشرين ميلاً عن آلا .

ومدينة ديجو مسورة وواسعة يحكمها سلطان يتبع الشيخ، وتضم سكانًا يزيد عددهم عن ثلاثين ألفًا ، وباستثناء الجزء المجاور للمدينة فإن المنطقة أقل أشجارًا عن المنطقة المجاورة لأنجورنو (Angornou) ، وبالتالى فإنها أقل إنتاجًا، وهناك وادٍ واسع ومجرى مائى يصل عرضه إلى ربع ميل، وإلى الجنوب من ديجو وجدنا المنطقة جافة تمامًا، وهناك قارب كبير بجانب الماء يستخدمه المسافرون القادمون إلى ماندارا فى فصل الأمطار .

لقد واجهتنا عاصفة رعدية عنيفة صاحبتها أمطار غزيرة أثناء الليل غمرت بشدة خيمتى المصرية، وقبل طلوع نهار يوم **التاسع عشر** أنهينا معسكرنا ومررنا على الوادى، وواصلنا طريقنا خلال مناطق ضيقة متلاصقة حيث يتكون الطريق من ممرات ضيقة تسمح فقط بمرور حصان واحد فى كل مرة، وكانت الأشجار تعترض هذه الممرات، ووصلنا فى بداية اليوم مدينة أفاجى (Affagay) وهى واسعة أيضًا ، وهى أيضًا تتبع الشيخ ويحكمها قائد، ومدينة أفاجى وغيرها من المدن حولها مثل سوجاما (Sogama) وكنداشا (Kindach) وماسيرام (Masseram) وكنجوا(Kingoa) كلها تضم عشرين ألف نسمة .

وإلى الجانب الغربى من كنجوا توجد آثار مدينة واسعة تسمى داجوامبا (Dagwamba) والمنطقة الممتدة لعدة أميال تحمل الاسم نفسه وكان يحكمها سلطان أيضًا ، والسكان جميعًا من الكرديز (Kerdies) أى الزنوج الذين كانوا وثنيين، وقد هزمهم سلاطين بورنو السابقين وصاروا مسلمين .

وقبل أن نصل ديجو مررنا علي جماعة من الشوا الذين يتبعون قبيلة والد سلامات وتمتد مساكن هذه الجماعة شرقًا حتي بحيرة تشاد .

ويصحب الرؤساء فى هذه الأجزاء عدد كبير من الأشخاص الأتباع وذلك للحفاظ عليهم وهم من الفرسان والمشاة وبعضهم يشكل فريقًا كما أسميه أيضًا ، أما باركا جانا فيرافقه وملاصقًا له خمسة من الفرسان يحمل ثلاثة منهم نوعًا من الطبول تتدلى حول رقابهم ويدقون الطبول من حين لآخر بينما ينشدون الأغانى، وهناك رجل يحمل ربابة من الغاب والآخر ينفخ من خلال قرن جاموسة بصوت عال كلما تحركنا فى الغابة ، ولكن الأكثر تسلية ومتعة كان المشاة الذين يسبقون القافلة وهم يعملون روادًا، وكان عددهم اثنى عشر ويحملون عيدانًا معقوفة ويحاولون بها إزاحة فروع الأشجار كلما تحركنا بخطوات سريعة حتى يظل الطريق مفتوحًا أمامنا وبدون هذا يكون التحرك صعبًا، وكانوا دائمًا يحذرون كلما سرنا بالقول " احترس من الحفر تجنب الفروع .. هنا الطريق ... احذر الأشجار التى تخرج من فروعها أوراق مثل الحراب، أبعد عنك الفروع" لمن؟ "باركا جانا" الذى يعتبر فى المعارك مثل الرياح المدوية تاركًا جانا ، الآن إلى ماندارا ، الآن إلى كيرديز ، الآن إلى معركة الحراب "من يكون قائدنا"

"باركا" "هنا الوادى ولكن لا توجد مياه" "حمداً لله" وفى المعركة إنه ينشر الرعب حوله مثل الجاموسة فى غضبها "باركا جانا" .

لقد غنى الفريق بعض أبيات الشعر والتى شــاركت فيها وهــذه ترجمة حرفية لهذه الأغانى :

لقــد جــاء الرجل المســيــحــى
صــديـق لنــا ولـشــيــخنـــا
الرجل الأبيض عندما يسـمع أغنيتى
يعطـينى ثوبًا جــمــيـلاً أنيــقـــاً
الرجل المســيــحى كــله أبيـــض
ويمتلك الــدولارات البـيــضـــاء
والكانـــورى يحــبـــون قــدومه
وهـــو صــديــق الـرجل الأســود
ترى الفـــلاتـــا كـــيف يجـــرون
وباركـــا جـــانـــا يهـــز حــربتـه
ويحمـل الرجـل الأبيـض بندقـيتين
وهـذا مـا يجعل الفـلاتا يخافــون .

لقـد كـان هذا النوع من السؤال والرد مـسـتـمرًا حـتى التـوقف، ولم نتـحـرك من أفجاى حتى الصباح التالى عندما زودنا كل الجيش بالثيران والأغنام، وكانت هذه أول وجبة منذ أن غادرنا أنجورنو، ولهم طريقتهم فى شى اللحم حيث تذبح الأغنام، وتقسم إلى نصفين، وتوضـع على إطار خشبى مصنوع من عيدان قوية لها أربع دعامات قوية، ويوقد تحتها نار قوية، وبهذه الطريقة يتم شواء اللحم بطريقة لم أشهد مثيلها فى أى مكان فى أوروبا .

وعند حلول المساء تلقيت دعوة من باركا جانا، وفى خيمته وجدت خمسة أو ستة من الرؤساء مجتمعين، ووجدت نصف خروف مشوى موضوعًا أمامنا، وعندئذ انسل الرؤساء السود من لباسهم الوحيد وهو قمصان زرقاء قاتمة اللون، وتم البحث عن أكثر الخنازير حدة، وأخذه أحدهم ليتولى تقطيع اللحم إلى شرائح صغيرة، ثم قام بتوزيع اللحم الذى التهمه الجميع دون حاجة إلى الخبز أو الملح، وعندما وصلنا إلى العظام، تم تغير الجانب الآخر الذى واجه المصير نفسه، وأنهينا هذه الوليمة بشرب العسل والفلفل الأحمر ومياه الأرز، ولم يسمح لأحد بالشرب إلا أنا حيث شعرت بارتياح كبير وسرور عظيم لهذه الوليمة العظيمة، وقال باركا جانا "إن ما تقدمه المنطقة هو ما نعيش عليه" لكنه لم يحمل أى شىء معه فى هذه الحملات سوى نوع من العجينة مصنوعة من الأرز والدقيق والعسل المخلوط بالماء والتى يتناولها صباحًا ومساءً عندما لا يجد أفضل من ذلك .

وفى يوم **العشرين** وصلنا عند الظهر إلى ديلاهاى (Delahay) عبر غابة كثيفة، وديلاهاى نقطة محاطة بأشجار الأكاسا الضخمة والتى لها ظل ظليل، وهناك يوجد ثلاثون أو أربعون بئرًا من الماء العذب وحولها أكواخ كثيرة لقبيلة الشوا التى تسمى هاجاينى (Hajainy) ، وكان الجو ملبدًا بالغيوم وحارًا حيث كانت درجة الحرارة فى خيمتى بعد الظهر ١٠٩ درجة، وفى المساء توقفنا مرة ثانية فى مكان يدعى «هاسبرى» حيث لم نجد ماءً وكنا قد قطعنا مسافة أربعة وثلاثين ميلاً .

وتغطى كل هذه المنطقة بتربة طميية يتخللها الغرين الأسود، وكانت هناك شقوق على أعماق عدة بوصات تجعل الطريق صعبًا، وفى فصل المطر تسقط الأمطار وتظل المياه لعدة أيام على الأرض لشهور عديدة بعد ذلك .

وفى هذا المساء لم تستطع إبل بوكالوم أن تساير أفراس شعب البورنو خفيفة الأقدام، وبالتالى تخلف عن الركب كثيراً لدرجة أنه حضر إلى خيمة باركا جانا ووجه إليه بعض الأسئلة الحرجة عن ديانتى جعلتنى أخشى أن أسقط فى نظر شعب بورنو أصدقائى .

لقد كان بوكالوم رحالة عظيمًا وكان ليبيريًا (حرًا) فى آرائه الدينية عن المسلمين لكن لم يتجرأ على اعتناق الديانة الإسلامية، أما الفقيه المعلم الشاذلى فكان ينظر إلىّ بعين الريبة والشك، وفى مرة قال "عندما يتوقف كل الجيش عند الفجر هل ستتوقف وتغتسل وتصلى؟" وكان ردى قائلاً "نعم" ورد الفقيه؟ "أين"؟ وكان ردى "فى خيمتى" وظل هذا الفقيه عدوى الذى يضايقنى ثم سأل بوكالوم من هم هؤلاء الإنجليز؟ وهل هم على المذهب الحنفى أم المالكى؟ ولا يزال يعتقد أننا سوف نعتنق الإسلام بطريقة أو بأخرى، وكان رد بوكالوم مترددًا "لا" إننا غير محظوظين لأننا لم نؤمن بالكتاب أى القرآن الكريم، وأننا لا نصلى أو ندعو كما يفعلون، ونصلى خمس فروض فى اليوم وأننا عندنا كتاب لم يشر إلى سيدنا محمد .

وهذا أعمى أبصارنا حيث اعتقدنا فيه ولكن إن شاء الله سوف يدركون خطأهم ويموتون وهم على الإسلام لأنهم أناس طيبون جداً .

ولقد تبع هذا الحديث زمجرة عامة، وأقفل الفقيه يده ثم قال بعد تفكير عميق "لماذا لا يقوم الباشا الكبير فى طرابلس بإدخالهم فى الإسلام؟"

وقد ابتسم بوكالوم لهذا السؤال "لماذا" ورد قائلاً "إنه لا يستطيع وهؤلاء الناس أقوياء، أقوياء جداً وأى محاولة من هذا القبيل سوف تكلف الباشا كل مملكته، وهم أيضًا أغنياء، أغنياء جداً". وقال الفقيه "إن الله العلى القدير قادر على أن يحول كل ثرواتهم إلى أيدى المسلمين"، وهنا صاح الحاضرون قائلين "آمين" .

ورغم هذا استمر بوكالوم فى حديثة قائلاً "مسيحيين كثيرين فى العالم لكن الإنجليز أحسنهم جميعًا فهم لا يعبدون الصور ، وهم يؤمنون بإله واحد ، وهم تقريبًا مسلمون" وكان هذا كل ما وسعه أن يقوله رغم أنه رفعنى قليلاً عند تقدير الفقيه، وكما قرر اضطر كل شخص أن يتتبعه فى فكره .

وكان طعام الأرز بالماء والعسل يأتينا دائمًا فى أوانٍ نحاسية مثلما يقدم الأكل للسلاطين أو أصحاب المناصب والرتب، كما كانت المشروبات تقدم للناس فى أوعية خشبية، وكان باركا جانا وأنا فقط الذين نشرب من هذه الأوانى، وفى تلك الليلة بينما كنت أشرب علق الفقيه قائلاً "إن ما ترك فى الإناء يجب أن يرمى بعيداً فى الحال" وكان قد خصص لى وعاء مستقلاً .

واصلنا رحلتنا إلى آلى مابور (Ally Mabur) حيث توجد بحيرة واسعة من الماء الساكن، واندفعت الخيول التى لم تشرب منذ الليلة الماضية بالمئات إلى البحيرة وكانت المياه التى أحضرناها للشرب قد أصبحت مثل شربة البسلة. لقد كان اليوم حاراً ونظراً لأن جملى لم يحضر لم أتمكن من نصب خيمتى، وكنت مرهقًا جداً من هذه الحرارة الشديدة حيث إن درجة الحرارة ١١٣ درجة فى الظل، وحاولت وضع بعض الماء الرطب لكن لا زال الجو لا يُحتمل، وتوقفنا بعد الظهر وحتى الليل فى مدينة آلى مابور عند نقطة مكشوفة فى الغابة تسمى أميشيدى (Emecheday) ، وصارت الأشجار طوال اليومين الماضيين أكبر ضخامة وتحتها أعشاب أقل، ولم تكن لدينا مياه للشرب سوى المياه المليئة بالطمى التى أحضرناها معنا، ومن خلال فتحات فى المكان المكشوف أو فى الغابة شاهدت فى ذلك اليوم تلال ماندارا، ومررت على صف من الأكواخ الكثيرة التى تخص الشوا من بنى حسان، وأصبحنا على بعد أميال قليلة من مدينة ماندارا وأرسل السلطان عدة أشخاص لاستقبال باركا جانا، ولكن فى هذا اليوم جاء أحد الرؤساء وخلفه حوالى عشرين فارساً وقال "إن السلطان نفسه سوف يقابلنا فى اليوم التالى فى الطريق إلى مورا (Mora) مقر إقامته" ولقد ازدادت قوتنا أثناء السير بانضمام شيوخ الشوا ومعهم أتباعهم من بحيرة تشاد ومن العرب .

وكنا نراهم دائمًا فى نقاط معينة على الطريق، وكانت تحياتهم دائمًا برفع الحراب وهزها بسرعة .

وبهذا الموكب وصل العدد إلى ثلاثة آلاف من الفرسان باستثناء حوالى ثمانين من العرب المشاة، وواصلنا المسيرة بالقرب من سلسلة من التلال التى تنمو بعض الأشجار على جوانبها .

وكانت أسفلنا أول مدينة وصلناها فى ماندارا وهى المقر السابق لإقامة السلطان وتضم ١٠٠٠٠ نسمة، وتضم ينابيع من الماء العذب، وفى الوديان تنمو أشجار التين، وأشجار أخرى لها زهور بيضاء تنبعث منها روائح زكية .

وعلى بعد ميل من هذه المدينة وجدنا أمامنا سلطان ماندارا وحوله خمسئة فارس يتمركزون على نقطة مرتفعة استعداداً لاستقبالنا، وعندئذ أمر باركا جانا بالتوقف،

وكان هؤلاء الرجال قد التفوا حولنا، وكانوا يرتدون أثوابًا سودانية جميلة من اللون الأزرق الداكن وعليها خطوط صفراء وحمراء، وكان السروال من القماش الأحمر الخشن مع عمامة بيضاء أو سوداء من القطن الملون ، وكانت الخيول جميلة حقًا وهى أقوى من أى خيول أخرى فى بورنو، أما حرس السلطان فكان يضم ثلاثين من أبنائه وكلهم يمتطى الجياد الممتازة، ويرتدون ملابس من الحرير، وبعد أن وقفت هذه القوة أمام السلطان اقتربنا بأقصى سرعة كلٌ حسب دوره .

وتوقفنا مع الحراس بيننا وبين السلطان، وبدأ العرض وبعد أن شرح بوكالوم الهدف من زيارته رجعنا إلى المكان الذى تركناه بينما عاد السلطان إلى المدينة يتقدمه مجموعة من الرجال الذين يحملون قضبانًا طويلة مزينة بالصدف مع طبلتين كبيرتين يحملها اثنا عشر رجلاً على ظهر الخيول، وقد انبعث منها أصوات عنيفة ومزعجة، واستمر العرض بلغة الماندارا من خلال مترجم، وفهمت أن الجميع يزورون السلطان طوال اليوم ويسمعون تصريحاته .

وكالعادة كان بوكالوم غاضبًا جداً وقال "إنه يجب أن يقدم للسلطان بعض الهدايا الجميلة وأنه متأكد أن مدينة الوثنيين مليئة بالناس الذين يسعون للنهب وأن العرب لديهم شوق وهم يشاهدون أكواخ الوثنيين التى ظهرت على جوانب الجبال أمامهم بنظرات تأملية وهم يقارنون ملابسهم الملتهبة وأجسامهم العارية مع ملابس ومظهر رجال سلطان ماندارا الذين يرتدون الملابس الحريرية، وكان بوكالوم والعرب قد تعجبوا عندما حثوا الشيخ الكانيمى أن يرسلهم إلى بعض المناطق من أجل الرقيق" ورد قائلاً "لا يهمك عددهم – إن السهام لا قيمة لها وإن عشرة آلاف حربة عديمة الجدوى ، إننا نمتلك البنادق، إننا سوف نأكل هؤلاء الكلاب بسرعة، ماذا ولماذا إنهم جميعًا زنوج" إننى أتخيل أننى رأيت ملامح الكانيمى وهى تنكمش بهذه التعبيرات الحقيرة التى يستخدمها تمامًا لشعبه .

وعند المساء أرسل باركا جانا يطلب الركوب لزيارة السلطان، ودخلنا المدينة أنا وبوكالوم بركبنا على اليمين واليسار وعلى بعد ميدان واسع كان قصر السلطان .

وكالعادة عند زيارة أو الاقتراب من رجل عظيم هرولنا بكامل قوتنا نحو البوابات، وكان هذا نوعًا من التحية الخطرة لكن لا يوجد ما يوقفك ونادرًا ما يحدث ذلك دون التضحية بحياة رجل أو أكثر، وفى هذه المناسبة تم تخطى رجل وحصان أمامنا، وانكسرت رجل الحصان وقتل الرجل فى الحال، وعزفت الطبول عندما نزلنا من على ظهور الجياد عند بوابة القصر وتم نزع صنادلنا، وتقدمنا عبر مدخل واسع إلى حوش كبير حيث جلس السلطان تحت خيمة من السودان، وكان يجلس على كرسى من الطين مغطى بسجادة جميلة وعليها وسائد من الحرير، وكان يحيط به حوالى مئتى شخص كلهم يرتدون أثوابًا جميلة من الحرير والقطن الملون، ومعه خمسة من الأقزام، ويجلس فى المقدمة الرجال الرئيسيون وكلهم يلفون ظهورهم نحوه، وكانت طريقة التحية غريبة، حيث كان باركا جانا باعتباره ممثل الشيخ قد اقترب إلى مكان فى مقدمة الأقزام وعينه مثبتة على الأرض وظهره نحو السلطان وقد ضم يديه معًا صائحًا "يحيا السلطان للأبد، الله يمنحك السعادة حتى نهاية العمر" .

كيف حالك، بارك الله فيك، وكان السلطان يكرر هذه الكلمات ثم يغنى الجميع الكلمات نفسها، وبعد قراءة الفاتحة تقدم الجميع، وأخرج بوكالوم بعض الهدايا التى حملها الأقزام وهى مغلفة، وأعرب السلطان عن رغبته فى خدمتنا وأنه سوف يدرس مطالبنا ويعطى الرد خلال يوم أو يومين .

واسم السلطان محمد بوكر ويبلغ من العمر خمسين عامًا، وكان قصير القامة وله لحية مصبوغة بلون السماء الزرقاء، وكان ينظر إلىّ لبعض الوقت بينما أجلس بين بوكالوم وباركا ثم سأل بوكالوم من أكون أنا، وكان الرد أننى أحد مواطنى دولة قوية بعيدة وأصدقاء لباشا طرابلس والشيخ الذى جاء لرؤية هذه الدولة . لم يظهر أى علامات الدهشة ونظر شاكرًا ثم قال "وماذا يريد أن يرى؟" وجاء بعده سؤال صعب ويبدو أن الرد كان كالصاعقة على الجميع – هل هم مسلمون؟ "لا لا" وكانت كل عين تنظر إلىّ ونظرت حولى فوجدت أننى فى موقف حرج وقال السلطان "هل للباشا أصدقاء من الكفار؟" وكان التفسير لهذا عديم الجدوى فهم لا يعرفون أى تمييز بين المسيحيين والكفار وهم مجرد أن سمعوا أن المسيحيين أسوأ أناس على وجه الأرض وربما حتى لو شاهدونا لم يصدقوا أننا بشر .

وعدنا إلى المعسكر بعد ذلك بقليل، ولم توجه إلىّ أى دعوة لزيارة سلطان ماندارا أو حضور جلساته .

لقد نصبنا خيامنا على مسافة قصيرة من مدينة مورا (Mora) وعند عودتنا كان معنا أربعون عبداً يسبقهم أحد أقزام السلطان والذى جاء إلى المعسكر حاملاً أوانٍ خشبية تحتوى على العجين والدهون الساخنة وفوقها الفلفل ومخلوطة ببعض البصل، وهذا هو أفضل أكلة عند سكان ماندارا، ولم تكن لذيذة الطعم لكن أحضر الرؤساء بعض قطع الضأن وكان أفضل من الأكل السابق، ووضعت يدى داخل الإناء كالعادة بينما وضع المعلم الشاذلى يده فى إناء آخر، وشاهد باركا جانا أننى لاحظت ذلك وخوفًا من أن يغضب الشيخ فدفعت الفقيه خارج الخيمة، وهذا أحزننى، وقررت اتخاذ بعض الإجراءات لمنع تكرار تلك الأمور السيئة .

توقفنا يوم **الثالث والعشرين** لكن تألمت كثيراً بسبب لدغ النمل والحشرات لدرجة أن عيونى تورمت حتى إننى لم أستطع أن أمسك قلمًا أو أستخدم أى شىء وفضلاً عن ذلك كانت الحرارة لا تطاق حتى طوال منتصف النهار وكانت الحرارة ١١٣ درجة، وغطيت نفسى بكل البطاطين التى وجدتها متاحة من أجل تخفيف الآلام وحمايتى من الذباب ومن حرارة الشمس، وكنت أكلف الزنجى بصب الماء من حين لآخر على رأسى وكان هذا مريحًا لنفسى، وقضيت الجزء الأكبر من المساء مع بوكالوم الذى رأى سلطان ماندارا فى ذلك اليوم، واشتكى من تأخره لكنه رغم ذلك كان لا زال متعطشًا للدماء ، واعتقد أن السلطان يحاول أن يوضح أنه كافر وأنه لابد من مهاجمته ، لكن لم تكن نية سلطان ماندارا اتخاذ أى خطوات من هذا القبيل ، ولم يكن الشيخ ينوى ذلك أيضًا وأعتقد أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال سلطان ماندارا الذى كان على عداوة طبيعية مع الفلاتا أكثر الشعوب المحاربة فى كل المنطقة .

لقد انهزمت ماندارا عدة مرات أمام قبائل الفلاتا التى تنتشر فى مساحة كبيرة من المنطقة حيث يوجدون فى كل السودان حتى تمبكت وجنى (D'Jennie) وهم يشكلون الجزء الأكبر من السكان، وكان الفلاتا يقطنون كونا للى (Conally) التى تقع غرب جنى وهم شعب وسيم ولونهم نحاسى داكن ولا يختلطون فى دمائهم مع الزنوج ولهم لغة خاصة بهم، وهم مسلمون وهم يشبهون الشوا ولكنهم جنس متميز .

وإلى الجنوب الغربي من ماندارا توجد منطقة تسمى كاروا (Karowa) وكان سلطان واحد يحكم المنطقتين حتى قام الفلاتا من موسيفيا (Musfei) وكورا (Kora) بعزلها ، ونجح ابن السلطان في كاروا في استعادة ماندارا من أيديهم، وظل يحتفظ بها، وظلت تدين بالإسلام كما أصبح هو الآن مسلمًا، وصارت موارده قوية، ويسهل الدفاع عن بلاده .

ومنذ عشر سنوات وجد أن دفاعات أسوار المدينة في مقر إقامته في ديلو (Delow) ضعيفة ضد هجمات الفلاتا فقرر بناء مدينة جديدة في مورا تواجه الشمال تقريبًا، وتقع تحت حافة شبه دائرة بين الجبال، وتشكل هذه الحواجز الطبيعية خطًا دفاعيًا في كل جهة ما عدا جهة واحدة هي التي تواجه الأعداء، ولقد كانت مناسبة غريبة أنه لا يوجد أي أناس من الشوا في المناطق المجاورة لماندارا ولا في أي مكان في الجنوب منها .

رأى الشيخ الكانيمي بعد نجاحه بفترة قصيرة مزايا الحليف القوي مثل سلطان ماندارا ضد الفلاتا الذين يعدون خطرًا مشتركًا لكلٍ من الطرفين، وكان قرب ماندارا من الأمم الوثنية وسهولة الحصول على الرقيق من هناك له أيضًا اعتباراته ومزاياه .

كما أن قبائل الشوا التي تتواجد على حدود ماندارا من الشمال والشمال الشرقي كانت تغير بصفة عامة وترسل جماعات تهاجم إلى هذا الجزء القريب منهم ولم يستطع السلطان منعها، ولم يجد الشيخ ضرورة في إخضاع هؤلاء السكان ورضوخهم لسلطان بورنو بل صمم أيضًا على توقيع اتفاق معهم حتى لا يستمر توغلهم في دولة ماندارا، وهذا السلام لم يتحقق منذ زمن طويل، وقد توثقت هذه المعاهدة للتحالف باستقبال الشيخ وقبوله الزواج من بنت سلطان ماندارا، وترتب على الزواج إرسال حملة ضخمة من قوات متحدة للشيخ والسلطان إلى أرض الكفار وتسمى موسقو (Musgow) في الجنوب الشرقي لماندارا، وكانت النتائج مقبولة حيث تم أسر ثلاثة آلاف شخص من هذا الاتحاد المتوحش وبيعهم كرقيق بينما تم القضاء والتضحية بضعف هذا العدد، وقد تم الاحتفال العظيم بهذه الزيجات وسط جو من العظمة البربرية، كما أن الدم الذي أريق على ممر المذبح كما يعتقد كان كافيًا لأن يطفئ شعلة الزفاف ويقضي على حامليها .

ولم تترك هذه الاتفاقية من التحالف لسلطان ماندارا أى أعداء سوى الفلاتا الذين كان لابد من إخضاعهم، وكانت قواته قد زادت بشكل تجعله لا يخشى أى إجراءات هجومية من جانبهم، بل على العكس فإنه كان في فترة حملتنا لعدة شهور يبحث عن فرصة لبدء القتال بنفسه(*) .

وتتكون قوات ماندارا أساساً من الأفراس ذات الأصل الممتاز، وكان لها مظهر طيب . أما مدن الكفار فإنها تقوم من حين لآخر ببعض عمليات الهجوم بالقوس، ولكن نظراً لأن هدفهم الوحيد هو السلب عند تحقيق النصر أو على الأقل يلجأون إلى سكان الجبال، وتتكون مدن الماندارا الرئيسية من ثمانية مدن، وتقع كلها فى الوادى، وكلها تعتنق الدين الإسلامى .

أما الوثنيون فكانوا كثيرى العدد وتقع مساكنهم فى كل مكان على جوانب بل وعلى قمة التلال التى تطل مباشرة على مورا (Mora) عاصمة ماندارا .

أما النيران التى رأيناها فى الأماكن المختلفة لهؤلاء التعساء فتلقى أضواء على القمم العالية للصخور الجرانيتية المحيطة وتعطى منظراً طبيعياً وشكلاً مخيفاً .

وكان خوف السلطان قد ازداد بسبب تحالفه الوثيق مع الشيخ، وظهور مثل هذه القوة التى ترافق باركا جانا والتى تنتشر فى الوادى وتعطى منظراً مثيراً لهؤلاء الذين يسكنون هذه المناطق المرتفعة، وكلهم يدركون أن هناك عزماً واحداً لزيارة هذه القوة لتلك المنطقة وأن أيا منها سيكون ضحايا وبالتالى فإن هذا يقلق الجميع .

وبمساعدة التلسكوب الجيد اكتشفت أنه حسب الشروط التى كانوا عليها مع ماندارا أنهم فى خوف شديد وينسلون إلى قلب الجبال بينما اتجه الآخرون نحو "مورا" حاملين جلود النمر والعسل والعبيد الذين سرقوهم من المدن المجاورة باعتبارها هدايا يقدمونها كرمز للسلم ، وأيضاً أحضروا الحمير والماعز الوفيرة فى جبالهم، أما شعب

(*) لقد وصل وفد من سبعة وعشرين رجلاً من موسيفا Musfeia وزاواى Zouay إلى مورا من أجل استرداد ممتلكاتهم التى استولى عليها شعب ماندارا ، وتم السماح لهم بالتفاوض ولكن ما إن سمح لهم بالحضور أمام السلطان حتى قام العبيد بقطع رقابهم فى الحال .

موسقو (Musgow) الذين وصلت أخبار بأن بلادهم ستكون أولى المناطق التى سينهبها العرب فقد أرسلوا مئتين من رجالهم بجانب هدايا للسلطان ومعهم أكثر من خمسين حصانًا، كما امتطى أكثر من ثلاثين فارسًا على جياد من نوع ممتاز، ورأيتهم وهم يغادرون قصر السلطان وعند دخولهم ألقوا بأنفسهم على الأرض ورشوا الرمل على رءوسهم، وصاحوا بأعلى أصواتهم .

أما الفرسان وهم من الرؤساء فكانوا يلبسون الملابس الجلدية من جلد الماعز أو النمور وهى تتدلى من الكتف الأيسر مع رأس حيوان على الصدر ومربوطة على الوسط، وتصل إلى منتصف الفخذ، وقد تم الإبقاء على جلد الذيل والأرجل، أما رءوسهم فكانت مغطاة بشعر من الصوف يصل تقريبًا إلى عيونهم وكانوا يرتدون قبعة من جلد الماعز أو الماشية أو جلد الثعلب وحول أذرعتهم وفى آذانهم كانت تتدلى أقرطة يبدو لى أنها من العظم، وحول رقبة كل واحد منهم ما بين واحدة أو ستة خيوط من أسنان أعدائهم التى أخذوها من المعارك بعد قتلهم تتدلى من شعورهم أسنان وقطع من العظام، وكان أكثر ما شد انتباهى لمظهر هذه المخلوقات هو وحشية هذه الأجناس ، وهو ما أكد لبوكالوم أنهم من المسيحيين ولم أجد بُدًا من مناقشة هذه الرأى لكنه وافق وأضاف أنهم مسيحيون، ومع ذلك فإن بعضًا منهم طلب السماح لهم لكى يستمتعوا بأكل بقايا حصان كان قد مات أثناء الليل فى معسكرنا، وهـذا ما أعطانى فرصة لأرد عليه. ولا أنسى فى هذه اللحظة كم كنت متضايقًا عندما أجاب "لاشىء يهم" ولم أسمع من قبل عن مسيحيين يأكلون لحم حصان ميت لكنهم يأكلون لحم البجع ويعلم الله أن هذا أسوأ ، وقد صحت قائلاً "اللهـم أعطنى الصبر إن هذا شيئًا لا أستطيـع أن أتحمله أو أن أسكت عليه" .

وحاولت عن طريق أحد رجال ماندارا أن أسأل بعض الأسئلة عن هؤلاء المسيحيين المشهورين لكن محاولاتى باءت بالفشل حيث لا يجرون أى حديث مع أى شخص ، وعندما سمحوا لى فإنهم حملوا بقايا الحصان بعيدًا إلى الجبال حيث أضرموا النيران، وقضوا الليلة فى هذه الوليمة الوحشية .

٢٤ أبريل :

لم يعلن سلطان ماندارا عن اتجاهه نحو بعثة بوكالوم وأدى هذا إلى قلق وعدم رضا بوكالوم، وتم تقديم القرابين من كل الدول الوثنية، وقدم السلطان العذر لبوكالوم عن التأخير بسبب اضطراره لإقناع الناس حوله والذين كما قال صاروا مسلمين دون استخدام القوة ، ومرة ثانية ذكر موسجو (Musgo) "أن ذراع العرب المحاربين والذين يحملون سيف النبى ربما يغير قلوبهم" ومع هذا فإن ذلك النفاق الذى أعلنه بوكالوم بصوت عال وهو يعلن أن الحديث عن الشعب الوثنى سوف يفقد السلطان آلاف العبيد لأن حروبهم المستمرة مع بعضهم بعضاً أعطتهم الوسيلة للحصول على أعداد كبيرة .

لقد نفد صبرى هذا الصباح ، حيث طلبت من باركاجانا مع بزوغ فجر اليوم أحد رجاله لكى يصحبنى إلى الجبال ، وبعد محادثة قصيرة أرسل أحد الرؤساء إلى بيت رئيس المدينة والذى أرسلنى بدوره إلى رجل آخر وأشار هو الآخر إلى إرسالى إلى ثالث ، وكلهم سألونى مئات الأسئلة والتى كانت طبيعية وطلبوا ذخيرة بعد أن نظروا إلى بندقيتى وأنا أحكم غلقها خوفاً من أن يكسروها وهم يصيحون "مدهش..مدهش" عندما تنطلق الطلقات .

وأخيراً بعد أن أمسكت بها فى النهاية ملأتها بالذخيرة ، وكان آخر رجل مهم ذهبت إلى بيته قد طلب منى أن أطلق النار بعد أن استدعى عبيده للوقوف حوله وقد وافقت على طلبه وبعدها طلب البندقية وحملها داخل الفناء الداخلى للمنزل ، وانتظرت لمدة نصف ساعة عندما اندفع عشرة من العبيد وأعطونى البندقية ، وأخبروا المرشد أن يحملنى ببندقيتى إلى داخل القصر ، وشكوت أنهم قد سرقوا كل الطلقات ، وجاء الجميع وتجمعوا حولى وهم يصيحون وكان هذا كل ما حصلت عليه . واكتشفت بعد ذلك أن الطلقات لم تكن هى المسروقات الوحيدة ، فلقد سرقوا منديلى الذى حاول الكثير من قبل سرقته دون جدوى .

وصلت إلى القصر وانتظرت فى المدخل وبدأت أتمشى حولى لكن أخبرونى أن هذا ممنوع وأنه لابد من الجلوس على الأرض وبعد انتظار دام حوالى ساعة كنت خلالها أرغب فى العودة لكنهم أخبروا المرشد أن هذا مستحيل حتى يعطى السلطان أوامره ،

وقد سمحوا لى بالتوجه لمقابلة كبير الأقزام الذى طلب منى أن أقف على بعد اثنتى عشرة ياردة منه ثم قال "إن السلطان لا يستطيع أن يتخيل ما أريده من التلال ؟ هل أريد أن أقبض على الوثنيين وحيدا ؟ وإنه أفضل أن أشتريهم ، وإنه سوف يبيع لى أى عدد منهم أرغب فيه" ، ثم أعطى بعض الإشارات التى لم أفهمها والتى أثارت ضحك كل الحاضرين والمارة وكان هذا التهكم بكل وضوح على تصرفاتى التى لم أكن أدركها وقد أكدت له أننى لا يمكن أن أذهب مطلقًا إلى التلال إذا كان لدى السلطان أدنى اعتراض ، وأنه مجرد حب الاستطلاع وأن عملية صيد الوثنيين لن أمارسها حتى لو أعطوها لى ، وهذا وضعنا فى موقف سليم وأعطيته بعض البارود وصار أكثر مرونة مع رجل كافر مثلى .

ولقد أبدى ستة رجال مسلحين بالخناجر الرغبة فى مصاحبتى ، وكما أكد لى القزم أن قلق السلطان على تأمين رحلتى كان السبب الرئيسى الوحيد الذى يشكل صعوبة ، ولم أعرف أى اتجاه لهؤلاء الأتباع لكنهم كانوا يراقبوننى بشدة لدرجة من الغيرة على كل حجر التقطته حتى أننى لم أستطع تصوير شكل أى تل .

وعند منتصف النهار تقدمنا حوالى ثلاثة أرباع ميل على طول الوادى الذى يقع على الجانب الجنوبى الغربى من المدينة ، وتقدمنا قليلاً وسط اثنين من الفجوات التى يبدو أنها فى الحافة الجنوبية من السلسلة، وفى إحدى هذه الفجوات وجدنا مجرًى مائيًا ينبع من قاع الرمل البراق تحت كتلتين كبيرتين من الجرانيت والتى تشكل قوسًا حول هذه المنطقة ، وعندما اقتربنا من المكان وجدنا عددا من الناس العراة غالبيتهم من النساء والبنات الذين يجرون فى هذه المنطقة ، وهم يزحفون خوفًا إلى جانب الجبل مثل القرود .

لقد أكدوا لى أن هذه السلسلة هى أعلى سلسلة جبلية فى تلك الأجزاء المجاورة لماندارا والتى لا يزيد ارتفاعها عن ٢٥٠٠ قدم ، وتمتد إلى الجنوب لأكثر من مسيرة رحلة شهرين لكنهم لا يعرفون شيئًا عن المناطق فيما وراء ذلك ، ولا يمكن الانتقال فى هذه الجهات إلا بمساعدة مجموعة من الرقيق المحررين المغامرين الذين يخترقون هذه الأقطار ومعهم الودع والقماش الذى يباع مع العبيد والأقمشة السودانية والجلود التى يتم تبادلها .

والدول كثيرة ويدهنون أجسادهم بمختلف الألوان ، ويعيشون معاً دون أى اعتبار لعنصر القرابة ، وأحياناً نمر على بحيرات كبيرة وبها كميات من السمك كما نجد فى الأودية أشجار المانجو والتين البرى والفول السودانى ، ولم نكتشف فى هذه التلال أية معادن باستثناء معـــدن الحديد الذى يتـواجد بوفــرة بالقرب من كاروا (Karowa) التى تقع إلى الجنوب الغربى من ماندارا .

وعلى مسافة سمعنا أصوات الطبل السلطانى الذى أحدث أحاسيس قوية بين أتباعى وأعلنوا أنهم يجب أن يعودوا فوراً ، وعندما حاولت أن أعترض قليلاً أمسك أحدهم بلجام حصانى وحوله وقاده بينما تبعه الآخرون نحو المدينة ، وبالطبع استجبت بهدوء متسائلا عن سبب هذا الانزعاج والخوف ولكن اتضح أنه لا شىء سوى أن السلطان كان يلقى حديثا وأن هؤلاء الرجال لا يودون أن يكونوا غائبين ، وتركونى بمجرد أن اقتربنا من المنازل وفى الحال كنت محاطا بأكثر من مئة رجل آخر والكل يسعى لوضع يديه وفحص كل شىء عنى لدرجة أننى وضعت الحراب على حصانى ووجهت أفضلها فى طريقى إلى المعسكر .

وكنت مرهقًا جداً بهذا الجهد الصباحى وزحفت إلى داخل خيمتى حيث عشت ثلاث ساعات من البؤس بسبب ارتفاع درجة الحرارة التى فاقت كل احتمالات الجنس البشرى الذى ولد ليقاسى هنا .

وبعد برهة أرسل لى باركاجانا ووجدت أنه يستعد لاستقبال أحد كبار الأقزام عند السلطان فى خيمته الخارجية ، وجلس كل رجاله على الرمل من حوله وظهورهم تتجه نحو رئيسهم وعيونهم تميل إلى أسفل – وليس هناك أى شىء عدا هذا حتى لا نجد عيناً مرفوعة أو نرى ابتسامة أو ينطق أحد بكلمة سوى "أطال الله عمرك... عمر سعيد ... بسم الله ثم قراءة الفاتحة التى يندر حذفها فى هذه المواقف"، وفى البداية سأل المسئول الكبير "لماذا ذهبت إلى التلال؟ وماذا أريد من الأحجار التى جمعتها وأضعها فى كيس بالقرب من سرج الحصان؟" وطلب منى باركا جانا معلومات وأرسل بطلب الكيس، وكانت العينات التى جمعتها لا تزيد عن خمسة عشر شيئاً، ووضع القزم يده على اثنين من الجرانيت اللطيف وبعض أحجار الكوارتز وسأل "كم تبلغ قيمة هذه بالدولار فى وطنك؟" وابتسمت وقلت له "لا شىء إننى لا أرغب فى أخذها إنه حب استطلاع

وإن لدينا الكثير منها في إنجلترا لدرجة تغطى كل هذه الدولة وكنت مسروراً أن أجد أشياء طبيعية تشبهها هنا"، وأخفقت قائلاً لباركا جانا "أكد للسلطان أن أخذ أى شىء من أى سكان هذه الدول أمر لا يرغبه ملك إنجلترا، إن الشيخ لا يعرف نوايانا وهى أن نطلعهم على المنتجات الأوروبية وإذا كانت مفيدة لهم فإننا نرسل الكثير منها إلى بلادهم" .

وقال باركا جانا حقًا ... حقًا وماذا أحضرت للسلطان؟ وهنا وجدت نفسى فى محنة ومأزق حيث كان معى فقط مرآة صغيرة خاصة بى ولا توجد سكاكين ولا مقصات ولا حتى الخرز رغم أننا نمتلك الكثير منه فى بورنو، إنه من الضرورى أن نقدم شيئًا ولذا أرسلت أطلب صندوق ثيابى وأعطيت السلطان شالين تقليديين أحمرين على النمط الفرنسى والتى كنت قد اشتريتها لاستعمالى الخاص، وشفرتى الخاصة وأحد المقصات بينما أخذ القزم المنديلين وكان مسروراً جداً بهما.

٢٥ أبريل :

لقد كانت أخبار الهدية التى أحضرتها فى هذا الصباح قد دفعت خمسة عشر من أبناء السلطان ومعهم ضعف العدد من الأتباع إلى خيمتى والكل يريد البارود والسكاكين والمقصات وليس عندى ما أقدمه لهم، وحصل كل واحد من أكبر الثلاثة أمراء على منديل من الحرير الفرنسى، وحصل أحدهم على زوج جوارب من القطن وبالطبع عاد الآخرون والأسى على وجوههم، وفى هذا الصباح قمت بمغامرة رسم صورتين لكن حملوا أجهزتى بل وأنا شخصياً دون مراسم إلى السلطان، وكانت الأقلام والحبر عليها قد أثارت الدهشة وكان غريمى القديم المعلم الشاذلى موجوداً وعاملنى معاملة حسنة وتحدث كثيراً عنى وعن دولتى والتى جعلت المستمعين يصرخون قائلين "يو .. يو" لكن لم أعرف مفهوم هذه العبارات .

وحاولت أن أنسى الأعمال السيئة السابقة وأخذت كل شىء على الجانب الحسن وعدت إلى هدوئى وأن أكون على علاقة طيبة معه كما ظهر لى، وكتب مع الآخرين بعض الكلمات لكن المحاة لم تترك لها أثراً وأخيراً كتب الفقية "بسم الله الرحمن الرحيم"

بحروف القرآن الكبيرة والتى تركت أثراً عميقًا على الورقة حيث أننى بعد "استخدمت ممحاة هندية لازالت الكلمات واضحة وقلت إن هذا لن يختفى" وصاح الفقيه "لا... لا إنها كلمات الله التى ألقاها على رسولنا إننى أتحداك أن تمحوها" وقلت "ربما هكذا" وأدركت ألا جدوى من المحاولة وعرض الورقة على السلطان والمحيطين به بكل ارتياح، وصاح الجميع "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ونظر الجميع لى نظرة تأمل وشفقة واحتقار وكنت مسروراً عندما سمحوا لى بالرحيل .

تكرر المشهد نفسه لباركا جانا فى خيمته فى المساء وصاح الجميع "مدهش ... مدهش" وحيث إننى لم أعارض أى شيء من تقريره تحدث الفقيه إلىّ قائلاً "يا ريس ... لقد شاهدت معجزة وسوف ترى المئات التى يؤديها لك هذا الكتاب العجيب ... وتقول إن عندك كتابًا لكن كتاب مزور - لماذا؟ لأنه لا يقول شيئًا عن سيدنا محمد، وهذا يكفى انتبه ... انتبه. الله هو الله ومحمد رسوله.. اغتسل وكن نظيفًا، تتفتح لك الجنة وبدون هذا من الذى سينقذك من نار أبدية .. لا شيء ياه سوف أراك وأنت تجلس فى السماء الثالثة وسط اللهيب وأنت تصيح لصديقك باركا جانا وأنت نفسك قائلاً : يا معلم صاهربى صديقى أعطنى شرابًا أو نقطة ماء ، لكن الهوة بيننا بعيدة وعندئذ يكون الوقت متأخراً جداً" وسالت دموع المعلم وهو ينطق بهذه الكلمات، وقد تأثر كل واحد من لباقته وفصاحته .

وفى هذه الفترة شعرت بالضيق وعندما رآنى باركا حزينًا استدعانى داخل خيمته، لم يصحبه أحد سوى من يدعوهم وقال "إن الفقيه رجل عالم" وقلت "فعلاً لكنه من المؤكد سوف يتركنى وعقيدتى كما تركته وعقيدته" وقال "الله يمنع هذا" وقلت "لا تقارنهم الله يعلم لكنك أنت يجب أن تحمينى من مثل هذه المضايقات المتكررة" وأجاب باركا جانا "لا" إننى لا أستطيع التدخل فى هذا إن المعلم (الشيخ) رجل مقدس - يعجب الله ويرضيه وسوف تتنور وأنا أعرف أن الشيخ يرغب فى ذلك إنه يحبك ويتمنى أن تظل بيننا، وسوف يعطيك خمسين عبداً فى غاية الجمال، وسوف يبنى لك بيتًا مثل بيوت أبنائه وسوف يمنحك زوجات من عائلات أى من رعيته التى تختارها، وهل ستعود يا صديقى إلى إنجلترا وتتحدث لى أحيانًا بعد إذن الشيخ، و/أو ليس من المشين أو العار لك أن تتحول إلى المسيحية وتظل كذلك ؟ وهل ستفعل معى ما أفعله معك ؟

كيف سأرد على السلطان الذى أرسلنى؟ وقال الله يمنع ذلك "إنك تقارن عقائدنا مرة ثانية" إننى أتمنى لك حياة أبدية بينما أنت تتمنى لى وقال لا كلمة بعد ذلك مساء الخير، السلام عليكم، أتمنى أن نكون دائماً أصدقاء، وكان ردى حمدا لله "آمين" .

وفى هذه الليلة هبت عاصفة مخيفة لم نشهد مثلها من قبل حيث انفصلت خيمتى المصرية التى أفضلها بسبب خفة وزنها وانكسر العمود الذى يحملها وكان بريق الضوء والرعد يشبه ضوء القمر فى منتصف الليل، وفى الوادى المجاور لنا خلعت الرياح جذع أحد الأشجار، وكانت كتل ضخمة من الأحجار تتساقط على جوانب الجبل، وزحفت إلى أحد أركان خيمة باركا جانا الداخلية حيث كان ينام حارسه ورغم أن كل خرقة حولى كانت مبللة بالماء لم أشعر خلال فترة قليلة بالعاصفة التى تهب من حولى .

ومع ذلك ففى الصباح كنت أعانى من آلام فى كل أطرافى ورأسى كما كان العرب يشكون من الآلام، وكان موقفهم سيئًا جداً وكانوا يتعجبون بصوت عال ضد تأخرهم ، ولم يأكلوا أى شىء منذ عدة أيام سوى بعض الدقيق والماء دون أى لحوم، ولم يقدم سلطان ماندارا لهم أى مؤن أو طعام، وطلبوا من بوكالوم أن يواصل المسيرة أو يعودوا، ومرة ثانية سقطت الأمطار كالسيول وهذا أكبر شىء يرعب العرب الذين تجمعوا حول خيمة بوكالوم فى حالة من التمرد، وكان بوكالوم نفسه مريضاً جداً .

وكما أعتقد أنه كان متضايقًا جداً أكثر منه مريضاً، ولقد عقد اجتماعاً طويلاً مع السلطان وعاد أكثر ضيقًا وأخبرنى ببساطة أننا سوف نتحرك فى المساء، وعندما سألته "هل كل شىء على ما يرام؟" أجاب "إن شاء الله" أما العرب الذين أخفى عليهم مكان اتجاهه وجعله سراً فقد قابلوه بكل ترحاب وسرور .

أما من الذين سوف يذهبون ضده فهذا أمر بسيط طالما أن هناك أملاً فى السلب والنهب، وصار كل المعسكر مشغولاً فى الاستعداد .

وبعد الظهر بساعتين تحركت مسيرتنا خلال الوادى الجميل إلى الشرق من مورا ودرنا حول التلال التى تحيط بالمدينة واخترقنا داخل كتلة من الجبال التى تقع إلى الغرب منها تقريباً، وعند غروب الشمس توقفنا فى بقعة جميلة المنظر تسمى هيرى (Hairey) محاطة بسلسلة من التلال، ونصب باركا جانا خيمته تحت ظل أحد

جوانب شجرة ضخمة تشبه شجرة التين رغم أنها لا تحتوى على هذه الفاكهة اللذيذة، أما بقايا خيمتى التى أصلحها رجاله والتى لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أقدام من الأرض فقد أقمتها على الجانب الآخر ، ويبلغ قطر هذه الأشجار عند الجذع ما بين عشر أو اثنتى عشرة ياردة، ووجدت أنها تغطى مع فروعها الممتدة على نطاق واسع أكثر من نصف فدان من الأرض .

ونظراً لمرض بوكالوم فقد مكثنا طول النهار عندما خرجنا من معسكرنا لمشاهدة منظر الجبل الذى يحيط بنا والذى لا نجد جمالاً يفوقه، وعلى كل الجوانب فإن سلسلة التلال المتقاطعة تتقارب من ناظرنا فى عظمتها وروعتها رغم أننا لا نقارنها مع جبال الألب العالية وجبال الإبنين، والجورا (Jura) أو حتى جبال سيرا مورينا (Mierra Morena) .

وتظهر القمم العالية لتلال ڤاهمى (Vahmy) وساڤاه (Savah) وجوجودى (joggiday) ومانداى (Manday) وياباه (Vayah) ومونونج (Moyung) وميمى (Memay) مع بعض القرى المتناثرة التى تظهر فى الغرب منا بينما نجد أن تل هورزا (Horza) يفوق التلال الأخرى فى الارتفاع بل وفى الجمال، وقد ظهر أمامنا فى الجنوب مع انكساراته وممراته التى مررنا بها، وأيضًا الممر الملتوى الذى كنا على وشك أن نطأه .

والوادى الذى أقف عليه فإنه على ارتفاع أعلى من أى جزء فى مملكة بورنو لأننا بالتدريج تسلقنا فوقه منذ أن غادرنا كوكا، وهو يشبه فى شكله الخماسى الواسع، ويعطى إيحاء قويًا بفكرة أنه كان قائمًا أو حوضًا لبحيرة قديمة ، وبسبب اختفائه فإن كل الافتراضات تعد عديمة الجدوى، وتوجد آثار فتحات عديدة بعضها طريق طويل وضيق والتى من خلالها انسابت المياه، أما الممر الذى دخلناه فيبدو أنه قد حمل محتوياته بعيداً .

واستمر تقدمنا فى الممر لهورزا (Horza) واصلنا الصعود، وزادت جوانبه العمودية عن ألفين وخمسمئة قدم فى الارتفاع ويرتفع فوق رءوسنا بشكل مخيف، أما عرض الوادى فلا يزيد عن خمسمئة ياردة .

وتتداخل الزوايا بشكل منسق لدرجة أن المرء يتخيل لو أن اضطراباً عنيفًا فى الطبيعة ويمكن أن يضع الجوانب مرة ثانية معًا ولم يترك أى أثر لأنها كانت منفصلة.

وبعد منتصف النهار وصلنا إلى مجرى جبلى يسمى ميكوا (Mikwa) وهذا ما أعطى ارتياحًا يصعب وصفه للخيول الجائعة بل ولأنفسنا، وأصبح الطريق بعد أن تركنا ممر هورزا مليئًا بنباتات كثيفة فى هذا الوادى حيث تتشابك الأشجار وتظهر أشجار التين البرى والمانجو التى تنمو بأعداد كبيرة، وكانت هذه أول نقطة أشاهدها فى أفريقيا حيث تبدو الطبيعة للجميع وكأنها أعطت متعة الحياة لملكة النبات، فالأوراق تقدم بهجة عظيمة والزهور التى تخرج من النباتات الطفيلية وتلتف حول جذوع الأشجار وتترك مجالاً للخيال بلا شك ذات العطر الذى يملأ الهواء وكذلك البراعم الرومانسية الجميلة التى تدين بجمالها لهذه التغذية الطبيعية .

أما الأرض فليست مستوية، وتتخللها كتل متكسرة من الجرانيت يصل ارتفاعها ما بين عشرة أو اثنى عشر قدمًا فى الارتفاع وتتواجد فى أماكن عديدة لكنها تتشابك مع الشجيرات الصغيرة التى تنمو حولها أو الأشجار التى ما بين الصخور .

أما أقرب جزء من هذه التلال التى تنتمى إليها هذه الكتل أساسًا فإنها تبعد ميلين تقريبًا .

وبعد أن ارتوت الحيوانات وشربت تحركنا ثانية، وبعد ثمانية عشر ميلاً وسط هذه المناطق الخضراء كثيفة الأشجار وصلنا إلى مجرى آخر بعد غروب الشمس بالقرب من بعض التلال المنخفضة التى تسمى ماكرى (Makkeray) حيث كان علينا أن نتوقف ساعات قليلة للراحة ثم نسير ثانية لكى نبدأ الهجوم على الفلاتا الذين يقال إنهم على بُعد ستة عشر ميلاً فقط وذلك مع شمس الصباح .

وفى هذه الليلة كان عشاؤنا هو أيضًا إفطارنا ويتكون من قطعة من القمح الممزوج بالماء وهو الطعام الوحيد الذى رأيناه منذ أن غادرنا مورا(Mora) ، ولا يوجد شىء يشبه استعدادات هؤلاء المحاربين رغم أنه لا يوجد أفضل مما قدموه من دليل فى الصباح حيث ارتدى الرؤساء البدل المرصعة بالحديد ووقفوا جميعًا مع صوت الطبول والمطارق الذى يسمع من حين لآخر بالليل وهو مايشغل الجزء الأكبر من الأتباع .

وفى حوالى منتصف الليل أعطيت إشارة التقدم وكان القمر فى الربع الثالث قد أعطى ضوءًا صافيًا وجميلاً بينما تحركنا بهدوء وبشكل منتظم، وكانت قوة سلطان

ماندارا تسير فى أعمدة متوازية مع قوتنا وعلى الناحية اليمنى، وعند الفجر توقف كل الجيش للصلاة وقد علمتنى عقيدتى أيضًا صلاة الصباح مثل أى مسلم لأنها كانت مهملة فى الغالب .

وعندما بزغ نهار **الثامن والعشرين من أبريل** ظهر منظر جميل حقًا، حيث كان سلطان ماندارا بالقرب من مجموعتنا يمتطى حصانًا جميلاً لونه أبيض حوله علامات حمراء عديدة وكبيرة ويتبعه ستة من أفضل أقزامه وثلاثون من أبنائه وكلهم يرتدى أحسن الثياب وحول كل واحد منهم ما بين خمسة أو ستة من الزنوج وكان السلطان محاطًا باثنى عشر زنجيًا، أما جماعة باركا جانا فكانت ترتدى السراويل الحمراء فوق المعطف الحديدى وكان منظر الجميع عظيمًا ومؤثرًا. واتخذت مكانى على يمينه وفى منطقة تدعى دوجر (Duggur) دخلنا غابة كثيفة ونحن نسير فى طابورين سوف نجد العدو فى نهايتهما .

وخلال الجزء الأخير من الليل وبينما كنت أركب فى المقدمة مع مارامى (Maramy) الرجل الزنجى من أتباع الشيخ والذى رافقنى من كوكا والذى ارتبط بى بشكل كبير عندما اقتربنا من الخطر حولنا قام بصيد بعض أنواع من الحيوانات من فصيلة النمور التى كانت تجرى بسرعة أمامنا وهى تلف ذيلها الطويل فى الهواء لكى تمنع الاقتراب منها، ومع ذلك فقد تابعنا واحدة من نوع أكبر والتى كما أكد مارامى بأنه مسرور عندما شاهد دم زنجى ووجد بقاياه فى الغابة وأنه يسهل قتله، وركبت إلى المكان الذى زرع فيه أحد رجال الشوا أول حربة والتى نفذت من الرقبة فوق الكتف قليلاً ووصلت بين أرجل الحيوان لكنه كان يدور ويلتوى وكسر الرمح، وقد أسرع رجل آخر من الشوا واقترب مسافة ذراعين وألقى بحربة أخرى من خلال خاسرته، وكان الحيوان المتوحش على وشك القفز على من يتتبعه عندما ضربه العربى على رأسه بكرة أرقدته قتيلاً فى الحال .

وكان هذا الحيوان من ذكور الأسود ذات الحجم الضخم حيث يصل طوله من الذيل للأنف ثمانية أقدام وبوصتين وكان الجلد أصفر اللون وبه نقط جميلة على الجزء الأعلى من الجسم بينما فى الأسفل عند الحلق كانت النقط طويلة يتخللها اللون الأبيض ، وتتواجد هذه الحيوانات بأعداد كبيرة فى الغابات التى توجد على حدود ماندارا ،

وهناك أيضاً النمور التى شاهدت جلودها لكنها ليست بأعداد كبيرة ، أما الأسود فهى كعادتها قاسية لا تهاجم أى شيء يظهر مقاومة لكنها معروفة بمشاهدة طفل لعدة ساعات بينما يكون تحت حماية الأكواخ أحد الناس إنها غالبا تقفز على شخص سواء أكان ذكـراً أو أنثى عندما يحمل خنجراً ولكن دائماً من الخلـف ، أما لحم الطـفـل أو الماعز الصغير فـإنه يلتهمه لكن إذا سقط حيوان كبير فريسة له فإنه يمتص دمه فقط .

وتوجد سلسلة من التلال الصغيرة حديثة التكوين من الجرانيت التى تشكل جزءاً من جبال القمر والتى تقترب من الغابة الواسعة التى مررنا بها مع وجود العديد من المجارى الجافة التى تجعل السير مملاً وصعباً بل ومرهقاً ، وعندما خرجنا من الغابة وجدنا مدينة كبيرة تابعة للفلاشا تسمى دركلة (Dirkulla) وتجمع العرب أمامها ويرأسهم بوكالوم ويحيط بهم من كل جانب عدد كبير من الفرسان ، وتحرك الجميع يصيحون صيحة الحرب المؤثرة وأعتقد أننى لاحظت ابتسامة تتناقل بين باركاجانا ورؤسائه على حساب بوكالوم ، وبسرعة تم حرق مدينة دركلة (Dirkulla) وعدد من المدن الصغيرة بجوارها ولم يكن موجودا بها إلا بعض الأطفال والمسنين العاجزين عن الهرب والذين تعرضوا للموت دون رحمة أو تم إلقاؤهم فى اللهيب .

ووصلنا إلى مدينة ثالثة ، وهى تقع فى مكان يمكن الدفاع عنه ضد الهجمات عشر مرات زيادة عن المحاصرين لها ، وتسمى هذه المدينة "موسيفا" (Musfeia) وهى مبنية على أرض مرتفعة ما بين تلين منخفضين عند قاعدة تلال أخرى وتشكل جزءاً من كتلة جبال ماندارا ، وهو وادٍ جاف يمتد على المقدمة .

وفيما وراء الوادى يوجد مستنقع ، وما بين هذا المستنقع والغابة يوجد طريق يعبره أخدود عميق لا يمكن للفرسان أن تعبره إلا اثنين أو ثلاثة فى كل مرة ، وكان الفلاشا يحملون سياجا قوية من أوتاد خشبية مدببة تماماً ومربوطة بخيوط من الجلد الخام وارتفاعها ستة أقدام ، ويمتد من تل لآخر وخلف هذه الأوتاد وضع الفلاشا رجال الحراب على أرض مرتفعة وخلفهم الوادى كما أن كل الخيول فى حماية التلال والمدينة ، وكان هذا موقع حصين ومع ذلك فإن العرب تحركوا بشجاعة فائقة دون أى دعم أو مساندة من بورنو أو قوات ماندارا ، ورغم وابل السهام المسمم بعضها

والتى تسقط عليهم من خلف سياج الأوتاد فإن بوكالوم ومعه حفنة من العرب حملوا عليهم فى نصف ساعة واندفعوا نحوهم وطردوا الفلاشا إلى جوانب التلال .

وكانت النساء فى كل مكان تزود المدافعين بأسهم جديدة ويواصلون ضرب المتبقين لهم كما كانت النساء تساعد بإلقاء كتل صخور متدحرجة إلى أسفل والتى أصابت البعض بجروح .

أما باركاجانا ومعه حوالى مئة من رجال الحراب من بورنو فقد ساندوا بوكالوم ، وأطبقوا على حوالى خمسين رجلاً من التعساء الذين تركوا جرحى بالقرب من الأسوار .

وركبت إلى جواره وهو يشق طريقه داخل المدينة وحدثت مناوشات يائسة بين رجال باركاجانا ومجموعة من الفلاشا وكان هؤلاء المحاربون يصوبون الحراب بكل براعة ولثلاث مرات شاهدت الرجل الملقى على الأرض والذى نزل من على حصانه يهدف إطلاق النار على المدينة ، وهناك الآخرون الذين يتدفقون للغرض نفسه ، ويضحون بحياتهم من جانب الفلاشا أما باركاجانا الذى كان ذراعه ضخماً فقد ألقى بمائتى حربة وكما يقول الجميع وصل بعضها إلى حوالى ثلاثين أو خمس وثلاثين ياردة ووصلت إحداها إلى رئيس الفلاشا الذى استطاع بيده إسقاط أربعة رجال على الأرض .

لو أن قوات ماندارا أو الشيخ قد تحركت بجرأة رغم الدفاع الذى أبداه هؤلاء الناس ورغم التعزيزات التى ظهرت من الجنوب الغربى فإنه كان باستطاعتهم السيطرة على المدينة من المرتفعات التى تطل عليها والتى كان العرب يطردون الفلاشا منها بسبب الرعب الذى تثيره البنادق ، ولكن بدلاً من ذلك ظلوا فى الجانب الآخر من الوادى بعيداً عن مرمى السهام ، وعندما شاهد الفلاشا تقهقرهم قاموا بدورهم بالهجوم وسقطت السهام كثيفة لدرجة لا تجد من يصدها وتراجع العرب والآن بدأ ظهور فرسان الفلاشا ولولا المجموعة الصغيرة حول باركاجانا وبوكالوم ومعهم بعض العرب الخيالة والذين أوقفوا تقدمهم لما كان أى واحد منا قد عاش لليوم التالى فلقد أصيب ثلاثة خيول من باركاجانا ، ونفق اثنان فى الحال حيث كانت الأسهم مسممة ،

كما تلقى حصان بوكالوم وهو نفسه سهمًا أصابهما بجرح مميت بالطريقة نفسها ، وقد جرح حصانى بشكل سيئ فى رقبته فوق الكتف مباشرة وبالقرب من الرجل ، كما أصابنى سهم فى وجهى عند مروره ونزف الدم فقط وأصبت بجرح فى عظام الأنف ، وعانى العرب كثيرًا وأصيبَ كل واحد منهم بجرح أو اثنين وسقط أحدهم بجوارى وفى رأسه خمس طعنات كما قتل اثنان من عبيد بوكالوم بجواره .

وما أن شاهدت قوات ماندرا وبورنو هزيمة العرب حتى هرب العرب بشكل مربك دون أن يتعرضوا لضربات سهام العدو وفى حالة من الفوضى الشديدة ، وقاد سلطان ماندارا الطريق حيث كان مستعدا للاستفادة من مزايا السلب عندما ينجح العرب لكن كان مصممًا على مغادرة أرض المعركة حالما شعر أن الحظ ليس فى صالحه .

والآن ولأول مرة عندما شاهدت باركلجانا يركب حصانا جديداً وندمت على حماقتى فى أن أعرض نفسى دون أن أكون مستعداً تمامًا لهذه الحوادث .

وإذا كان أى من خيولى قد أصيب بسهام مسممة فإننى أشعر أنه لا يوجد ما ينقذها ، ومع ذلك فليس هناك وقت للتفكير حيث إننا فى الحال تحولنا إلى كتلة طائرة وفى حالة من الاضطراب داخل هذه الغابة وبعد عدة ساعات عدنا إلى نظامنا ولكن بمشاعر مختلفة ، واقتربتُ قليلاً من باركاجانا وسط الفوضى التى حدثت فى مرورنا بالأخدود الذى تركناه خلفنا وحيث أصيب أكثر من مئة رجل من سكان بورنو بسهام الفلاشا ، كما تتبع أحد أقزام ماندارا بسرعة فائقة لكن القزم كان يسرع ويلتفت ناحية الكتف الأيسر ووجهه يعبر عن الخزى .

وعندما كنا نسمع صيحات فرسان الفلاشا خلفنا كنا نسارع الخطوات ومع ذلك فإن الحربة كانت تضعف من جهد الحيوان تماما لأن السهم الذى وجدته بعد ذلك كان قد وصل إلى عظام الكتف وعندما مر على الأرض الخشنة سقط وانكسر .

وقبل أن أقف على أرجلى كان الفلاشا قد وصلوا إلىّ ، ومع ذلك فقد أمسكت باللجام وأمسكت المسدس من الزناد ، وأظهرت لاثنين من هؤلاء المتوحشين الشرسين الذين كانوا يضغطون علىّ بحرابهم ، وفى الحال ذهبا بعيداً ولكن جاء آخر أكثر جرأة عندما كنت أحاول ركوب الحصان وألقى محتويات المسدس فى كتفه الأيسر ، وتمكنت

من وضع قدمى فى السرج وركبت مرة ثانية وواصلت تقهقرى ، ومع ذلك فإننى لم أكن قد تقدمت عدة مئات من الياردات عندما سقط حصانى مرة ثانية بكل عنف حتى إنه قذفنى بجانب شجرة خلفى ونهض بسرعة وهرب وتركنى راجلاً وبدون سلاح .

وهنا ذهب القزم وأتباعه الأربعة بعد مقاومة ضعيفة جدا وسقط على بعد ياردات منى ، وكانت صيحاتهم مرعبة ، وكانت هذه المشاعر تتجدد فى ذاكرتى ، وكانت آمالى فى الحياة ضعيفة جداً .

وكنت محاطًا تمامًا فى الحال ولم أستطع المقاومة بأى وسيلة لأننى لم أكن مسلحا ، وعندما حاولت إنقاذ القميص والبنطلون سقطت على الأرض ، وقام الذين يطاردوننى بإلقاء عدة طعنات نحوى من حرابهم بطريقة أصابت يداى بعنف فى منطقتين مع أجزاء بسيطة من جسمى تقريبًا تحت ضلوعى فى الجانب الأيمن .

ولم أر شيئًا سوى الموت القاسى الذى رأيته يصيب القليلين الذين وقعوا فى قبضة هؤلاء الذين استولوا علىّ وكانوا يمتنعون عن قتلى فى بداية الأمر عندما كانوا يطاردوننى خوفا على إصابة ملابسى القيمة التى تعد بالنسبة لهم غنائم ثرية وغالية لكنها كانت قد انتهت تماما .

لقد كان قميصى ممزقا كلية من الظهر وأصبحت عاريًا تمامًا ، وعندما بدأ اللصوص الخلاف والصراع حول الأسلوب جاء فى ذهنى فكرة الهروب مثل البرق وبدون أى لحظة تردد أو تفكير زحفت تحت بطن الحصان بالقرب منى وأسرعت بقدر السرعة التى تتحملها أرجلى بالهرب إلى ذلك الجزء الكثيف من الغابة ، وتتبعنى اثنان من الفلاشا وهرولت ناحية الشرق وعرفت أن مجموعتنا المتفرقة ربما تكون فى هذه الناحية وكنت لازلت أخشى الأصدقاء أكثر من الأعداء ، ووصل المطاردون لى لأن الأشواك فى الغابة لم تعرقل طريق المرور فقط بل مزقت لحمى بشكل سيئ وكانت البهجة عندما شاهدت مجرى جبلى ينساب وحيدا فى قاع الوادى وهو أمر لم أكن أتخيله ، وكانت قوتى قد انهارت تمامًا وأمسكت بفروع صغيرة منشقة من جذع شجرة كبيرة تتدلى من هذا الأخدود حتى ألقى بنفسى فى الماء لأن الجوانب كانت خطيرة وعندما كان الفرع عاجزًا عن حمل جسمى وجدت أسوأ الأفاعى الموجودة فى هذه المناطق قد

نهضت من ثنايا جسمها وكانت على وشك ضربى ، وأصابتنى حالة من الذعر وعجزت عن التفكير تمامًا لحظة من الزمن حيث سقط الفرع من يدى وسقطت رأسًا على عقب فى الماء ، ومع ذلك فإن هذه الصدمة أيقظتنى وجددت نشاطى وبثلاث ضربات من ذراعى عبرت إلى الجانب الآخر من الشاطئ المقابل ولكن بكل صعوبة زحفت إلى أعلى وبعدها ولأول مرة وجدت نفسى آمنًا وبعيداً عن المطاردين لى .

وما أن هنأت نفسى على هروبى من هذا الموقف السيئ وبدون أى خرقة أتغطى بها ، وكل هذا صار كالبرق فى خيالى ، لقد جمعت أفكارى تمامًا رغم أننى كنت شاعراً بكل الأخطار التى تعرضتُ لها ، وبدأت بالفعل أفكر وأخطط لبقية الليلة على قمة إحدى الأشجار حتى أهرب من الأسود التى شاهدتها بكثرة فى هذه الغابات عندما جاءت فكرة الثعابين العديدة والتى أزعجتنى وأثارت عندى رعشة من اليأس .

والآن وجدت الفرسان من خلال الأشجار لكنهم لا يزالون بعيدين ناحية الشرق وصممت على اللحاق بهم إذا أمكن سواء أكانوا من الأصدقاء أو من الأعداء ، وكان الشعور بالفرح عندما تعرفت على باركاجانا وبوكالوم ومعهم ستة من العرب رغم أنهم تعرضوا بشدة لمجموعة من الفلاشا خارج الوصف .

وكانت بنادق ومسدسات شيوخ العرب قد منعت الفلاشا عنهم ، وساعدت إلى حد ما فى تقهقر المشاة ، واستجمعت كل قواى لكن الفوضى والضوضاء التى سادت المنطقة نتيجة صياح الذين كانوا يتساقطون تحت رماح الفلاشا ، وصرخات تجمع العرب والأعداء يتابعونهم - كل هذا أحبط أى محاولة تجعل صوتى مسموعا لولا أن مارامى الزنجى التابع للشيخ رآنى وعرفنى على بعد مسافة .

وإننى أدين لهذا الرجل بهروبى للمرة الثانية حيث ركب حتى وصل إلىّ وساعدنى فى الركوب خلفه بينما تنطلق السهام فوق رءوسنا ، وهرولنا بسرعة إلى المؤخرة بأسرع ما يمكن حيث أن حصانه كان جريحًا .

وبعد أن انطلقنا على بعد ميل أو ميلين كنا نشعر بالبرد قليلاً نتيجة أن كل امتعتنا قد تركناها للأعداء ، ووصل بوكالوم إلى مكان تواجدى وطلب من أحد العرب أن يغطينى بالسروال وكان هذا أحسن شىء مريح لى لأن الشمس الحارقة بدأت تلفح رقبتى وظهرى وسببت لى آلاما شديدة .

وبعد ذلك بقليل كانت آثار الجرح المسمم فى قدمه قد جعلت صديقنا الممتاز يلفظ أنفاسه الأخيرة وصاح مارامى " انظر انظر لقد مات بوكالوم " ، لفت رأسى بقدر ما أستطيع ورأيت أنه قد سقط من على الحصان فى أذرع العربى المفضل ولم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك ، وقالوا إنه قد أغمى عليه حيث لا توجد مياه لإنعاشه ، وبعد ساعة عندما وصلنا إلى ماكيرى Makkeray كان قد وصل إلى مرحلة إعادة الوعى والصحة .

وفى الوقت الذى سقط فيه بوكالوم طلب باركاجانا من أحد العبيد أن يحضر حصاناً لى من التى نزل عنها وكان الثالث ضمن الجرحى تحته أثناء اليوم وكان جرحه فى الصدر ، وصاح مارامى " سيدى الرئيس لا تسمح له بالركوب ، سوف يموت " وقد قررت البقاء مع مارامى وكان اثنان من العرب وهما يلهثان من التعب وأمسكا باللجام وركبا وشقا طريقهما للرجوع ولكن فى أقل من نصف ساعة سقط ولم ينهض ثانية ، وقتل الاثنان من العرب قبل أن يستردا عافيتهما ، ولو لم نصل إلى الماء كما حدث فإننى لا أعتقد أنه كان ممكنا تحمل العطش الذى أعانى منه نتيجة استهلاك كل الماء وحاولت عدة مرات أن أتحدث إلى مارامى لكى يتوقف حيث أن الأرض غير مستوية وبها انكسارات لكن كان ذلك مستحيلاً وكان الألم يعتصر المعدة والحلق ولا أثر لأى شيء من المحاولة .

وعندما وصلنا إلى مجرى الماء وجدنا الأفراس والدم ينزف من أحشائها قد اندفعت ناحية المياه الضحلة وتركت نفسى أنزل خلف مارامى ، وركعت بينهم وشعرت بالحياة من جديد بهذه الجرعات البسيطة من الماء والتى ابتلعتها ، أما ما دار بعد ذلك فلم أتذكر عنه شيئا ، وأخبرنى مارامى بعد ذلك أننى كنت أترنح عبر المجرى المائى الذى لم ترتفع فيه المياه عن الفخذ وسقطت عند جذع شجرة على الجانب الآخر ، وبعد ربع ساعة توقفنا هنا من أجل المجموعة المنتشرة دون نظام ، ولكى أربط جسد المسكين بوكالوم على ظهر الحصان ، وفى نهاية هذه المدة أيقظنى مارامى من نوم عميق ، ووجدت أن صحتى قويت ولكن ليس الحال للحصان الذى صار متصلبا ولم يستطع التحرك .

وبعد ذلك علمت أنه قد دار حديث حولى بينما كنت نائما والذى زاد من شكرى وامتنانى لمارامى ، لقد نقل إلى باركاجانا حالة حصانى واستحالة حملى عليه ،

وعندئذ قال الرئيس الذى كان منزعجًا من خسائره وهزيمته وأيضًا لأننى رفضت حصانه الذى انتهى بوفاته ، وأجبت " وعندئذ دعه خلفك ، بحق أنبياء المؤمنين قد لفظوا أنفاسهم، ما الذى تراه شاذا فى موت المسيحى" ، وأجاب المعلم شاذلى " لا الله قد حفظه دعنا لا نبحث عنه" ، والتفت مارامى إلى الشجرة وقال " إن قلبه أخبره ماذا يفعل" . وأيقظنى وساعدنى على الركوب وتحركنا مثلما كان من قبل ولكن بخطوات مترنحة وبأقل سرعة وكان تأثير السم على الأفراس غير عادى وبعد أن شربت سقطت ونفقت فى الحال ، واندفع الدم من أنوفها وأفواهها وآذانها ، وفقدنا أكثر من ثلاثين حصانًا فى هذه المنطقة بسبب تأثير السم .

وبهذه الطريقة واصلنا تراجعنا وبعد منتصف الليل توقفنا فى مناطق نفوذ سلطان ماندارا ، وبعد أن ركبنا أكثر من خمسة وأربعين ميلا بهذه الحالة السيئة على ظهر حصان عارٍ كانت النتائج خيالية وكنت فى حالة سيئة طول الليل ، ورغم آلام الجروح الجديدة والتى زادت بسبب الغطاء الصوفى الذى ألقاه العربى على جسدى حتى حصلت على قميص أخذته من رجل يلبس قميصين لكنه كان ممزقًا أكثر من ثمانية أو عشرة أيام على الأقل ، ووعدته بأن أعطيه قميصاً جديداً فى كوكا .

أما باركاجانا فلم يكن يمتلك أى خيام سوى تلك التى تركها خلفه مع نسائه فى مورا ، وعند تقدمنا لم يستطع أن يقدم لى أى مأوى فضلاً عن أنه كان مريضًا جداً لدرجة ظل مختفيًا طوال اليوم ، ولم أستطع أن ألتفت من جانب لآخر ولكن بقيت ثابتًا ، ومن حين لآخر كان صديقى مارامى يزودنى بشراب مصنوع من القمح المجروش ، ونمت تحت شجرة تقريبًا طوال الليل والنهار اليوم **التاسع والعشرين** ، وعند المساء كنت مضطربًا ومريضًا لكن عندى دليل طيب عن طيبة قلب البرونويين .

أما الماى ميجامى السلطان المخلوع من الدولة فى الجنوب الغربى لأنجورنو وقد صار الآن تابعًا للشيخ فقد أخذنى من اليد عندما زحفت خارج عشى لعدة دقائق وبكثير من عبارات الأسى والأسف قادنى إلى خيمة من الجلد وجلس بسرعة وخلع سرواله وأصر على أن ألبسه .

وحقا لا يوجد عمل يفوق ذلك ولقد تأثرت بشكل متزايد لهذا الصديق غير المتوقع لأننى لم أرى ولم أتكلم ثلاث كلمات معه ولم ينجذب هو كثيراً عندما رفضت أن أقبل

هديته ذرفت عيونه بالدموع الكثيرة ، وفكرت عن الحقيقة حيث وجدت أنه قدم لى ما عنده فقط واستدعى العبد الذى طلب منه أن يخلع كل ملابسه الضرورية حسب أفكارنا وأن ألبسها ، وأصر ثانية على أن آخذ تلك التى قدمها أولاً وقبلت هذا الطلب وشكرته من أعماق قلبى ، وصار ميجامى من أعز أصدقائى من تلك اللحظة حتى غادرت مناطق نفوذ الشيخ .

وجدنا أن خمسة وأربعين من العرب قد قتلوا وتقريبا جرح الجميع كما فقدوا الجمال وكل ما يمتلكونه كما أن بعضهم لم يكن قادرا على مواصلة التراجع لكن اختفوا فى جماعات ثلاثية أو رباعية أثناء الليل كما أظهروا مقاومة ، وقد استطاعوا طرد الفلاشا بعيداً ، وكانت بعض الجروح خطيرة ومات العديد أثناء نهار وليل يوم ٢٩ ، وصارت أجسادهم مثل جثة بوكالوم قد تورمت وأسود لونها كما أن الدم الذى خرج من الأنف والفم أصبح مسمماً حسب إعلان شعب بورنو ، أما العرب الباقون على قيد الحياة فقد فقدوا جميعًا تفاخرهم وكبرياءهم ، وطلبوا من باركاجانا بكل توسل أن يزودهم ببعض القمح الذى يحفظهم من الموت جوعًا ، كما أن سلطان ماندارا قد تصرف بقسوة ورفض كل وسائل إمدادهم ، وأبقى سرج حصان بوكالوم والملابس التى مات فيها وحوافر الخيل ، كما أنه بدأ الاستعداد للدفاع عن نفسه ضد الفلاشا الذين خشى بأسهم ، وفى **صباح يوم الثلاثين من أبريل** غادرنا مورا راجين من كل قلوبنا النجاح لهم إذا أعادوا الكرة .

وقد وضح شغف بوكالوم ومعاناته شخصيًا وإغراؤه بمهاجمة الفلاشا وكأنه فى حالة التغلب عليهم سوف يضم كل العبيد من النساء والرجال إلا أن الفلاشا أنفسهم كانوا مسلمين ولم يكن من الممكن أخذهم عبيداً .

ومع ذلك فإنه كان قد انخدع من وعود وطن وثنى يسعى للسلب فى حالة نجاحه ضد هذه الشعوب القوية مثل الأعداء الأقوياء من رجال الشيخ وسلطان ماندارا .

عاد حصانى الذى كان الشوا قد استولوا عليه فى ليلة الحرب لكنه كان فى حاله سيئة يصعب معها ركوبه ، وأحضر باركاجانا حصانًا آخر كما سرقت مسدساتى لكن من حسن الحظ أن السرج واللجام رغم كسرهما كانا موجودين . وهكذا انتهت رحلتنا الفاشلة ، إنها كانت رغم هذا رحلة ظلم واضطهاد من أساسها ، ومن يندم على فشلها ؟

وعدنا من رحلتنا ونحن ندرس الحالة السيئة التى كنا فيها . وفى اليوم السادس بعد الرحيل من مورا استطعنا الوصول إلى كوكا وهى على مسافة مئة وثمانين ميلاً ، وظل العرب المجروحون موجودين؛ لأنهم لم يستطيعوا متابعتنا ولم يصلوا إلا بعد أربعة أيام ، وعانيت كثيراً سواء بدنيًا أو عقليًا لكن لم أشكُ ، وحقًا كان كل الألم بسبب سوء التوقيت حيث تحمل القليل وأنا منهم ، ولقد فقد العبد الأسود بغله وطعامه وكل شىء ، وبالالتزام بشدة بالأوامر التى أعطيها له وهى ألا يطلق النار على الفلاشا فإنه أمكن الهروب بحياته ، ونظراً لأنه صار أعرج فإنه لم يستطع أن يقدم لى أى خدمة ، ووصل بعد عدة ساعات من توقفنا فى أرض الاستراحة .

وأثناء التوقف فى منتصف النهار كنت عادة أزحف تحت خيمة الماى ميجامى ولكن بالليل كنت أرقد على الأرض بالقرب من باركاجانا لكى يحصل حصانى على بعض من القمح ، وكنت أروح فى نوم عميق بالليل بمجرد أن أحتسى مشروبات مارامى الذى يزودنى بكيس من القمح المهروس الذى كان قد أحضره من مورا ، وعند منتصف الليل كان أحد عبيد الرئيس ويدعى دنهاماه يوقظنى لكى أتناول بعض اللحم والفطائر الممزوجة بعشب أخضر يسمى الملوخية باللغة العربية لكن الجوع كان شعوراً غالبًا وأكلت الأشياء السابقة وكنت شاكراً . وفى الحقيقة كانت هذه حقًا شفقة كبرى لأنه بالإضافة إلى نفسى والرئيس فإنه لا يوجد أحد من بقايا جيشنا قد تذوق شيئًا سوى القمح المطحون طوال الأيام الستة منذ سيْرنا ، وفى ليل **الرابع من مايو** وصلنا إلى أنجورنو .

ومع ذلك فإن العطف العظيم للشيخ كان بمثابة المواساة لى بعد كل هذه المعاناة ، وقال فى خطاب إلى باركاجانا " لقد كان حزينا لأى شىء وقع علينا وأن إنقاذنا هو من عند الله ودليل على حماية الله ورعايته وأن إنقاذ حياتى كان لأغراض حسنة" ، وأرسل لى بعض الصوف الذى أحضره من أكواخنا فى كوكا ، وفى صباح اليوم التالى وصلنا إلى العاصمة .

وقدمت لباركاجانا مجموعة من المسدسات الفرنسية ، وقطعة من القماش تكفى لتفصيل ثوب والتى تلقاها بكل سرور .

وأرسل لى الشيخ حصانًا بدلاً من حصانى المجروح والذى تركته فى "ميرتى" مع أمل بسيط بشفائه ، أما جروحى التى كانت بسيطة فقد تحسنت بشكل مدهش وسريع نتيجة الوجبات البسيطة التى كانت فقط للبقاء على الحياة ، ولم أكن فى حالة سيئة مثلما كنت أتوقع ، ومع ذلك فإن خسائرى كانت شديدة ، حقيبتى بكل ملابسى الصوفية والغذاء والبغل والبوصلة وحقيبة الرسم مع منظر طبيعى عن التلال ، كل هذا فقدناه رغم أننى أعددت صورة أخرى فى صباح يوم مغادرة مورا .

ومع هذا فإن هذه الأحداث كانت نتيجة ارتياد دول مثل هذه . وكانت الأماكن التى زرتها مليئة بالإثارة ولم تكن مشاهدتها ممكنة سوى القيام بحملة عسكرية وبدون مخاطرة أعظم ، أما مناطق سيطرة الشيخ نتيجة كونه رجلاً مثقفًا بشكل غير عادى لأى مواطن فى أواسط أفريقيا ولكن عندما ننظر حولنا نرى السلاطين المعزولين مثل المفلسين فى إنجلترا حيث نجد أن اليد القوية فى هذا الزمان قد غيرت مصير الملوك والممالك ، ولم يتم اكتشاف أى شىء بعد ذلك دون المخاطر الكبيرة بالحياة والممتلكات .

لقد ألقى الشيخ كل اللوم للهزيمة على قوات ماندارا وأكد لى أنه يجب أن أشهد كيف يحارب شعبه عندما يكون معهم فى حملة شنها ضد "مونجا" وهى منطقة ناحية الغرب ، وأخبرته أننى مستعد لأن أصحبه ، ويبدو أن هذا التأكيد قد أعطاه ارتياحًا خاصًا .

أما عن سلسلة ماندارا والتلال المحيطة بها رغم أنها كانت ممتعة فإننى ندمت على عدم قدرتى على إعطاء تقرير أكثر تفصيلاً ، ومع ذلك فإن مثل هذه الملاحظات البسيطة كما أثارتنى عند زيارتها سوف أضعها أمام القارئ .

وفى مناسبات كهذه فإن الرحالة يلوم نفسه للحاجة إلى المعرفة العلمية الزائدة ، وعلى هذا يجب أن أطلب من هؤلاء الذين يشاهدون هذه الملاحظات أن ينظروا إليها فى ضوء ما قدم فقط باعتبارها محاولات متواضعة كنقل معلومات بأحسن ما استطعت القيام به .

يزداد الارتفاع تدريجيا كلما تقدمنا نحو خط الاستواء وعندما اقتربنا من ديلو (Delow) تبدأ أقصى نقطة بسلسلة ماندارا والمغطاة بطبقة من الرمل اللامع

والتى تتكون أساسًا من الجرانيت الذى يشكل تربة خصبة ، وتمتد التلال فى حافات لا نهاية لها نحو الشرق والجنوب ثم الجنوب والغرب بينما ناحية الجنوب تظهر عدة كتل أو أنظمة من التلال إذا أردت أن أعبر عن نفسى ، وهى تمتد بشكل جذاب وفى كل اتجاه حسب ما يمكن تخيله ، أما الغربية من العين فإنها لا تزيد عن ٢٥٠٠ قدم من الارتفاع لكن القمم العالية البعيدة فإنها عدة آلاف من الأقدام أعلى من الأخرى ، وهى تتكون من كتلة ضخمة من الجرانيت سواء القريبة من الأرض أو البعيدة عنها ممثلة الأوجه الأكثر كثافة وغلظة فى جوانبها ، أما الأجزاء المتصدعة فيبدو أنها مليئة بتربة صفراء من الكوارتز ، تنمو فيها مجموعة من النباتات والأشجار ذات أحجام معقولة ، وعلى كل الجبال التى اقتربت منها توجد مجموعة من الأكواخ التى تراها فى عدة أماكن نحو الوسط وأحيانًا توجد على القمة .

وعند قاعدة هذه الجبال وأيضًا عند ارتفاع معين من الجوانب توجد كتل ضخمة مما يبدو أنها تكوينات من الصخور البدائية التى تشكلت وتحللت واتحدت من جديد بعينات من الأسمنت الطبيعى .

وعلى بعد مسافة من قاعدة هذه التلال صعدت منها إلى وادى مورا توجد مجموعة من صخور الكوارتز ، ذات التشكيلة العظيمة الألوان ، وهى بقايا آثار من الصخور البللورية ، وعلى ارتفاع مئة ياردة من الينبوع الذى ذكرته من قبل توجد أصداف عديدة تضم حشرات متآكلة بينما تجد الأخرى ممزوجة بقطع من الجرانيت والكوارتز والرمل والصلصال، أما الجزء الأكبر فكانت من نوع المحار البحرى وقد جمعتُ عينات عديدة من هذه التشكيلة لكن فُقدت جميعها وسط فوضى المعركة ، وعند العودة من الجيش لم أستطع فعل شىء سوى إحضار قليل من العينات من أقصى الجزء الشمالى من الجبال وحتى نصف هذه العينات فقدها الزنجى .

وعلى امتداد هذه السلسلة أو بمعنى آخر هذه المجموعة من الجبال لا أستطيع أن أكوِّن أى فكرة سوى المعلومات عن شعب ماندارا ، وقابلت رجلاً حاول إقناعى بأنه ابن "لهورنمان" من أمَة رغم أن مظهره قد ولد منذ عشر سنوات قبل أن يدخل الرحالة التعس هذا الوطن ، وقال إنه كان يقضى عشرين يومًا جنوب ماندارا ودولة تسمى أدماوا (Admawa) والتى وصفها بأنها تقع وسط سهل محاط بالجبال التى يبلغ

ارتفاعها عشر مرات من أى سهـل شاهدناه، وأنــه قــد ذهب أولاً إلى مونا (Mona) أو مونانا (Monana) التى تبعد خمسة أيام ثم ذهب إلى بوجو (Bogo) التى تبعد سبعة أيام أخرى وهنا أعطاه السلطان أربعة عبيد مقابل ثوب سودانى ، وبعد ثمانية أيام من السفر من الجزء الأخير من هذا الوطن وصل إلى أدماوا .

ويقول إن هذه الشعوب (أى الوثنيين) تسكن على التلال لأن أدماوا نفسها يحتلها الفلاتا ويأكلون لحم الخيول والبغال والحمير أو أى حيوان متوحش يقتلونه ، ولا يكتسى سوى السلاطين وأطفالهم، أما البقية فى الدولة فهم يذهبون عراة، وأحيانًا يلبس الرجال جلداً حول أعضائهم التناسلية أما النساء فلا ترتدين شيئًا، وتحدث هذا الرجل الذى يسمى قائد موسى بن يوسف (اسم هورنمان) عن عدة بحيرات واسعة رآها خلال هذه الرحلة، كما وصف أيضًا بكل وضوح مياها صافية لنهر يجرى بين حافتين عاليتين من الجبال والذى عبره قبل أن تصل إلى أدماوا ، وأعلن أن هذا النهر يجرى من الغرب وهو الشىء نفسه مثل الكونا (Quana) فى نيــف (Nyffe) وكورا (Kora) فى راكا (Raka) لكنه ليس النهر نفسه فى كانو (Kano) الذى لا علاقة له بنهر شارى الذى يجرى ويصب فى بحيرة تشاد، لكن الجزء الأساسى من المياه يجرى ناحية الجنوب من باجرمى والذى يسمى الداجو (D'Ago) ويتجه شرقًا نحو النيل .

لقد كان قائد موسى رجلاً ذكيًا زار نيف وراكا ووادای ودارفور وفى هذا المكان الأخير قال إن هذا النهر يمر به، ولقد كان واضحًا فى تقاريره فى بعض النقاط مع معلومات أحد رجال الشوا ويدعى "درسبو راس بن أبو دليل" وعلى هذا كنت الأكثر ميلاً للانتباه لها، وإلى الجنوب من هذا النهر كان معظم السكان من الوثنيين حتى الصحراء الكبرى التى تمر منها القوافل عدة مرات فى السنة ، والتى تحمل الرجال البيض لكنهم ليسوا مسيحيين والذين يحضرون البضائع من البحر العظيم، وبعضهم يصل إلى أدماوا، وقد شاهد بنفسه أقماع السكر البيضاء مثل التى يحملها التجار من طرابلس إلى الشيخ مع بندقيتين وأوانٍ معدنية وبعض القدور، وقد أجمع كل السكان على أن هذه الجبال تمتد جنوبًا لمسيرة شهرين وعند وصفها سماها يوسف "جبال واسعة واسعة - جبال القمر" . ومن الحب الزائد لهذا المشروع الواضح للأجيال القادمة فإننا نأمل يومًا ما أن نتعرف على السمات الحقيقية لهذه الجبال مثل القمم العالية لجبال الأندير.

أما أعلى قمة جنوبية والتى أصفها فهى ما يسمى مندفاى (Mendify) والتى ترتفع فى الهواء بكل جرأة، ويقال إنه لمسافة من موسيفـــا (Mosfeia) رحلة مسافة يومــين أو خمسة وثلاثين ميلاً، وهذه المسافة تشبه قمة الألب الشاهقة الارتفاع .

وشاهدت بالمرآة جبالاً أخرى تمتد من جوانبه تحمل أشــكالاً طبيعية هادئة إذا ما قارناها بالقمم المنحدرة والجــافة التى تطــل عليهـــا، إنها تشبه كثيراً فى مظهرها "Les Aiguilles" كمـا تظهر وأنت تنظر إليـها كـأنك تنظر من مـرآة البحـر ، ويتـواجد الحديد بوفـرة فى كل تلال مـاندارا ومــعـادن أخـرى ، وتضم كل المنازل والأكـواخ فى مـاندارا أبوابًا خـارجية توصل إلى الفناء وهى مصنوعة من قطع من الخشــب مثبتة معًا بالحديد، وهم يصنعون خطاطيف وأعمدة صغيرة ونوعًا من المخـرفة تستـخدم للتخلص من أعشاب القمح وترسل للبيع فى مدن بورنو، أما الحديد الذى يستخدمونه فإنه يأتى من الغرب بالقرب من كاروا (Karowa) ولقد ذهبت إلى منزل أحد الحدادين لكى أرى بعض المعادن فى حالتها الطبيعية، ووجدت أربعة رجال ومعهم شوكة حادة صنعوها من خلال حفرة فى الرمل، وكان المنفـاخ يضم قطعتين من الجلد مع أنبوبة حديدية مثبتة على كل واحدة وكل أنبوبة توضع تحت النار، ويقوم أحد الرجال بنفخ هذه الأنابيب الجلدية المفتوحة من أعلى للسمـاح للهواء بالمرور، وتتكون المطارق من قطعتين من الحديد تزن الواحدة حوالى رطلين وقطعة خشنة من المعدن نفسه تعمل كسندان، وإذا نظرت إلى طريقتـهم تجدهم يعملون بحـرص تام وندمت أننى لم أملك مطرقة إنجليزية أقدمها إليهم، وتوجد كميات كبيرة من الحديد متوفرة كما أنتجتها الطبيعة، ويبدو لى أنها كتل أرضية عليها الصدأ .

أما من ناحية الشكل فإن شعب مـاندارا يختلف عن البورنو أو الكانورى (كما يسمون أنفسهم) والاختلاف فى الكل لصالح الأولين فى الذكر (شعب ماندارا) فالرجال أذكياء وعندهم حيوية مع جبهة مسطحة عالية وعيون واسعة براقة وشعر حريرى مجعد والأنوف معقوفة والملامح أقل استواء عن البورنويين، والنساء مثاليات فى نظراتهن الحسنة ولا أستطيع أن أقول الجمال ومع ذلك فإننى أقول أنهم جميعًا متساوون فى الشكل، وبالتأكيد فإنهم يتميزون بسمات جدية الهنتتوت، وأياديهم وأقدامهم صغيرة ، وحيث إن هذه كلها صفات لها وزنها فى عين التركى فإن عبيد مـاندارا" دائمًا لهم سعر ممين،

وبالتأكيد فإننى لم أر الكثيرين منهم عندما يلعبون الرياضة فى الأحواش البدائية دون كسوة كثيرة مثل أوراق شجرة التين.

والرجل الذى أخذنى إلى أحد التجار المغاربة قادنى داخل المنزل كى أشاهد أحسن العبيد منظراً فى ماندارا، وكان عنده ثلاثة وكلهم تحت سن السادسة عشر إلا أنهن نساء وكن ممشوقات القوام ولم أر مثلهن من قبل فى تكامل البنيان، وتوجد قطعة صغيرة من الصوف الأزرق حول الخصر ومع ذلك لم يعرفن أنهن عرايًا، وكثيراً من هذا الجمال نشهده في كوكا وأنجورنو ، ولم يعرضن أساسًا فى السوق لكنهن يُبعن في أسواق التجار .

أما اليوم قبل رمضان الذى بدأ فى **الثالث عشر من مايو** الحالى كان لى لقاء مع الشيخ الذى ذكر عزمه الرحيل إلى مونجا ، وبعد المحادثة تم الاتفاق على أنه يجب التقدم نحو بورنو القديمة أو برنى (Birnie) ولقد شاهدت هذا الجزء من الدولة، وآثار مدينة جامبارو (Gambarou) ونهر بهذا الاسم ويقال إنه يأتى من السودان وأنه يجب أن يشق مجراه ويتصل به ثانية عند مكان يدعى كابشارى (Kabshary) على النهر نفسه ولكن يسير فى طريق آخر مختلف .

لقد كان كل السكان فى حالة من الاضطراب عند رحيل هذه القافلة، وتقريبًا كل سكان كوكا باستثناء القاضى كانوا يصحبون الشيخ .

ومع ذلك كما سبق عند رحيله صمم أن يرسل تقريراً مع رسول إلى طرابلس عن وفاة بوكالوم وانتهزنا هذه الفرصة لكتابة رسائل إلى إنجلترا، وفى السابع عشر من مايو رحل الرسول ، وفى **الثامن عشر** بدأ الشيخ مسيرته والإقامة المؤقتة فى دورجو (Dowergoo) .

الفصل الرابع

الرحلة إلى موبخا وجاميارو

٢١ مايو :

لقد كنت غاضبًا من مجموعة من الشعوب في الغرب ويسمون مونجا وذلك منذ عودتي من ماندارا في حملة بقيادة الشيخ شخصيًا ولم تعترف هذه الشعوب بسلطة الشيخ إطلاقًا، كما كان جمع الجزية منهم يتم بصعوبة بل وإراقة الدماء، ومع ذلك ألغوا كل القيود وقتلوا مئة وعشرين من جماعات الشوا التابعين للشيخ وأعلنوا أنهم لم يعودوا تحت إمرة الشيخ بعد، لأن سلطان بورنو هو ملكهم، ويرأسهم فقيه له نفوذ قوى كما أنهم بدأوا في مهاجمة وسلب كل المدن التابعة للشيخ والمناطق المجاورة لهم، وأشارت التقارير الصادقة إلى حد ما أنهم سوف يرسلون إلى الميدان ١٢٠٠ من رجال القوس وهم أكثر قوة في بلاد السود .

ولمواجهة هؤلاء جمع الشيخ رجال الحراب من الكانمبو (والذين رافقوه من بلادهم، وساعدوه في تخليص بورنو من أيدى الفلاتا) ووصل عددهم مابين ثمانية وتسعة آلاف محارب، وإلى جانب هؤلاء جمع الشيخ حوالى خمسة آلاف من الشوا ورجال بورنو الذين شكلوا القوة التى أراد الشيخ بها أن يخضع هؤلاء الثوار ، وهناك شكوى أخرى ضد منجواى Mungowy ، وهى أنهم من الكفار ولا يصلون " وأنهم كلاب " ومع ذلك فإن هذا الخطأ عام يوجه التهمة لأى دولة تشن ضدها حرب إسلامية حقيقية لأن هذا يعطيه العذر لاسترقاقهم، وحسب الشريعة الإسلامية إن أى مؤمن يجب ألا يلزم الآخر .

وكان شهر رمضان هو الشهر المفضل عموماً للقيام بمثل هذه الحملات وقد بدأ الشهر منذ (١٣ مايو) وفى اليوم الثامن كان القصد السيطرة على مدينة ييوو (Yeou) مع غيرها من المدن العديدة على ضفاف النهر المسمى بهذا الاسم وذلك بقصد جمع قوات والجزية حيث يطبق القانون الإقطاعى بكل قوة ، والرجل الذى لا يرغب فى الجزية عليه أن يقدم بديلاً أو أكثر بأسلوبه الخاص، وغادر الشيخ مدينة كوكا إلى دورجو Dowergoo وهى بحيرة على بعد مسافة سته أميال، وكانت النساء والخيام وغيرها قد سبقته فى الصباح .

وقد رافقته مع الدكتور أودنى خارج البوابات وبناء على طلبنا ترك عمر جابا Omor Gana أحد عبيده الأساسيين ليكون مرشدنا إلى مدينة بورنو القديمة التى كنا فى أشد الشوق لرؤيتها ومن هناك نتقدم إلى مدينة كابشرى Kabshsry التى تقع فى الغرب من جاميارو أو ييوو وهناك ننتظر وصوله .

٢٢ مايو :

غادرنا كوكا مع خمسة إبل وأربعة من الخدم إلى مدينة برنى وتوقفنا فى منتصف اليوم، وقمنا بالسير مرتين من عشرة إلى أربعة عشر ميلا صباحا ومساء ، وكانت كل المنطقة حول كوكا مسطحة وغير جذابة، وكانت التربة جيرية ولم نشهد أى صخر من أى نوع لكنها منطقة كثيفة بالأشجار المتفرقة، وأحياناً كنا نمر على بعض الأكواخ وبئر أو اثنين من مياه متشابهة، وكان عشاؤنا المعتاد بعض الأرز من مؤننا .

وفى اليوم **الرابع والعشرين** عند الظهر وصلنا إلى نهر ييوو وتوقفنا عند مجموعة من الأكواخ التى تسمى لادا (Lada) وقد أصبحنا الآن على بعد سبعين ميلاً من كوكا، وهنا نجد النهر ينحنى على شكل حرف ال S والمياه ضحلة جداً ، وظهر ممر جاف على قاع النهر بالقرب منه مكان توقفنا رغم أن شواطئ النهر عالية وقادرة على احتواء مجرى واسع جداً .

وقمت بجولة متتبعاً المجرى الشرقى للنهر بحثاً عن وسيلة للتسلية لكن على بعد أربعمئة ياردة من الشواطئ كانت الأرض مليئة بالأعشاب العالية وأشجار أرضية بها

أشواك أجبرتنى على أن أشق طريقا داخل الأرض حيث يوجد مكان مكشوف به بعض مزارع القطن وقمت بمطاردة بعض دجاج غينيا عبر هذه الأشجار عندما وجدت صياح العديد من الأطفال والنساء اللاتى ألقين بزلع (جرار) المياه، وكن يحاولن الهرب بعيداً عنى من شدة الخوف، ومع ذلك خرجت ولكن لم أتقدم أكثر من ربع الميل عندما أشار الزنجى إلى أن العديد من الرجال يظهرون من خلف بعض الأشجار الكثيفة، ومن الواضح أنهم يراقبون حركاتنا، وطلبت منه أن يظل فى حراستنا حيث كان يحمل بندقية محشوة بالرصاص وأخذنا ننادى عليهم بصفة مستمرة لكن دون جدوى .

وقد انزعجوا من النساء اللاتى اعتقدن أننا من الطوارق الذين يسببون لهم دائما الخوف حيث أن بلادهم لا تبعد أكثر من سبعة أيام من المكان الذى يظهر فيه هؤلاء اللصوص .

وهذه أقصى مناطق بورنو التى يمكن زيارتها دون خوف ولا يمكن إغراء سكان هذه المناطق المتوحشة على ترك منازلهم الحالية كما أنهم يجبرون على أخذ أطفالهم، وعلى حرق منازلهم بدلا من البحث عن أماكن إقامة أكثر أمنا فى المدن الكبرى، ومع ذلك فإن لديهم طريقة للدفاع عن أنفسهم ضد الغزاة القساة والتى تمكنهم من إشباع رغبتهم فى الانتقام ، فالأرض مغطاة بحشائش عالية والغابات قريبة من شواطئ الأنهار ويحفرون حفراً دائرية عميقة ويضعون فى قاعها ستة أو ثمانية عيدان حادة تدعمها النيران وعلى القمة يضعون الحشائش بشكل يجعل من الصعب اكتشاف هذه الخدعة، ويتقدم حيوان مع راكبه على هذه الشراك وبسرعة يندفع إلى القاع وفى الغالب يموت الاثنان فى الحال .

وعندما عدت إلى الخيام مع الناس الذين أزعجتهم والذين حذرونى من التقدم أبعد فى هذا الاتجاه – كنت أرتعد عند تذكر مختلف المواقف التى هربت منها ، لأن بعض هذه الشراك التى كانوا يسمونها لم تكن تبعد ياردة عن آثار أقدامى السابقة .

أما البلدان المجاورة لشواطئ النهر غرباً فقد زينتها أشجار التمر هندى الضخمة فضلا عن أشجار أخرى تحمل ثماراً تشبه المشملة الخضراء والتى تسر الذوق، وكانت أعداد كبيرة من قبيلة الميموسى (Mimosa) قد انتعشت فى هذه المنطقة،

وكانت هذه الأشجار الخضراء المنتشرة قد أعطت هذه المناطق حياة جديدة بالنسبة لنا أما عن الفواكه البرية الأكثر قبولا فقد اخترنا تلك التى تتغذى عليها القرود وأكلناها بشغف ودون خوف وكانت طازجة وهذا ما عوض المذاق أو الحلاوة، أما القرود والتى يقول العرب عنها بنى آدم مسخوطين ـ فكانت كثيرة العدد لدرجة أننى شاهدت أكثر من مئة وخمسين قرداً مجتمعة فى مكان واحد فى المساء، ويبدو أنه لم يكن لديها الرغبة فى ترك أماكنها على الأرض لكن تجلس على قمة الشاطئ على ارتفاع عشرين قدمًا ، اقتربنا منها على مسافه معينة، وكان الزنجى شغوفًا (تواقا) لإطلاق النار عليها لكنها رغم عددها لا تستحق هذا العقاب .

٢٥ مايو :

غادرنا النهر على بعد ميلين من مدينة لادا (Lada) وتوقفنا عند الظهر بالقرب من مياه راكدة بسيطة، وهنا توجد جماعات عـديدة من الأوز، وبعض أنواع الطيـور تسمى Adjutant ، وكانت هذه الوقفات فى منتصف النهار مع بعض الظلال المتفرقة مزعجة وشديدة الحرارة وتحركنا بعد الظـهـر وعبرنا على بحيرة أخـرى بالوصف نفسه ، وفى حوالى التاسعة فى المساء وصلنا إلى بحيرة أكبر تسمى انجاتاراناارام Engataranaram ولا يوجد مكان أكثر غربة ووحشة من المكان الذى مررنا به طوال هذا اليوم، وإذا قارنّاه بالسهول الجافة التى تعودنا عليها من قبل يبدو أنه غنى وجذاب، إنها غابة واحدة مستمرة وبها مناطق ملتوية ضيقة حتى نتجنب الفروع المعلقة ذات النهايات الشوكية، وقد أعطتنا وقع أقدام الأسود والضباع فكرة طيبة عن طبيعة السكان، وقد أقنعنا زئيرها أنها ليست على مسافة بعيدة .

وفى الصباح قابلنا قافلة من السودان تتكون من حوالى عشرين شخصا، وتجلب معها مئة وعشرين عبداً، وبعد ذلك بعدة ساعات وصلنا إلى مكان حيث كانوا قد قضوا فيه الليلة الماضية ويتولى الشيخ القيادة وبعده مباشرة يأتى سلطان بورنو الذى يرافقه فى هذه المناسبات رغم أنه لا يحارب إطلاقًا ، ويتقدم الشيخ خمسة أعلام اثنان منها باللون الأخضر واثنان مخططان وواحد أحمر اللون، وهناك مقتطفات من القرآن الكريم

كتبت بحروف من ذهب، ويتبعه حوالى مئة من رؤسائه وعبيده المفضلين (ذوى الحظوة عند الشيخ) ويركب بالقرب منه زنجي موضع ثقة حاملاً درعه وقميصًا من الحديد وغطاء للرأس من الصلب كما يحمل أيضًا أسلحته، وهناك آخر يمتطى حصانًا سريعًا ويرتدى قبعة من القش وريش النعام ، ويحمل طبلة تعد عارًا إذا ضاعت أثناء المعارك .

وفى الحملة التى كلفت السلطان السابق لبورنو دونمه حياته مع الشيخ وقع فى هجوم مفاجئ من أهل باجرمي، وقد تأثر كل واحد حوله تقريبًا ، ومع ذلك فإن السكان يعتقدون تمامًا أن معجزة قد أنقذته حيث يقولون " لقد صار مخيفا وأن رؤساء باجرمى قد طوقوا ميدان المعركة وهم ينادون على الشيخ، وأن طبلته كانت تدق من حين لآخر لكنها لم تظهر مثل قائدها" ، وبالقرب من المؤخرة للفرسان يأتى الأقزام والحريم، وكان الشيخ قد اصطحب معه ثلاث زوجات اللاتى ركبن على خيول صغيرة مدربة يقود كل منها أحد عبيده من الصبية أو الأقزام، وكانت رءوسهم وأجسامهم مغطاة تمامًا بأرواب من الحرير البني، ويركب أحد الأقزام بجوار كل واحدة منهن وكانوا قد أشعلوا نيرانهم فى وسط الممر، وأعدوا سورا جيدا حولهم من فروع الأشجار الكبيرة والأخشاب الجافة، وفى بعض الأحيان كانت النار تشتعل فى هذا السور وتقترب جداً منهم وقد وضعت الإبل والحيوانات من كل نوع فى الوسط ولو حاولت إحداها الشرود بالليل فإنها تعاد مرة ثانية .

ولا تتحرك القوافل عادة بعد الغسق خاصة التى تسير على الأقدام، وكان الزنوج معنا فى حالة خوف خلال الجزء الأخير من مسيرة ذلك اليوم بعد أن عبر أسد ضخم الطريق أمامهم على بعد أميال قليلة من مكان توقفنا ، وكان هناك شك فى أن غناءهم وعددهم قد أزعج الأسد فى عرينه عندما عبرنا على بعد عشر خطوات من جذع شجرة كسرها عند قدومنا ، وقالوا إنه توقف ونظر إليهم، ولما لم يكن لديهم انتباه أن يلحظوه أو يبدون خوفهم فإن أحد أفراد الجماعة كان سيعانى أو يتألم .

وقد قام الزنجى بدراسة الأرض قبل أن ينصب خيامنا ، وبعد أن وضعنا أمتعتنا والاستماع بانتباه الخطة أعلن أن بعض الناس على قرب منه وأطلقت النار وبعد وقت قصير جاء الرد من طلقة وعلى بعد مسافة قليلة وجدنا ستة من الكابشاريين (Kabsharians)

الذين قالوا إنهم فى طريقهم إلى كوكا، وأقمنا خيامنا بجوارهم هذه الليلة وفى هذه الغابات يتم سلب القوافل من السودان ، وكان الزنوج الهاربون وهم مهرة فى حمل الأقواس يخطفون رؤساء هذه القوافل من خلف الأشجار ثم يسلبون أمتعتهم، كما أنه تم اغتيال عشرة رجال من قافلة واحدة خلال العام السابق .

٢٦ مايو :

تتبعنا طريقا ناحية الغرب لمسافة ثمانية أميال إلى بحيرة تسمى جومزياجى (Gumazaigee) وعلى مسافة ميل كانت توجد بحيرة أخرى تسمى جومزياجيجانا (Gumziageegana) وهنا وصلنا إلى الطريق، وبعد سبعة أميال توجد بحيرة أخرى تسمى موجابى (Muggaby) أو بحيرة سلطان بورنو، ويبلغ طولها ثلاثة أميال تقريباً وعرضها نصف ميل، وشواطئها خضراء جميلة وعمقها عظيم، وتحتوى على حيوان فرس النهر بأعداد كبيرة، ومن حين لآخر تظهر رءوسها السوداء على سطح الماء .

ومن حين لآخر كانت مجموعات من المشاة الكانمبو يعترضون طريقنا لعدة أيام فى طريقهم للالتحاق بقوات الشيخ، وهنا وجدنا حوالى مئة وخمسين من الشوا أو عرب بنى وهل، وبعد أن نصبنا خيامنا وتناولنا وجبة من الأرز والبط عزمنا على الركوب لزيارة آثار (بقايا) مدينة بيرنى القديمة التى تمتد تقريباً إلى هذه البحيرة، وتعنى كلمة بيرنى مدينة العاصمة فى لغة البونو .

وتقدمنا من الطريق المرتفع نحو السودان وبعد ميلين تقريبا وصلنا إلى مكان تقع عليه عاصمة بورنو، وآثار المدينة التى تقنعنا بسلطة وقوة السلاطين السابقين أكثر من القصص التى سمعناها عن عظمتهم، ولقد شاهدنا أكثر من ثلاثين مدينة كبرى والتى دمرها الفلاتا تماماً فى الوقت الذى دمروا فيه العاصمة، ووصلنا إلى آثار العاصمة نفسها والتى يحصل منها الشيخ على الجزء الأكبر من (النترون) الذى يستخدم فى إعداد مادة البارود .

وتغطى مدينة برنى القديمة مساحة خمسة أو ستة أميال مربعة، ويقال إن سكانها وصلوا إلى ٢٠٠,٠٠٠ نسمة، ولاتزال آثار الأسوار فى كثير من الأماكن باقية فى

شكل كتل ضخمة من الطوب الأحمر الصلب وكان سمكها ما بين ثلاثة أو أربعة أقدام، وارتفاعها مابين ستة عشر إلى ثمانية عشر قدمًا، ومن القمة لأحد هذه الأسوار نستطيع أن نلقى نظرة على نهر "جامبارو" الذى يجرى تقريبا نحو الشرق رغم الانحناءات وعلى مسافة عدة أميال فقط، وعند الغروب عدنا إلى أكواخنا .

وبعد أن عبرنا بحيرة موجابى اتجهنا نحو الشمال الغربى من أجل البحث عن بقايا وآثار هذا الحى الذى كان عامرًا بالسكان، وخاصة تلك التى كانت مقر الإقامة المفضل للسلطان السابق ويدعى جامبارو (Gambarou) والتى تقع على شواطئ النهر وعلى بعد أربعة أميال من السودان، وقد أطلق اسم هذا الحى على المياه أثناء مرورها عبره، وبعد أن تقدمنا بصعوبة خلال أراضٍ منخفضة، أحيانًا تفيض حيث كانت الحشائش البرية ترتفع فوق رءوس خيولنا، وتضايق قطيعًا من أربعة عشر فيلاً وصلنا أخيراً إلى النهر الذى ينساب بلطف هنا، وحوالى ربع ميل فى عرضه ويقع بين شاطئين مرتفعين تغطيهما غابة وأعشاب وأشجار البامبو (وهناك نوعان من البامبو أحدهما يسمى كايايا Kayay والآخر يسمى جومارى) وحاولنا أن نتأكد عما إذا كان هناك أى تيار مائى لكن وضح أن المياه كانت ثابتة تمامًا .

ومع ذلك أعلن عمر جانا والشوا الذين يرافقوننا أنه بعد الأمطار ينساب تيار قوى من الغرب إلى الشرق .

وقررنا البقاء هنا فى اليوم التالى وأصدرنا أوامر لنصب الخيام تحت ظل شجرة ضخمة من أشجار " التمر هندى " وعلى بعد مئتين وخمسين ياردة من شاطئ النهر، وكانت المياه عذبة ومعوضة لنا عن مياه البحيرة التى كنا نشربها طوال الأيام القليلة الماضية رغم أن هذه كان مثل الرقيق إذا ما قارناه بمياه الآبار بالقرب من مدينة كوكا، وكانت جماعات الأسماك التى تندفع بالقرب منا وأحيانًا على الشاطئ زادت فى الحجم أو العدد، وخضنا فى المياه حتى الركب إلى جزيرة صغيرة أو شاطئ رملى على بعد عشر ياردات من الأرض، ووجدنا آثارًا جديدة لاثنين من التماسيح ذات الحجم المعقول .

وبالقرب من الشاطئ وفى تجويف انحناء بسيط فى مجرى النهر وجدنا المكان المختار لإقامة سلاطين بورنو السابقين وتعطى الآثار الموجودة دليلاً على أن المبانى فى هذا القطر من نوع خاص، وأسوار المسجد التى كانت تزيد عن عشرين ياردة مربعة لا تزال ترى بالعين، ولاتزال آثار منزل السلطان مع بوابات تفتح ناحيه النهر، ويبدو أن مسجداً خافياً كان ملاصقاً لمقر إقامة السلطان وكانت كل المبانى من الطوب اللبن، وكان لها مظهر يختلف عن أى مدينة أخرى شاهدناها فى أفريقيا، ولقد كان الموقع جميلا رغم أنه مكان كثير الممرات .

وبينما كانت النباتات البرية والحشائش الضارة فى المراعى إلا أنهم أكدوا أن كل المناطق المجاورة لجامبارو كانت ذات يوم فى حالة متقدمة راقية من الزراعة وأنه فى عصر السلطان القديم كانت القوارب تتحرك باستمرار إلى كابشارى ومدن أخرى فى الغرب ولم تكن كوكا موجودة في ذلك الوقت بل كانت أنجورنو عبارة عن مجموعة صغيرة من الأكواخ .

٢٨ مايو :

فى الصباح امتطيت أنا والدكتور أودنى فرسان، وتابعنا مجرى النهر ناحية الشرق تقريبًا لمسافة ثلاثة أميال، ولم يكن هناك ممر حيث أجبرنا على اختراق حشائش عالية وأشجار اليامبو المتفرقة بشكل كثيف والتى جعلت الرحلة مرهقة، وفى النهاية استطعنا أن نلقى نظرة على الماء وذلك بالسير على آثار الفيلة وغيرها من الحيوانات التى تضرب بأجسامها الضخمة أى شىء أمامها، وقد انزعج الزنجى (عمر جانا) وكان على استعداد للعودة أكثر من أى وقت مضى لكننا شجعناه على الاستمرار فى السير، وأخيراً وصلنا إلى مكان مكشوف وجاف من الرمال، وكان قا ع النهر يمتد أكثر من مئتى ياردة .

وهنا كانت آثار أقدام حديثة لأسد ضخم، ووجدنا أن المجرى هنا يسمى بيوو Yeou وعدنا من طريق مباشر عبر الغابة إلى خيامنا وكان هذا إرضاء لعمر جانا، وهذه المناطق الموحشة لا توصل إلى أى طريق مكشوف أو نقطة عامرة بالسكان وبالتالى من

النادر زيارتها، وكانت كل المنطقة المهجورة منذ أن بدأ الفلاتا طرقهم الداخلية، وتكتظ المنطقة بالحيوانات البرية من كل وصف، وعلى هذا فهي تتواجد هنا أكثر من أي جزء آخر في مملكة بورنو .

وتوجد كميات كبيرة من الخشب الذي تصنع منه السلال ، وكانت عصابات من الطوارق تجوب المنطقة حول النهر حاملة كل مايروق لأغراضها .

وعند عودتنا إلى الخيام وجدنا أن موقفنا كان مريحا بالشكل الذي كنا نرغبه، وكانت مدينة كابشاري التي نقصد الاتجاه إليها ثم ننتظر هناك وصول الشيخ لكنها تعرضت للهجوم وتدمير شعب مونجا منذ أن غادرنا كوكا وهجرها السكان، وبينما كنا نتناقش حول الخطوات الواجب اتباعها طبقًا لهذه التقارير من المخابرات حيث وصل إلينا اثنان من الكانمبو في سرية حاملين أخبارا أن فرسان المونجا يحومون حولنا بل وأنهم زاروا المنطقة من النهر التي كنا نرتادها في الصباح، وبعد أن قتلوا العديد من الكانمبو الذين كانوا قادمين للانضمام إلى الشيخ حملوا معهم العجول، وكان تأخر قدوم الشيخ قد أعطاهم الشجاعة، وأحدث تقدمهم هزيمة وتراجعا لكل الشوا الذين تركناهم في مدينة موجاني، وهكذا أصبحنا وحيدين، وفي كل لحظة كنا نتوقع الحصار والأخذ أسرى وحول رقابنا الحديد الذي يوضع حول كل اثنين من الأسرى، وسيرنا إلى مونجا وكان عمر جانا منزعجًا تمامًا، وارتدى الجاكت الحديدي مع الصديري الأحمر فوقه، وعمامته السوداء وحاول تهدئة روعنا قليلا وذلك بأن تركنا لمدة ساعة ليرى ما إذا كان الشوا قد غادروا موجاني، رغم أنه أكد لنا في الوقت نفسه أن منظر الجاكت الأحمر سوف يخيف مئة من المونجوي Mungowy .

وعند عودته والتي كنا ننتظرها بشغف، وجدنا تأكيداً للتقارير المزعجة وأنه لا يوجد أي واحد من الشوا قرب البحيرة مع أنه كان متأكداً من أن العدو هناك، واقترح الذهاب إلى كابشاري على طول شواطئ النهر إلى الغرب لكنه اعترف أن الشيخ ليس هناك وأن الناس قد تحركوا بعيداً نحو نجورنو، ودرسنا تلك النصيحة السيئة وقررنا العودة إلى طريق كوكا على الأقل لكن لم تكن تلك مهمة سهلة، وبعد دراسة متأنية قررنا أن نظل بالقرب من النهر، وأن نزحف عبر الغابات بقدر مانستطيع، وأن نتجنب كل الممرات التي نتعرض فيها للضرب، وتحركنا في الثالثة بعد الظهر وعبرنا حوالى

ميلين نحو الشمال من شاطئ النهر وكان الطريق وعراً ومليئًا بالأشجار الكبيرة والأعشاب الصغيرة .

وقبل غروب الشمس التقينا بقطيع من الأفيال الذى يبلغ عدده مابين أربعة عشر أو خمسة عشر فيلا وقد قام الزنوج بالضرب بعصا بشدة على قطعة من النحاس التى جعلت الأفيال ترقص مرحًا .

وعندما بدأ الليل يلقى بظلاله الكثيفة قررنا أن نتوقف حتى الصباح فى مكان صغير مكشوف حيث وجدنا شجرة ضخمة دمرتها هجمات النمل الأبيض وسقطت أرضًا، وهذا مازودنا بالأخشاب لإشعال النيران لإعداد طعام العشاء لأن البحث عن الخشب على بعد أى مسافة يعد مخاطرة فى هذا الوقت من المساء نتيجة الأسود، هذا وقد جمعنا الأعشاب اللازمة للخيول من المنطقة المجاورة لخيامنا، وحاولنا وضع الحيوانات بالقرب منا بقدر الإمكان، وظلت النيران مشتعلة طوال الجزء الأكبر من الليل وكان مصدر الإزعاج الوحيد هو صوت الأفيال التى صادفناها فى الطريق.

وفى اليوم التالى واصلنا المسيرة بالدوران مع النهر وفى أماكن كثيرة كان الشاطئ خاليًا من الأشجار ومغطى بالنبات الأخضر لمئات الياردات، وكان المجرى عريضاً مثل نهر التايمز عند منطقة ريشموند (Richmond) .

وعند الظهر أصبحت الغابة أكثر كثافة، ولم نكتشف أى ممرات، وأعلن مرشدنا أنه لا يعرف شيئا عن المكان الذى نتواجد فيه، وعلى بعد مسافة قليلة توقفنا تمامًا حيث وجدنا أغصانًا شوكية لأشجار الأكاسيا، وعندما نتحرك بصعوبة بالغة من بين هذه الفروع نجد الأرض مغطاة بالحشائش ومغطاة بالحفر العميقة والواسعة والقادرة على تدمير أى من رجال الطوارق ومعه حصانه .

وعندما حاول الدكتور أودنى أن يجد طريقًا على بعد مسافة قصيرة سقط فى أحد هذه الحفر العميقة التى تشبه المقابر، وخشينا التحرك تماماً، ولكن عمر جانا أعلن أن هذه التحصينات تدل على أننا بالقرب من مدينة ما مجهزة ضد المونجوى، وطلب منى أن أطلق النار لكى نحضر بعض السكان لخدمتنا كمرشدين، وعلى هذا جاء اثنان من الزنوج الأقوياء لمساعدتنا واللذين بعد أن شاهدونا من بين الأشجار، وأرشدونا إلى

القرية التى رغم أنها لا تبعد مسافة طويلة إلا أنها سوف تحبط كل المحاولات للكشف، فالشوارع محاطة بحواجز من كل جانب، والممرات متفرقة وهذه الحفر العميقة منتشرة وموزعة فى كل الاتجاهات لدرجة أن المرشد الذى يسير خطوة بخطوة كان يتجنب هذه الأشياء بصعوبة بالغة .

وصلنا إلى القرية التى تدعى والد Wolad وكانت قرية يسودها البؤس لدرجة أننا لم نستطع أن نحضر كمية من اللبن رغم أننا أحضرنا الخرز والإبر، وواجهنا مشكلة جديدة لأنه رغم أن الإبل عادت بعد أن بحثنا عنها إلا أن خادمي ويدعى كولبس الذى كان يسير خلف البغل لم يظهر، وكنا فى أشد القلق عليه خوفا من الحيوانات المفترسة أو هذه الحفر التى تثير الرعب تماماً، وازداد هذا القلق والخوف بعد أن أرسلنا أناسا فى كل اتجاه ومعهم مسدسات وطلبنا منهم إطلاق إشارات وألا يعودوا بدونه، وأسرع سكان القرية مهرولين نحو الشجرة التى نستريح تحتها وأخبرونا أن كولبس والبغل قد سقطا فى أحد هذه الحفر ويعتقدون أن البغل قد مات، وأسرعنا إلى المكان ووجدنا الحيوان المسكين فعلاً بالقرب منه وبه أربع وخزات أحدها فى جانبه الأيمن وهناك ضربتان فى الناقة وكانت ركبتها ممزقة بشكل مخيف، ولو أنها كانت ثقيلة وضخمة لما كان هناك أى شيء ينقذها، أما الرجل فقد استطاع أن يلقى بنفسه بعنف بعيداً وهرب فقط وقال أنه ضل طريقه عدة ساعات وتسلق على أشجار التمر هندى لكى يكتشف طريقنا دون جدوى .

ومع أنه سمع صوت الطلقات لكن كانت معه فقط طلقتان احتفظ بهما ضد الحيوانات المتوحشة بالليل، وكان يخشى أن يرد على الإشارة .

ورغم كل هذه المصاعب أخيراً أحسسنا ببعض الراحة عندما وجدنا أن الشيخ على بعد مسيرة ساعات قليلة منا فى الجانب الجنوبى من النهر،وفى المساء قررنا اللحاق به، ومرة ثانية عبرنا نهر بيوو من مكان جاف ووصلنا إلى نواحى معسكر بورنو على شواطئ مياه أوسع تسمى دوماساك (Dummasak) وهى تبعد خمسة أميال عن المكان ، وعلى النهر وجدنا آثار أسد ضخم وأيضا شاهدنا فرس النهر. عند غروب الشمس وصلنا بعد أن مررنا على مجموعات من رجال الحراب الكانمبو الذين يرقدون خارج أى خيمة، ووصلنا إلى المكان المكشوف الذى أقيمت فيه خيمة الشيخ، وأكواخ

رجاله الأساسيين، وعندما علم الشيخ بقدومنا أبدى الرغبة فى أن تقام خيامنا بالقرب من مادى جانا (Mady Gana) مدير الشئون المنزلية، والذى حمل إلينا تحياته، وفى الوقت نفسه أحضر لنا وجبة عشاء لذيذة من دجاج غينيا مع نوع من العجينة مصنوعة من دقيق القمح يسمى الفتة Ftat والتى تعد وجبة لذيذة .

وازدادت بهجتنا عندما علمنا بوصول طرد من إنجلترا مع قافلة تجار من فزان وكانت متعة السماع عن بلادنا وأصدقائنا، والمتعة العظمى لموقفنا بعد أن حرمنا منها فترة طويلة، وقد كان نقص المعونة والمؤن من كل نوع قد جعلنا نقرر العودة إلى كوكا فى صباح اليوم التالى، وقد أخبرنا الشيخ برغبتنا هذه، ولكن لسبب أو آخر لم تصل المعلومات إليه، ولدهشتنا الكبرى تحرك بعيداً مع طلوع النهار ووجدنا أنفسنا ثانية دون مرشد، ودون أن نعرف رغبات الشيخ بخصوص خطواتنا التالية .

وكانت هذه محنة جديدة وعلى العموم كان هذا أسوأ من اليوم السابق لأن الزنجى التابع للشيخ كان دائمًا حماية لنا، وكنا الآن فى مؤخرة جيش غير منتظم وعلى الأقل شبه متوحشين دون أى دراية بالطريق، وبعد ثلاث ساعات من القلق ودون وصول أى استخبارات من الشيخ قررنا شق طريقنا إلى كوكا وحدنا، وبعد أن حصلنا على الرجل الشارد الذى أكد لنا أنه يعرف المنطقة، وبعد أن تركنا البغل المجروح تحت رعاية بعض السكان فى قرية الأكواخ المجاورة ملأنا أسلحتنا بالطلقات وبدأنا رحلة الطريق، ومع ذلك تقدمنا ، وعلى بعد مسيرة مئة ياردة وصل عمر جانا الذى يمتطى حصانا منهكًا وكان فى حالة سيئة قائلا إنه سوف يلحق بالشيخ بقدر ما يستطيع، وعندما سألناه عن المكان الذى نتواجد فيه وجدنا أنه منذ أن تركنا كان هو والشيخ الذى كان فى حالة اضطراب وكان هدفه أن يعود وأن يلحق بنا ويحضرنا للجيش دون تأخير .

ولم يكن أمامنا سوى الطاعة وعلى هذا حولنا اتجاه إبلنا، وبعد مسيرة أربع ساعات وسط حرارة اليوم وصلنا مرة ثانية إلى بحيرة موجابى، والتى كنا قد غادرناها منذ ثلاثة أيام، وكانت بعض المناطق فى الطريق خلابة بطبيعتها، وزاد من جمال هذه المناظر جماعات المحاربين العراة وهم يحملون دروعهم ويتمركزون فى أماكن مختلفة على حدود البحيرة بينما نجد آخرين فى المياه يصطادون الأسماك التى يضربونها

بالحراب ويحضرونها للشاطئ بمهارة عجيبة وكانت الأسماك كبيرة مثل أسماك السلامون لكنها تشبة سمك الشبوط، وأشعل رفاقهم النيران على الشاطئ وتجمعت صفوف ما بين خمسين ومئة فى صف مصنوع من الأعشاب يمتد بين عصاتين ويتم شى السمك بشكل ممتاز .

أما بحيرة موجايى فلا زال سطحها الأزرق الغامق الساكن فى الوقت الذى وصلنا إليها وكان منظرها جذاباً وقد ازدحمت مياهها الضحلة بالفرسان الذين يأكلون، والرجال الذين يسبحون، وفى الوسط كان فرس النهر يلقى برأسه وتقذف المياه الأخشاب على الجانب الجنوبى الغربى فكانت مشتعلة وتتوهج وتثير سحباً تجعل المنظر مخيفًا تمامًا .

وبدأنا الآن مسيرتنا مع جيش بورنو الذى يفتقر إلى النظام قبل أن نقترب من العدو وكل واحد يعرف أنه عند نقطة معينة يحدث التجمع ويبدو أن التعليمات العامة أن كل فرد يبذل ما فى وسعه حسب طريقته الخاصة، وكان سلطان بورنو قد زاد من خدمه خمس مرات ومن حريمه ثلاثة أضعاف، كما يصحبه أيضًا رجال يحملون طبولاً من الخشب المجوف طول الواحدة عشرة أقدام أو اثنى عشر قدماً، وتصحبها موسيقا دائمة، وحيث أن هذه الآله تعد مظهراً ملكيًا خاصًا فإن الشيخ لا يملك أتباعا فإن حاملاً خاصًا يركب فى مقدمته قطع من الجلد والحرير من مختلف الألوان، ويركب اثنان على كل جانب منه يحملون حرابا ضخمة من المفروض أن يدافعوا بها عن سلطانهم أثناء العمليات ، وكانت الحراب معلقة وحولها التعاويذ، وكانت فكرة استخدام هذه الحراب فى المعارك عديمة الجدوى وفى الحقيقة فإن عظمة كل هذا المظهر لركب هذا الأمير مع الرءوس حولها التعاويذ تشبه حجم وشكل البرميل الكبير القابل للثنى، كل هذا يثير السخرية فى النهاية .

لقد دمر المونجوى مدينة كابشرى التى توقفنا عندها وكعادة سكان المنطقة يتم إضرام النار فى أى مكان يتعرض للهجوم ، حيث إن كل الأكواخ مبنية من القش فإن النار تأتى بسرعة على المكان كله، ويهرع السكان البؤساء فى الحال خوفا من التدمير، ويسقطون فى أيدى الأعداء الذين لا يعرفون الرحمة والذين يحاصرون المكان، ويتم ذبح الرجال بسرعة أما النساء والأطفال فإنهم يضربون بالسياط ويؤخذون أسرى .

وكان أحد رؤساء الشيخ ويدعى رمضان وأحد عبيده من السودان قد توقف هنا لمدة خمسة عشر يومًا وتحت حمايته أعاد الأحياء الباقين على قيد الحياة والذين بدأوا فى إعادة مساكنهم، وكانت الأكواخ مريحة وقد بنيت من القش المنتشر بكثرة هناك والذى يزرع فى الأراضى التى يفيض النهر بها، وقد تم البناء بشكل أفضل وهى تقاوم المطر أفضل من أكواخ كوكا، وكانت تنقسم من الداخل بواسطة الحصير التى صنعتها النساء بكل أناقة، وكلها تضم بابا من القش المضفر مع إطار من الخشب، وأما بعض الرجال الهامين فكانت أكواخهم تحاط بسور من الحصير تاركة مساحة داخلية لبناء كوخ آخر للرقيق من النساء والأبقار والماعز التى تزودهم باللبن، ولم تفكر هذه الشعوب البائسة فى الدفاع عن سكانها أكثر من التخلى عنهم وبالتالى تكسب الوقت للهروب بنفسها إذا لم يتم الهجوم بالليل، ويطلق الجميع النار قبل أن تجد الوقت للهروب، وكان الكابشاريون فى خوف من زيارة شعب مونجا، وعند قدومهم واقترابهم انسحب الجزء الأكبر منهم إلى شواطئ النهر وإلى الجانب الشمالى الغربى من المدينة والتى كانت مرتفعة تمامًا، وقد أقاموا مركزا قويا بحفر فجوات ضخمة كما وضعوا عيدانا طويلة فى هذه الخنادق وهذا جعل الانسحاب صعبًا .

الأول من يناير :

لم تشرق الشمس هذا الصباح عندما كان الشيخ يمتطى جواده ويفتش على قواته المفضلة ومشاة الكانمبو واختار مكانا يدعى كورنامارى (Coranamaree) يبعد ربع ميل عن المعسكر وتم اقتياد الجميع بشكل منظم، وقد رافقه إلى الأرض أربعة سلاطين تحت إمرته، وشكل العرب وفرسان بورنو دائرة وتوزع عبيد الشيخ الأساسيين وقياداته فى أماكن مختلفة وهم يرتدون معاطفهم القرمزية مع شرائط ذهبية ويحيط بهم الأتباع وكان ملبسه كالعادة أنيقًا وبسيطًا حيث يتكون من ثوبين من الموسولين الأبيض الواسع جداً مع بورنوس (ثوب) من اللون نفسه وشال من الكشمير للعمامة يوضع على كل ملابسه وعبر أكتافه ويحمل السيف الذى يكرر القول بأن سلطان الإنجليز قد أرسله لى وكان يمتطى حصانًا جميلاً جداً من مالارا، واتخذ موقعه على الجانب الشمالى من الدائرة بينما انسحب الكانمبو إلى الجانب المقابل فى صف متلاصق ويبلغ عددهم

تسعة آلاف، وعندما صدرت الإشارة لهم بالتحرك أطلق الجميع صيحة فاقت أى صوت سمعته من قبل، وتحرك الركب ومعهم قبائل تبلغ الواحدة مابين ثمانمئة وألف نسمة، وكانوا عراة تماماً باستثناء حزام من جلد الماعز يغطى بشعر حول الوسط، وبعض شرائح من القماش هى عملة الدولة، وقد وضعت حول رءوسهم وتتدلى تحت الأنف، وفى أيديهم الحربة والدرع مع وجود خنجر فى الذراع الأيسر مربوط بحلقة على المعصم ، ويمتد السلاح على طول الذراع والمقبض يتجه إلى أسفل وكانت الدروع مصنوعة من خشب شجرة تنمو فى المياه الضحلة فى البحيرات الكبرى وهى خفيفة جداً لا تزيد عن عدة أرطال، كما أن القطع الخشبية التى يصنع منها مربوطة بجلد الثيران وعليه بعض الشعور التى تشكل نوعا من الزينة وأحيانا تشبه النافذة القوطية (الطراز القوطى) ومعظمها محدب قليلا، وتحت غطاء هذه الدروع يهاجم الكانمبو رجال القوس بشكل منظم بخطوة بطيئة، أما القواد فكانوا يركبون الخيول ويتميزون بثوب أزرق قاتم اللون مع لبس عمامة من اللون نفسه .

وعندما اقتربوا من البقعة التى ارتكز فيها الشيخ أسرع الجميع الخطى، وبعد أن وضعوا حرابهم مقابل دروعهم لبعض الثوانى كان لها أثر عظيم وفعال خرجوا من الدائرة التى شكلوها من قبل، وانتظروا رفاقهم الذين تعقبوهم بنفس النظام، وكان هناك قدر كبير من الحب بين الشيخ ورجاله من القوات، وقد حث الشيخ حصانه للتقدم للأمام وسط هذه القبائل التى جاءت إليه وتحدث إليهم بينما تجمع الرجال حوله يقبلون أقدامه ولجام وسرج الحصان، لقد كان مشهداً رائعًا، ويبدو أنه يشعر أن مكانته الحالية ترجع إلى جهودهم فى الوقت الذى يبرزون فيه حبًا وارتباطًا يستحق هذه الثقة العظيمة واعترف أنه قد خاب أمله إلى حد ما عندما لم تشترك هذه القوات فى القتال رغم أن الكثير قد تم تعويضه بالتفكير فى هذه المذابح التى أزالت هذه الخيبة .

وقد سألنى الشيخ عن رأيى فى رجاله من الكانمبو عندما قابلته بعد هذا التفتيش، ولم أستطع سوى التعبير عن نظامهم ومظهرهم المنتظم، وابتسم عندما أكدت له أننى أعتقد أن مثل هذه القوات لا ترهب العدو لكن العرب وأهل فزان قليلة وقد قدم رمضان الذى عسكر فى كابشارى منذ حرق المدينة تقريراً عن الهجوم الذى شنه المونجوى منذ وصوله، وكان معه حوالى مئتين وخمسين رجلاً منهم اثنى عشر من

العرب الذين يعملون فى خدمة الشيخ ومعهم أسلحة من البنادق، وذات صباح ظهر فى ضوء النهار ثمانمئة أو تسعمئة من شعب مونجا فى محاولة أساسًا لجس نبض قوة أعدائهم وكانت مهمة رمضان أن يمنع تقدمهم، ونجح فى دفعهم إلى الخلف رغم حدوث بعض الخسائر، وكان دفعهم إلى هذه المناطق المغلقة قد أعطاهم ميزة عليه حيث قتلوا ثلاثين من رجاله بالسهام ونجح رمضان فى تدمير نصف قوة عدوه تقريبًا، لكن يبدو أنه تخلى عن مطاردتهم وعاد مع جماعته عند المساء ودار حول النهر إلى مكان الماء حيث توقع أن يذهب المونجوى للشرب، وانقض عليهم وذبح منهم أربعمئة رجل .

الثالث من يناير :

وبعد طلوع النهار ذهبت مجموعة استطلاعية من الفرسان وعلى رأسها رمضان وداود، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر بدأوا رحلة العودة حاملين معهم نساءهم وأطفال من الجنسين وصل عددهم ثمانمئة، وأحضر صديق من الشوا امرأة ومعه أربعة أطفال، اثنين على ذراعيها واثنين على ذراع الأب الذى بذل كل ما فى وسعه للدفاع عن أعز مايملك على وجه الأرض، كما أنهم أحضروا أعدادًا من الخيول الجميلة وأكثر من مئة ثور وماعز، وعندما جاء هؤلاء المساكين إلى الشيخ نطقوا صرخات الشفقة وبعد أن نظر إليهم أبدى رغبته فى إطلاق سراحهم قائلا: إن الله يمنع استرقاق زوجات وأطفال أى مسلم، عودوا وأخبروا الرؤساء الأشرار الأقوياء الذين يحثون أزواجكن على التمرد، وأما الكفار فإننى سأكون معهم بسرعة وإننى سوف أعاقبهم فقط عدا الأبرياء والعجزة .

الرابع من يناير :

وجدنا ناحية الجنوب بحيرة جميلة جدًا تحيط بها غابة كثيفة ومدينة باكسور(Bassecour) التى تضم مابين ألف وخمسمئة وألفين من السكان، وعندما عبرنا هذه البحيرة شاهدنا مدينتين أخريين عامرتين تسمى الأولى كاروم Caroom والثانية باتيلى (Batily) وبالقرب من باكسور توجد عدة مدن أخرى، ولم أعد بعد غروب

الشمس عندما كانت مواقع الكانمبو الذين كانوا فى الخدمة على القرب من العدو، وهذا أعطى مجموعات متميزة حيث يشكلون سلسلة من المواقع تتكون من واحدة إلى خمسة أو ستة رجال تمتد من القوة الأساسية إلى إحدى القبائل والذين يعملون دائمًا فى المقدمة على مسافة ميلين، ويغطون كل مقدمة الجيش، وهم يرقدون تحت حماية دروعهم التى تحميهم من الرياح أو المطر وأيضًا من سهام العدو، وواحد أو اثنان من كل مجموعة يراقبون، ويصدرون صرخة مراقبة إلى واحد من الجماعات الأخرى كل نصف ساعة أو أكثر وذلك طوال الليل .

وإذا حدث أى قلق فى المعسكر أو انطلق أحد الفرسان بعد عاصفة مفاجئة ترتدى كل المجوعات دروعها، وتصدر صرخة توضح أنهم فى يقظة، وهذا يعد شعارهم الذى يسمع لعدة أميال ويردون على "نداء" الشيخ عند آخر صلاة وهى صلاة العشاء .

السادس من يناير :

أرسلت عدة مدن رؤساءها واستسلمت بالطريقة نفسها وأحضرت هدايا السلام عندما أقسم الشيخ أنه لن يتحرش بهم بعد ذلك، لكن المعلم فانامى (Fanaamy) وهو فقيه موهوب وهو الذى حرك التمرد ورفض الحضور لأنه خشى على حياته رغم أنه قدم للشيخ ألفين من العبيد وألفا من الثيران وثلاثمئة حصان ثمنًا للسلام ، لقد كان هذا الشيخ شخصًا غير عادى وذاع صيته بسبب كتابة التعاويذ، ويقال إنه كان يفوق الشيخ نفسه الذى كان يحقد عليه لدرجة أنه قضى عدة سنوات بين الوثنيين فى الجنوب، ورفض الشيخ هذا العرض لأن هدفه كان إخضاع الرئيس الثائر وليس قتله أو نهب بلاده .

وحاولنا فى الليلة الماضية إطلاق صاروخين ولكن فشلنا وكان هذا خيبة أمل لى مثلما كان للشيخ حيث تم حملهما بإهمال وسقطت كل محتوياتهما، وفى المساء أرسل الشيخ يطلب إطلاق اثنين آخرين ودعا الله أن يتم إطلاقهما بشكل أفضل وكان ردى : سوف أبذل ما فى وسعى، ومن حسن الحظ نجح إطلاقهما، وكان المنظر جميلاً لأن الليل كان مظلمًا وأثار دهشة كبيرة، وسقط بعض الرسل الذين جاءوا من المدن إلى الغرب –

على وجوههم وبدأوا يدعون الله بخـوف شديد عندما انفجرت الصواريخ أثنـاء نزولها، وفى هذا المساء أيضًا أرسل المعلم فانامى ابنه وهو فى سن الثلاثين، وقد شاهد هذا العرض العجيب .

وفى اليوم التـالى ظهر المعلم فانامى نفسه، وحـيث أن شعبه قد ازداد تذمره - لم يجد بديلاً سوى الحضور راكبًا حصانه الأبيض ومعه ألف من الأتباع، وترجل عند خيمة الشيخ، وركع على التراب، وكان على وشك رش الرمل على رأسه لكن الشيخ منعه وحضر الفقيه إلى حضرته، وكما هى العادة فى مثل هذه المناسبات فقد جاء بلبس بسيط ورأسه عارية، وتقبل الشيخ رضوخه، وعندما توقع أن يسمع صدور الأمر بقطع رقبته لبس ثمانية أرواب جميلة .

الحادى عشر من يناير :

جاء الاحتفال بالعيد بعد شهر رمضان واستقبل الناس القمر الجديد بالبهجة والتهليل وإطلاق النار، وأطلقنا آخر صاروخ احتفالاً بهذه المناسبة وسبقه الزنجى بإطلاق وابل من القذائف وطلقات اثنين من المسدسات فضلاً عن إطلاق النار من بندقيتى وهذا جلب السرور العظيم لأنه لم يحدث أن شاهد الناس هذا الحشد من البارود والدخان، ومع شروق الشمس كانت كل القوات مستعدة بأسلحتها وركب الشيخ ورؤساؤه، وارتدوا أحسن وأبهى ملابسهم وداروا حول المعسكر، وصلوا على بعد مسافة قصيرة، وجاء اثنان من رؤساء مدن مونجا لكن لم يحضروا الجزية. وزرنا الشيخ فى المساء لتهنئته على انتهاء شهر رمضان، وسأل الكثير من الأسئلة خاصة عن الطباعة وخاطبنى قائلاً لماذا لم تحضر الكثير من الصواريخ ؟ إنها أكثر شىء مدهش شاهدته . وفى الليل هبت عاصفة عنيفة، وشاهدنا عادة غريبة يمارسها الناس وهى حفرة ضخمة بعد المطر، وعندما يصلون إلى الرمل الجاف يلقون بأنفسهم فى الحفرة ويرقدون بها لتجنب الأرض الرطبة .

الخامس عشر من يناير :

لكى نتجنب الحرارة الشديدة فى الخيام حيث أننا لازلنا متوقفين فقد ركبنا إلى مدينة جومسى (Gomsee) قبل أن تصبح الشمس أشد حرارة وقضينا كل فترة ماقبل الظهيرة فى ركن كوخ امرأة جاءت إلى الخيام فى اليوم السابق للحصول على الدواء، لقد كانت تعانى من مرض جلدى معد (القوبا) لمدة عشر سنوات، وتعرفت على عندما دخلت المدينة التى نويت المرور منها لكى أستفيد من ظل بعض أشجار التمر هندى والمانجو التى تنمو بالقرب من البحيرة ـ لكنها كانت مشتاقة أن أحضر إلى منزلها ولم أستطع رفض هذا الطلب .

وكان زوجها من الشخصيات الهامة وكوخها أفضل من الآخرين، وفى داخل أحد الأحواش من الحصير كانت هناك ثلاثة أكواخ أحدها للرجل والآخران للزوجة والعبيد، وجلست فى الكوخ الأول، وبعد وجبة من الحليب ونوع من الشراب السميك من الدقيق والعسل والفلفل زارنى مئة من السكان على الأقل سواء من الذكور أو الإناث . وكانت هذه تقريباً آخر مدن بورنو ناحية الغرب .

رغم أن رجال بورنو ليسوا من المحاربين، كما أن النساء غير مفضلات بطبيعتهن إلا أنهم جنس طيب غير عدوانى، وفى خلال ساعة صاروا أصدقاء لى وكأنى بينهم لعدة سنوات، وعند الظهيرة أحضر صاحب الكوخ جلداً جميلاً من البغل البرى وماء لكى أصلى وعندما رفضت بدأت عملية استفسار عادى وانتهت عندما شرح الخادم لهم أننى لا أصلى أى أننى لست مسلماً، وعندما دار همس بأننى كافر رفعت النساء أيديهن، كما أن الرجال تراجعوا للخلف، ووجدت أن شعبيتى تناقصت بسرعة .

ولا تستطيع أى قافلة أن تدخل كوكا أثناء غياب الشيخ كما لا يجرؤ التجار على تقديم أى سلع للبيع إلا بإذن من الشيخ، وبناء على هذا فقد صدرت أوامر مكونة من عشر تجار من السودان أن تعسكر على بعد مسافة قصيرة منا وأن تنتظر تحركات الجيش، وكان معهم مئة عبد تقريباً – الجزء الأكبر منهم من النساء والبنات فى سن الثانية عشر والثامنة عشر، والبعض منهن من نيفى (Nyffee) بل وأبعد إلى الغرب حيث اللون النحاسى الداكن والشكل الجميل لكن بعضاً منهن من لون حديدى أما الذكور معظمهم

من الشباب فكانوا مقيدين كل اثنين معًا بسلاسل حديدية حول أرجلهم إلا أنهم كانوا يضحكون وفى حالة جيدة .

ووصلت أخبار مع هذه القافلة عن الحاج على بوكالوم الذى سوف تتوقف عليه عودتنا من السودان وأنه قد أعاد دفع ألفى دولار (هى كل رصيدنا) والذى تركناه فى يد أخيه دون أى ضمان .

ومن الأمور المعتادة مع التجار أن يقوموا بإغراء أحد العبيد ليغرى زملاءه بأننا عندما نصل إلى طرابلس سوف يطلق سراحهم ويرتدون ملابس حمراء يفضلها كل الزنوج بشغف، ولهذه الوعود فإنهم يرضخون بهدوء حتى يبتعدوا كثيراً عن أوطانهم لكى يصبح الهروب ممكنا لكن على حساب مخاطر الموت جوعًا .

ولو كانت المئات إن لم تكن الألوف من الهياكل العظمية التى ملأت المكان مابين هذه المنطقة ومرزوق تحكى قصصًا من الرعب فإن اختلاف مظهر هؤلاء الزنوج هنا والحالة التى يصلون عليها إلى فزان يبرهن على مدى المعاناة التى تبدأ منذ مغادرتهم وطن الزنوج .

وحدثت مصادفة أثناء اليومين الآخرين ولدت شعوراً عظيمًا بين الرؤساء والتى أثبتت أن السلطة العليا فى شخصية الشيخ تحقق من قلب يفيض بمشاعر الرحمة والعدل فإنه أيضًا يتميز بصفات حميمة لدى شعبه غير المتعلم أو المثقف أما قائده (باركاجانا) والرجل المفضل عنده والحاكم ليست لديه مقاطعات كبيرة، وهو الرجل الذى يحبه كثيراً فهو يملك أكثر من خمسين أمَة من الإناث وضعف الرقم من الذكور وهذا الرجل قد تعلم درسًا فى التواضع جعلنى أكن له كل التقدير والاحترام، وعندما كان الشيخ يقدم الهدايا للرؤساء أرسل إليه حصانًا كان قد وعد بإعطائه إلى شخص آخر من قبل، وعندما طلب من باركاجانا أن يتنازل عنه فإنه اعتبر هذه إهانه عظيمة لدرجة أنه أرسل كل الخيول التى أعطاها الشيخ له من قبل قائلاً إنه سوف يمشى أو يركب بطريقته الخاصه، وبناء على هذا التصرف أرسل إليه الشيخ فى الحال، وخلع كل ملابسه الجلدية وبعد أن أنبه ووبخه على هذا الجحود أمر بأن يباع إلى تجار التيبو (Tiboo) لأنه لازال عبداً، وهكذا سقط هذا الرجل المفضل على ركبتيه وشعر بالحزن واعترف بعدالة هذا العقاب ولم يطلب العفو لنفسه، ولكن طلب أن يحصل على زوجاته وعبيده من ثروات وأسلاب سيده .

وفى اليوم التالى عندما كانت تتم إجراءات تنفيذ هذا الحكم ركع المماليك السود (Kogonawha) ورؤساء الشوا أمام حضور الشيخ وطلبوا العفو عن إهاناته، وأن يعاد مرة ثانية إلى مكانته المفضلة، وظهر المجرم فى هذه اللحظة ليطلب الإذن بالمغادرة لكن ألقى بنفسه مرة ثانية على السجادة وبكى مثل الطفل وكان باركا جانا يعانى وهو يتقدم بالقرب من الشيخ ليقبل أقدامه، ونادى كل أبنائه وعفى عن عبده التائب .

ولايوجد أمير فى أعظم الدول المتحضرة أكثر حبًا من رعاياه من هذا الرئيس وهو مثال غير عادى تمامًا فى العالم الشرقى بسبب شجاعته الفائقة وفضائله وبساطته .

وفى المساء كان هناك احتفال كبير عام حيث دقت الطبول وصاح الكانمبو بعد أن كانوا يضربون على دروعهم وكل شىء كان ينطق بالفرح وركب باركاجانا ودار حول المعسكر فى ثوبه الجديد ويتبعة كل رؤساء الجيش .

الثامن عشر من يونيه :

بدأنا رحلة عودتنا إلى كوكا بعد رحلة ممتعه بالنسبة لى وواحدة أظهر فيها الشيخ قدراً كبيراً من الحرص وحسن الإدارة لأنه رغم أنه هدد بالقضاء على شعب مونجا ، ولم يكن هناك شىء أكثر خطراً على مصالحه من تنفيذ هذه التهديدات إذا كان حقا قوى بالقدر الذى يساعد على تنفيذ ذلك فهم شعب قوى ويمكن أن يجهزوا أكثر من اثنى عشر ألفا من رجال القوس فى ميدان المعركة، كما أن سهامهم أكثر طولاً من سهام الفلاتا وبها طريقة تسمم العدو أكثر منها فتكًا .

إن دولة بمثل هذه القوة مثلما هى بين شعوبها الخاصة والذين هم من موقعهم على الحدود ودائمًا يتعرضون لهجمات كل من الفلاتا والطوارق، وحيث أنهم أكثر تمرسا لفنون الحرب والقتال، ولديهم قوات أفضل من أى مملكة فى بورنو ، لذا فإنه أصبح من الأمور الضرورية للشيخ أن يسوى الأمور بشكل عادل إذا كان ذلك عمليًا وأن الشيخ كان مدركًا تمامًا للسياسة الخاصة بهذه الإجراءات، وتقريبًا فإن شعب المونجوى يحارب على الأقدام بينما تعتبر بورنو دولة من الفرسان ومع ذلك فإن المشاة هنا كما فى الجزء الخاص بنا من الكرة الأرضية هى التى تقرر مصير الحرب، كما أن

انتصارات الشيخ ونجاحه ترجع بشكل كبير إن لم تكن كلية إلى الجهود الشجاعة لرجال حراب كانم الذين لم يستطيعوا بمثل هذا الغطاء مواجهة سهام أعدائهم .

ولم تكن هناك فائدة بتفوق قوة بورنو عند احتكاكها مع شعب مونجا، وكان الشيخ يضع هذا فى اعتباره عندما خطط لهذه الحملة الحالية .

وكان لهذه الاعتبارات وزنها معه فضلا عن القوة العددية التى كان يشرف عليها، كما أباح لنفسه حزاقة الشعب وشهرته كمؤلف فعل كل هذا بجهود أسلحته فقط والتى بدونها ما استطاع إنجاز أى شىء ، ويقال إنه قضى ثلاث ليال فى كتابة التعاويذ وكان تأثيرها أن حراب بعض رؤساء الأعداء قد تم العثور عليها فى الصباح وقد غطاها السواد وأن حملة الأسهم قد انكسرت وأن أسلحتهم قد تحولت من كوخ لآخر، كما أصاب المرض بعض الرؤساء وانتاب الخوف الجميع، ويقال أيضًا إن الصواريخ التى أطلقتها قد أثارت الرعب بشكل غير عادى فى قلوب شعب مونجوى، وأعلن رئيسهم المعلم فانامى أن مقاومة شيخ يحفظ القرآن ويقوم بهذه المعجزات أمر غير مفيد وفى الوقت نفسه يعد خطيئة، وكان الاعتراف عن عدم قدرته مجاراة الكانيمى أجبر السكان على الاستسلام .

لقد أحضروا لى بعض شعب المونجا وكلهم من بورنو تمامًا وعندهم كل البساطة والروح الطيبة والوقاحة التى يتسم بها هذا الشعب بل أن المعلم فانامى نفسه له طبيعة، وقد صبغته الطبيعة بعلامة مميزة حيث غطت أحد جوانب وجهه بلحية كثيفة بل لايوجد شعر على الجانب الآخر، وهذه فى حد ذاتها بين شعب جاهل تمامًا كافية لكسب أتباع له ومستعدون لتصديقه بأنه يحظى بقوى خارقة، وفى هذه الأجواء فإن قدراً بسيطًا من التعليم يكفى لرفع مكانة وشهرة أى رجل إلى أعلى درجة ، بل وإن الأشخاص الذين ذهبوا إلى مكة المكرمة ولديهم قدرات ضئيلة يحلو لهم التسلية بقصص عن الدول والشعوب التى رأوها فى طريقهم ويحظون بقدر كبير من الاحترام ودائمًا يسعى الناس إليهم بل وإن كل منزل يفتح لهم، وأى أوروبى يسافر فى هذه الأقطار يحصل على نفوذ كبير بهذه الوسائل والتى تمكنه من القيام بمهامه وينفذ مايريد بكل سهولة .

وفى **التاسع عشر من شهر يونيه** عدنا إلى كابشارى ووجدنا تقدمًا كبيراً فى عملية إعادة تعمير المدينة وقدم الشيخ مبلغًا من المال لاستكمال العمل، وأعفى السكان من الجزية فى هذا الموسم، وكان الجميع فى منتهى السعادة والسرور وكان الشوا الألوانى (Alawany Shouaas) يخطون هنا بقوة عظيمة وقامت العديد من النساء بزيارتنا فى المساء وكن حقًا جميلات رغم أن لونهن يشبه النحاس (Dingy) .

ويسمون بيضًا ولذا يلقون قدراً قليلاً من التقدير من جانب الأهالى السود الذين يعتبرون السواد هو المرغوب فيه فقط، وقمت بالاستجمام فى هذا الصباح فى نهر جامبارو(Gambaro) بينما استراح الدكتور أودنى المسكين على الشواطئ ، وتوجد muscles الحية بكثرة ووجدنا الكثير من الأصداف عند قاع النهر .

وبينما كنا نقيم فى مدينة كابشارى واجهنا عاصفة أخرى عنيفة، وكنا سعداء باقتصاد الشوا عندما اقتربت العاصفة حيث رأيت الجميع مشغولاً بحفر حفر فى الرمل بالرماح وهى صغيرة جداً ولايستطيعون النزول إليها، ولم نكن مندهشين عندما رأيناهم يدفنون القمصان والبنطلونات على عمق قدمين أو ثلاثة فى الرمل، وعندما ينحسر المطر يحفرون من جديد ويخرجونها ويلبسونها جافة تمامًا فى مظهر ارتياح كبير وسعادة، وهم لا يتأثرون إطلاقًا بتعرض أجسامهم العارية للعاصفة بينما نحن الذين نرتدى ملابسنا نشعر بالألم والبرد الذى لا يشعرون به .

واليوم وصلت أخبار أن شعب واداى (Waday) ومعهم جيش كبير قد زاروا باجرمى وأنهم هاجموا كل المدن ونهبوها وأنهم قد هاجموا أكواخنا فى كوكا كما أنهم سلبوا بعضًا من أمتعتنا، وظهر أن التقرير الأول كان مزورا، لكن التقرير الثانى للأسف كان صادقًا جداً .

لقد كان هيلمان محجوزا فى سريره لمدة خمسة عشر يومًا بسبب الألم ، وفى هذا الوقت بالليل تمت عملية السرقة .

٢٣ يونيه :

تقدمنا فى طريق العودة ونصبنا خيامنا على شواطئ نهر موجانى وتوجد قطعان من الحيوانات البرية فى كل الغابات يسميها البرنويون كوروكو (Korookoo) أما العرب فيطلقون عليها العجول الحمراء، وقد ثارت بعضها اليوم بل ودخل أحد هذه الثيران بين خيولنا، وله قرون ضخمة، وأطلقنا عليه العديد من الحراب لكنه هرب حاملاً العديد من الوخزات فى لحمه ، وقد ارتعدت الخيول، ومرت علينا قافلتان من السودان فى طريقهما إلى كوكا، وتتكون من مئة وخمسين عبداً ومعهم عشرون تاجراً وخادماً وثلاثون بعيراً، وقد هرول معظم السكان إلى خارج المعسكر لمشاهدة القوافل وهى تمر وهى عادة فى مثل هذه المناسبات وذلك لخلع ملابس هؤلاء المساكين وأخذ هذه الملابس الرثة بعد إنهاء الموكب، بل ويفقد التجار بعضًا من العبيد، وشاهدت العديد من هؤلاء أمامى ينساب دموعهم على الخدود عندما كانوا يقتربون منا .

لقد عزمنا هذا المساء على قتل فرس النهر وهو حيوان يتواجد بأعداد كبيرة فى البحيرة على الحدود التى نعسكر عندها، لكن هبت عاصفة رعدية عنيفة، ولخيبة أملنا حرمتنا من مشاهدة هذه الفصائل، ويعد اللحم لذيذاً جداً، وفى الصباح كانت لدينا فرصة كاملة بأن نقنع أنفسنا أن هذه الحيوانات الغبية تنجذب إلى أصوات الموسيقا حتى ولو لم تكن من النوع الرقيق، وعندما عبرنا على طول شواطئ البحيرة (بحيرة موجانى) عند شروق الشمس تعقبوا طبول الرؤساء على طول المياه وأحيانًا تقترب من الشاطئ لدرجة أن المياه التى يلقونها من أفواههم كانت تصل إلى الأشخاص المارين على الشواطئ ، وقمت بحصر خمسة عشر فرسا على سطح الماء، وقام الخادم كولبس بضرب إحداها فى الرأس عندها صاح بصوت مرتفع ودفن نفسه فى البحيرة لدرجة أن البقية اختفت فى الحال .

وتقدمنا فى السير إلى دوماساك (Dummasak) حتى توقفنا بعد ظهر اليوم التالى، وتفرق الجيش هنا وعاد الشوا والكانمبو إلى أوطانهم .

ومع شروق شمس النهار بدأنا التحرك، وأرسل الشيخ إلينا لنركب إلى جواره، ويرافقه كل الناس الذين بقوا معه والذين جاءوا للترحيب بالعودة الناجحة لأميرهم،

ووصلنا مرة ثانية إلى العاصمة بين صرخات الرجال وصياح النساء لكى نعود إلى مساكننا القديمة .

وقد أحضرت القافلة القادمة من السودان شاباً فقيها من تمبكتو (تمبكت) وهو ابن رئيس أحد الفلاتا من مدينة جينى واسمه عبدالقاسم بن مالكى Abdel Gassam ben Maleky وكان فى طريقه إلى مدينة هاجى (Hage) وقد غادر تمبكت كما هى العادة بدون أى شىء سوى قميص على ظهره، وكان يتبادل الملابس مقابل جلد خروف ويتقوت كلية على أهل الإحسان، وكان صبيًا لطيفًا وذكيًا يبلغ من العمر ستة عشر عامًا له لون نحاسى غامق (قاتم) لكن ملامحه جميلة ومعبرة وكان قد غادر مدينة "جنى" منذ خمسة أشهر، وقد أنهكة التعب تماماً مع نقص الغذاء، وكان كل ملبسه جلد الخروف ورغم أن الشيخ أعطاه ثوبًا لكنه قال إنه يعتقد أنه يرتكب إثمًا إذا اندمج فى رفاهية ارتدائه، وكنا فى الحملة إلى مونجا عندما وصل وعند موعد وجبة المساء ظهر عبد القاسم فى خيامنا، ووجد أنه من الأفضل أن يحصل على الدقيق والماء من أى مكان آخر ولم يعرف شيئًا عن الطريق الذى جاء منه إلى مدينة كانو ولا حتى الأماكن التى توقف عندها، وقال عبد القاسم إنه لايعتقد أن مثل هؤلاء الناس لن يكونوا إلا مسلمين لكنه سمع عن المسيحيين من قبل وعندما سأل عن الكيفية والطريقة، قدم التقرير التالى :

"منذ سنوات كثيرة قبل أن أولد جاء الرجال البيض المسيحيون من سيجو إلى جنى فى قارب كبير، وهو قارب ضعف قواربنا، وكان الأهالى يذهبون إليه فى قواربهم ولم يحدثوا أى أذى لهم لكن المسيحيين كانوا خائفين وأطلقوا النار عليهم، وقتلوا العديد من الرجال بعد أن أطلقوا عليهم النار من بنادقهم، وقتلوا العديد فى القوارب التى اقتربت من قاربهم، وتقدموا نحو مدينة تمبكت، وهناك أرسل إليهم السلطان أحد رؤسائه وعقدوا مؤتمراً لبحث أوجه الاختلاف، واشتكى المسيحيون من أن الناس أرادو سرقتهم، وكان السلطان رقيقًا معهم وعطوفًا وقدم لهم المؤن، ورغم كل هذا فإنهم غادروا فجأة بالليل، وهذا ما أغضب السلطان لأنه كان يرغب فى إرشاد أناس معهم إذا لم يكونوا يخشونهم، بل وأرسل بعض القوارب خلفهم لكى يجذبهم من الخطر لأن هناك صخوراً كثيرة فى قاع النهر، ورغم ذلك فقد واصل المسيحيون السير ولم يبالوا بقيام رجال السلطان بالذهاب معهم، واندثر الجميع وماتوا، وحسب معلوماتى لم نسمع

عن إنقاذ أى شىء من ممتلكاتهم ولكن يتذكر نفسه وهو يشاهد رجلاً مع أبيه فى أحد هذه القوارب التى ذهبت لملاحقتهم وأنه رآهم وهم يرتطمون بالصخور، وفعلاً نقل هذه الأخبار إلى تمبكت وقد أثار هذا المنظر شعوراً عظيماً بين الناس الذين يسمعون ويتحدثون عن المسيحيين والقارب الكبير طوال اليوم فى منزل والده. وحتى هذا اليوم يتحدثون عنه ، وتوجد بنادق مثبتة على جانب القارب، وهو شىء لم نشهده من قبل فى مدينة تمبكت وهذا يزعج الناس كثيراً" .

ويعد عبد القاسم طفلاً معجزة عبقرياً حفظ القرآن كله ويتلوه من البداية للنهاية، وكنت أكرر السؤال عما سيفعلونه معنا إذا لم نذهب إلى تمبكت، ونسأل ماذا ؟ هل سيفعلون معكم كما فعلوا معى - إطعامكم" إن السلطان رجل عظيم، طيب القلب، وعطوف جداً على الغرباء، ويأتى كثير من البيض، لكنهم ليسوا مثل هؤلاء الذين كانوا فى القارب الكبير يأتون إلى جنى، وأيضاً الخدم الخاصين بهم ونعتقد أنهم من المسيحيين لكنهم لا يذهبون إلى تمبكت إنهم يأتون إلى المياه الواسعة. ويقوم الفلاتا فى جنى بإمداد تمبكت بالقماش والحرير الأصفر والأحمر، والبنادق التى يسعى الناس إليها كثيراً، هل تعرف ماذا يأخذ هؤلاء الناس فى طريق عودتهم؟ ودائماً نسمع أنهم أخذوا العبيد وتراب الذهب، إن سلطان تمبكت رجل عظيم ويحضرون الكثير من الرقيق معظمهم من النساء من بلاد الكفار المحيطة به .

وفى جنى ومالى – وهما خاضعتان لتمبكت – نجد أن معظم السكان من الفلاتا، ويقطن الطريق إلى تمبكت سكان مسلمون ولكن فى شمال وجنوب الطريق يوجد الوثنيون الذين يهاجمون القوافل أحياناً لكنهم يخافون كثيراً من الفولانيين الذين يحمون التجار .

وتتحدث كاشنا وكانو والهوسا لغة واحدة وتتحدث تمبكت وجنى لغة واحدة – ولكن الكل يتحدث أيضاً لغة الفلاتا، وفى مدينة سيجو نجد أن كل السكان من الزنوج والوثنيين والكفار، وكل وسائل الاتصال بين سيجو وجنى و تمبكت من خلال النهر الواسع جداً ويسمى كوالا (Qualla) وأما كابرا (Kabra) فهى المكان الذى يستقبل كل شىء قادم إليها أو خارج منها، أما تمبكت فيمكن الرسو بها أو عدمه .

وتبعد كانو مسافة خمس ساعات عن تمبكت ودائما نعلم أن هذا النهر العظيم الذي يحمل أسماء كثيرة وفروعًا متعددة يمتد من نيفى (Nuffe) جنوبًا بين جبال عالية، أما النهر فى كانو فيختلف وحقًا هناك اعتقاد أنه بحيرة فقط وليس نهراً .

وكما أرى هذه معلومات يمكن الاعتماد عليها ، وعلى عكس كل التجار المغاربة الذين يتلقون معلومات من الآخرين ويحصلون على مكافآت لوصف أماكن لم يروها، وعلى استعداد لسرد أى شىء يجول بخاطرهم ويلقى قبولاً لديهم، ولم يستفسر أى واحد من قبل عن الأشياء التى طلبتها، إنه يعرف العربية قليلاً، ولم نلحظ عليه شيئًا غريبًا طوال الرحلة الطويلة والتى كانت تسلمه قافلة إلى الأخرى .

لقد غادر كوكا فى شهر أغسطس فى صحبة فقيه عجوز متجهًا إلى واداى ومعه حقيبة من الجلد بها قمح مطحون وزجاجة مياه للشرب، وأعطيته دولاراً لكى يدفع تذكرة المرور عبر البحر الأحمر، وقد قام بخياطته داخل جلد الخروف، وسمعت بعد ذلك أنه قد غرق أثناء عبوره أحد فروع بحيرة تشاد، وحصلت على هذه المعلومات من أحد الشوافى فى واداى لكن إذا وجدوا أنه يمتلك دولاراً فإنه من المحتمل أن يقتل من أجل مثل هذه الأسلاب .

الفصل الخامس

فصل مطير فى كوكا

بعد عودتنا من مونجا مباشرة وبالتالى فإننى أتخيل من العروض أكثر منه كبرياء السيدات أثناء غياب أسيادهن ، وعموما فإن الأوامر تقدر للنساء الكبار بأن يجتمعن فى مقر الشيخ، ويجب أن تفهم أنه صارم جدا مع الجنس اللطيف، ويواجه أى انحراف بمنتهى القسوة والعقاب الشديد بل وفى بعض الحالات يحكم عليهن بالإعدام، وبشكل عادل فإنه يثير الفضول بالتغير المفيد الذى أدخله فى حياتهن وأخلاقهن منذ إقامته بينهن، ودائماً كانت نساء كوكا تشبه النساء فى أنجورنو وبيرنى (birnie) .

لقد ظهر أن المحصلة من هذه الإهانات أنهن كن دائما يظهرن فى الشوارع أثناء غياب أسيادهن (أزواجهن) ووجوههن عارية، وفى العادة كان الأزواج يشكون من أنهن تعودن على الحديث بصوت مرتفع، ومن ثم يتناقشن ويتحدثن كثيرا، ورغم تقديم النصائح لهن وتم طردهن، بل وصدر أمر يجب على أى امرأة غير متزوجة ولديها عبيد ألا تخرج من منزلها أو أن تستقبل زوارا فى بيتها، أما المرأة المطلقة فقد صدرت إليها تحذيرات صارمة، وعندما يقدمن أعذارا لاستقبال الزائرين وأن لديهن الرغبة فى الزواج كان القاضى يتعجب ويقول بكل حكمة حيث إن رجلا واحدا يستطيع أن يتزوج امرأة واحدة فهل من الضرورى أن يحضر العديد من الرجال إلى المنزل؟ بالتأكيد يمكن السماح لرجل واحد بالزيارة لكن يسكت القاضى رغم ذلك ويستجيب لآراء الشيخ الحكيمة والذى يرى خطرا كبيراً قد يحدث من هذه المواجهة دون فرصة للمقاطعة، وقال "لا إن منع أى امرأة من استقبال المفضلين لها ربما لا يشجع على الزواج وهذا ما يخالف الشريعة النبوية، ولكن يجب ألا تتم هذه الزيارات فى الساعات غير المناسبة بالليل، ويجب أن تضع فى اعتبارها أنه لا توجد مفاضلة، وأنه لا يتعدى

شخص على كبرياء الآخر، وأنه إذا وجدنا أن بابها مغلق من الداخل فإن الشيطان يتملكها وأنه سيتم حلق شعرها .

وتذكر السلطة الإصلاحية التى يتخيل هذا الحاكم امتلاكها على شخصية النساء "سلوك نوما (mama) كما وصفه بلوتارك (plutarch) " وكما يقول المؤرخ إنه أدخل التواضع العظيم بينهن، وإنه أزال فضولهن، وفى تعليمهم عليهم ليكن بعيدات عن شرب الخمر، واستطاع إسكاتهن "لقد امتنعن كلية عن الخمر، ولم يتحدثن إطلاقا حتى فى المسائل العاجلة بدون أزواجهن" .

أغسطس :

عقد الشيخ لقاء لنا فى حديقته هذا المساء، وقدم الليمون والتين وبعض الفاكهة، وكان منظرها جذابًا، وعندما عرف أن لدينا أخبارا من إنجلترا، سأل العديد من الأسئلة عن موريا (morea) حيث كان اليونانيون والأتراك يتحاربون، ولقد قرأ بعض التقارير عن عظمة هذه الدولة السابقة وكان مسروراً ببعض الإجابات التى أعطيتها له عن هذه الحقائق، وقدم العديد من الاستفسارات عن شكل الكرة الأرضية، وتمنى أن يتعرف على الطريقة التى تم تحديد شكلها، وبعض من كتبه التى تقول أنها مربعة، وتحدث عن الصندوق الفسفورى الذى وصل إليه من طرابلس وعن الكبريت الذى يظهر مشتعلا، وكان الجميع مسرورين بلا حدود .

وفى هذا الصباح كنت أنوى الذهاب فى رحلة صيد إلى بحيرة تشاد مع بعض الشوا من بنى حسان، ولكن لأنه كان يوم الأحد فقد أجلت رياضتى هذه، ومع ذلك فقد ذهبوا وعادوا ومعهم فيل صغير جدا لا يزيد عن قدمين ونصف فى الارتفاع إلا أنه كان قويا جداً لدرجة أن ثلاثة رجال اضطروا لإمساكه لأجل حلب قليل من اللبن أسفل حنجرته - وكان أشميت بن شنين (achnef - ben- shenen) وهو عربى من أوجيلا (augela) يعانى من المرض ويحضر دائمًا إلى الطبيب للحصول على الدواء، وعندما رأيناه لم نجد إلا الدعاء له من العلى القدير أن يحمينا من هذه الأمراض التى ألمت به. وقبل عامين تقريبا أثناء الاشتباك مع لاسالاشوا (sa sala shouaas) الذين هزمهم الشيخ أصيب

هذا المسكين بثلاثة جروح خطيرة أحدها في رأسه تركت جرحًا غائرًا والآخر في ذراعه حيث كانت الحربة مسممة ولم تلتئم إطلاقا ولا يزال الجرح مفتوحا، ويمتد في يده بوصات من الكوع إلى أسفل، وفي الجرح الثالث دخلت الحربة في فمه عندما كان راقدًا على الأرض بل وخلعت جزءا من الفك والأسنان واخترقت هذه تمامًا . وبعد فترة قليلة من عودته من رحلة الصيد أصيب بما أسماه الدكتور مرض الجزام اليوناني والذى غطى جزءًا كبيرًا من جسمه والذى لا يزال يعاني منه حتى الآن حيث يصحبه التهاب لا يطاق .

وكان الدكتور أودني وهيلمان قد أصيبا بالمرض لدرجة أنهما لم يستطيعا مشاركتنا الوجبات عدة مرات، كما أن حرارة اليوم ورطوبة المساء تؤثران فينا بشكل كبير، ورغم هذا فإنني تعودت أن أخرج من الصباح وأصطاد زوجًا من البط أو الأوز لمساعدتنا في الغذاء، وقد أصبح الريف جميلا بفضل المحاصيل التي أخذت تنمو حول كوكا حيث ينشغل كل السكان من العبيد في الشهور الأخيرة لأنهم يبدأون موسم الزرع مع الفصل المطير، وفي المنطقة التي يقل فيها الزرع نجد الأرض متوفرة بكثرة وعلى المزارع أن يختار الأرض في أي بقعة لم يشغلها في السنة الماضية، وتصبح هذه الأرض هي كل ثروته، وبعد شهرين من وقت البذر يبدأون في جمع المحصول ويعتبر هذا هو العمل الوحيد في السنة .

وفي هذا الصباح أجرينا محاولة غريبة أمام الشيخ كانت نتيجتها دليلا واحدا على بساطته والتزامه بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت المناسبة أن أحد رجال الشوا داس على رجل في الليلة الماضية بسبب بعض الاختلافات وكانت النتيجة موت الرجل، وطالب أخو الرجل بدم أخيه، وعندما قدم طلبا إلى القاضي، وظهر من الدلائل أن الشوا طرد الرجل من أمام بابه ثلاث مرات، لكنه ظل يقاوم وزاد من ضربه حتى أوقعه قتيلاً، وكان قرار القاضي أنه بناء على هذا الحرص فيجب ألا يتنازل وأن عدم قيامه بذلك يعد دليلا على أنه لا يثق في الرسول وأنه كافر، وأنه سبب موته، وعلى هذا فإن القاتل لا يعاقب، ومع هذا قدم صاحب القضية التماسا للشيخ الذى أخبره أنه حقا حسب الشريعة الإلهية التي سنها الرسول ونزلت في الكتاب أن العين بالعين والسن بالسن، والحياة مقابل الحياة ولابد من تنفيذ ذلك، وأوصى بأن يحصل على دية بدلاً من الدم، ومع ذلك فإن العربي الأحمق لم يتحرك، وطالب بالعدالة بصوت عال،

وعندئذ قال الشيخ "إن القانون فى يده، وله حرية التصرف حسبما يرغب" ، وعندما تم أخذ السجين خارج الأسوار قام أخو الشخص المتوفى بضربه على مخه بقطعة من الحديد كان الشوا يحملها أحيانًا ، ويعد هذا حدثًا شاذًا غير عادى فى بورنو .

واصلت دراسة اللغتين العربية ولغة بورنو وإلى جانب هذا زرت باركاجانا مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع ، وأحيانا كان يحضر إلىّ لدرجة أن وقتى لم يعد مملا أو ثقيلاً، وكان دائمًا يحضر راكبًا جواده ومعه عدد كبير من الأتباع لدرجة أن كوخى الصغير كان مشغولاً طوال اليوم، وأعتقد أنه لم يدخل أى منزل من السكان عدا منزلى باستثناء منزل الشيخ، ولم يحدث أن يزور أى شخص من هو أقل منه أو يتحرك من منزله إلى منزل الشيخ دون أن تكون مرتبته مرموقة، وكان مرشدى مندهشًا عندما أخبرته أن ملكنا يفعل الشيء نفسه حاليا ولا يعيش مثل رعاياه، ويركب ومعه تابع واحد فقط واقتنع كما كان من قبل بأهميته، وقد أدهشه هذا الكلام وقال "لماذا - إذا لم يجد احتراما من أحد " وهذا كان ردى "فى إنجلترا يفعل الملك هذا دائمًا وكلما فعل ذلك ازداد احترامه" .

وأخيراً أصدر الشيخ قرارين كان لهما تأثير كبير على شعبه، فقد ألقوا القبض على أحد العبيد مع زوجة رجل حر، وطلب الزوج المعتدى عليه تطبيق العدالة، وأصدر الشيخ حكما بشنق الرجل والمرأة، ومع ذلك قال صاحب العبد إن القرار فيما يخص المرأة عادل لأنها كانت تحاول دائما خداع عبده وتغريه بترك العمل، وأنه إذا حكم الشيخ على عبده بالإعدام فإن عليه أن يعطيه ثمن العبد لأنه فقير، وقد عارض الزوج هذا وقال الشيخ "آه إن المرأة هى الأساس فى هذا العمل" ودفع ثمن العبد، وفى صباح اليوم التالى تم شنق المتهمين خارج الأسوار .

٨ أغسطس :

أحضر رجل طائرًا كبيرًا فى الليلة الماضية يسمى دجاجة البر وهو نوع أصغر من الطيور التى يصطادها أبناء الباشا فى المناطق المجاورة لطرابلس بالسنارة،

لكن هذا الطير كان كبيراً جداً يزن أكثر من اثنى عشر رطلاً، وأعطيناه شلنين لإحضاره هذا الطير، (أعطيناه قطعة قماش خشنة) وقبل تناول إفطار هذا الصباح أحضر طائرًا أكبر، لكن وجد أننا قد أثرنا على السوق لأننى أعطيته فقط نصف الثمن .

وتتميز هذه الطيور ببريق عيونها الواسعة التى تفوق عيون الغزالة ، كما أن لحمها يشبه طائر الحجل فى الطعم .

فى هذه الأجواء الجنوبية نجد أن كل الأعمال بالإضافة إلى وسائل الترفيه تتم أمام عامة الناس فى إنجلترا وتنتهى أثناء الراحة بالليل، وفى هذا الصباح ركبت حصانى مع طلوع النهار لمشاهدة احتفال زفاف فى بورنو، وكانت السيدة فى أنجورنو، وقد ارتدى أصدقاء العريس الذين وصل عددهم ما بين العشرين والثلاثين أحسن ملابسهم وذهبوا للترحيب بالعريس، وركبت العروس على الثيران التى غطيت ظهورها بالحرير الأبيض والأزرق، وخلفها الرقيق من النساء تحملن سلالا من القش وأوانٍ خشبية وأطباقًا، بينما حمل ثوران بقية المهر الذى يتكون من الأقمشة والثياب. وكانت والدتها ترافقها مع خمس أو ست من الفتيات الصغيرات تعملن كخدم للعروس، وكنا نهرول نحوهم وهى وسيلة التحية. وتغطى النساء وجوههن، تعبيراً عن الشكر، أما الرجال فيسوقون خيولهم بسرعة ويوجهون عيونهم نحو الأرض لأنه ليس من المقبول أن ينظروا إلى العروس. وتتقدم العروس بعد ذلك إلى منزل العريس برفقة والدتها، وتظل داخل المنزل حتى المساء حيث تسلمها بشغف إلى العريس المشتاق لأنه يجبر طوال اليوم على المشى فى مواكب فى الشارع مع مجموعة تسير خلفه، أو يجلس على مقعد مرتفع كالسلطان فى منزله مرتديًا أفضل الثياب سواء بالشراء أو اقتراضها من أصدقائه، ويتجمع الناس حوله نافخين فى النفير، أو يقرعون الطبول صائحين "أطال الله عمرك، الله ينعم ويبارك فيك" .

لكنه لا يرد، بل ينظر ببلاهة أكثر مما يفترض الإنسان لأنه فى موقف لا يحسد عليه .

١١ أغسطس :

فى هذا الصباح أرسل الشيخ يقول "بما أننا ذكرنا بالأمس موقفنا المالى، فإنه على استعداد لتزويدنا فى الحال بأية أموال نحتاج إليها" وطالما أننا تحت رعايته ، فإننا لا نحتاج شيئًا إطلاقًا، ومع ذلك فإننا قلنا بمشاعر الشكر والامتنان بما أننا لم نفلس بعد فإننا ننتظر عدة أيام حتى يصل كل الناس من السودان .

ومن المستحيل أن نصف مدى عطفه أو كرمه علينا جميعًا فى كل الأحوال والمناسبات، كما أن هذا الدليل الأخير على كرمه لمتجولين فقراء والذين لم يعرف بلادهم وقبل أن يصلوا إلى بلاده يفوق كل ما كنا نتوقعه نظرا لأنه يعرفنا فقط عن طريق باشا طرابلس فإن تعرفه هذا يدل على الثقة الكريمة، كما أن علاقاته وحكمته الرشيدة قد أعطتنا دليلاً على الأمانة الكاملة فى نوايانا لزيارة بلاده رغم التقرير الخطير ضدنا الذى وصل إلى شعبه من خلال النوايا السيئة أو جهل بعض التجار من فزان، وقد أرسل لى بعض الملابس الخارجية عندما علم بحالتى السيئة بعد أن هربت من أيدى الفلاتا، وأيضًا دهشته وأسفه الشديد، أما شعبية عندما وصل التقرير الأول له فإنه أرسل خطابا إلى باركا جانا يشير إلى إنقاذى والذى قابلنى فى طريق عودتنا، وهذا دليل على حماية الله لى بطريقة جعلته يغير تصرفه نحوى ليس فقط عند الرئيس بل عند كل الجيش .

إن كل تصرف من جانبه أقنعنا أن حمايته وثقته قد نبعت من الأفكار التى جمعها عن عظمة وكرم الدولة البريطانية (وكنا على استعداد لأن نتملق أنفسنا بسبب تصرفنا) بدلاً من أى أمل فى تكرار التوجيه من الباشا، وكان قد علم بحالتنا السيئة مشهد موت بوكالوم ومنذ ذلك التاريخ لم يمر أسبوع دون أن يقدم هذه المساعدات فإن المبالغ البسيطة المتبقية بعد وفاة أصدقائنا لم تكن كافية لنا لعدة أسابيع رغم أنها تزايدت نتيجة بيع كل ملابسنا الصفراء والحمراء وكل الأشياء القيمة معنا وكان قد أصبح فى استطاعتنا الحصول على وجبة واحدة دافئة فى كل مساء كان الأرز المسلوق واللبن هو إفطارنا المعتاد كما كان شرب الشاى والقهوة والسكر أمرًا بعيد المنال .

ومع ذلك فإنه لم يتم اتخاذ الإجراءات الضرورية ضد كل الأخطار وصار فقرنا معروفا لكل سكان المدينة وكان اللقاء مع عدد كبير من الزوار قد أثبت أن مشاعر الناس ليست متفقة مع مشاعر زعمائهم.

ولقد كان المرض الدائم للدكتور أودني منذ عودتنا من مونجا قد جعله محبوسًا في كوخه، كما أن هجمات البرد التي كانت تصيب هيلمان دائمًا مع الإسهال فضلاً عن عدم التأكد من الحصول على المؤن والإمدادات الغذائية الكافية حتى نتمكن من مواصلة التقدم أو العودة كل هذا كان يقلل من روحنا المعنوية، وكانت عيوني قد ضعفت لعدة شهور لدرجة أنني لم أكن أستطيع القراءة في المساء أو حتى تحمل الضوء في الكوخ لفترة طويلة من الوقت، وانتقلنا بعد التحول من الكراهية المتبادلة إلى الحوار بل والخوف على تحقيق آمالنا تقريبا بعد وجبة المساء، وفي بعض الأحيان كانت أحلام الأيام الأولى تندفع أمام مخيلتي، وتطرد من ذهني الضغوط والمشاكل والأمراض ولم يبق سوى صوت الرعد والمطر الذي يتدفق من سطح الكوخ، والذي كان يوقظني دائما وينبهني إلى حقيقة موقفي ، والاقتناع بوجود آخرين أكثر بؤسًا مني ومع ذلك تتابع الأحداث التي تجعل سابقتها أقل أهمية .

إن الآلام التي تصحب التأمل في حالتنا غير الواضحة والمخاطر غير المؤكدة عما ستكون عليه حالنا على الأقل في الأيام الأخيرة في ضيافة الشيخ كل هذا جعلنا نشعر بالخوف الذي لا يمكن وصفه، ولو رفضت الحكومة تقدير الأميال التي قمنا بها، وأهملت إمدادنا بالتعليمات المناسبة لكي نواصل تقدمنا فإننا نعزي الموقف الذي يحق فيه لأحد هذه الأسباب، ولكن على العكس، كانت التعليمات كاملة والمؤن كافية، بل وكل الترتيبات ممكنة وجاهزة لكي نبدأ ومعنا ثلاثة آلاف دولار، وهو مبلغ كاف لكل أغراضنا الخارجية للبعثة .

لقد غادرنا مرزوق مع ثلاثة وثلاثين من رجالنا واستأجرنا أربعة جمال ومع ذلك فإن المؤن التي يحتاجها الآخرون لم نأخذها معنا أو حتى نحصل على اعتراف أو أمان من الشخص الذي يحتفظ بها سوى إيصال مكتوب بالإيطالية في مكتب للشيخ أو أي مسلم عدا الشيخ فإن هذا يعد كافيا لعدم صحة ادعاءاتنا أو مطالبنا لأنه لا يتفق مع القانون في طرابلس .

ومن حين لآخر كانت هناك أمطار عنيفة مع رعد وبرق واضح جدا، كما كانت المياه تغطى وجه الأرض فى شكل بحيرات متسعة، وكانت جولتنا قاصرة على المناطق المجاورة لإقامتنا .

لقد ارتفعت الأشجار بشكل كبير، وفى هذا الفصل من السنة توجد أسباب أخرى فضلا عن الأمطار تغرى الناس بالبقاء فى مساكنهم، والماء ينساب فى البحيرة العظمى التى تقدم فى فصل الجفاف الطعام والحشيش الخشن فكثير من الحيوانات المتوحشة التى تكثر فى بورنو والتى تهرب من هذه المناطق البرية تلجأ إلى حقول القمح، وأحيانًا تهرب إلى المناطق المجاورة للمدن، ونشاهد الأفيال بالفعل فى دوريجو (dowergoo) التى لا تبعد أكثر من ستة أميال عن كوكا. وبينما كانت إحدى الرقيقات عائدة إلى منزلها بعد حصاد القمح فى كوا (kowa) التى لا تبعد أكثر من عشرة أميال ـ إذا بأنثى الأسد تخطفها. وتنمو نباتات الزيتون فى كل مكان كثيف وكانت هناك قرية كبيرة حصلنا منها على بعض اللبن أثناء رحلة صيد البط، وهبت رياح عاصفة ورغم الأشجار التى لا يقل ارتفاعها عن ستة أقدام والتى تحتوى مزارعها على أجزاء شوكية – فقد تم أخذ حمارين من القرية، ويعشق الناس لحمها ودائما ما كنا نسمع أصواتها بالقرب من أسوار مدينتنا ليلا، وعند أحد البوابات التى تركت مفتوحة فإن هذه الحيوانات تدخل وتحمل أى حيوان تجده فى الشوارع .

ويوجد فصل دراسى خاص للرقيق من النساء للتدريب على العمل فى الحقول، وكما قلت من قبل إن كل الأعمال الشاقة يقوم بها الجنس الأضعف فهن يقمن بالأعمال المنزلية فضلاً عن كل الأعمال الخطرة ، ولقد سمعت أن تجار طرابلس لا يقومون بشراء النساء من العبيد من موسجو (Mosgow) لأن ملامحهن كبيرة ويشوهن أنفسهن بالأصداف الفضية التى تتدلى من أنوفهن إلى أفواههن تماماً، كما أن وزن المعدن بعد عام أو اثنين يجذب الشفاه إلى أسفل بقدر يجعلها تسقط على الذقن، وهذا ما يعطى الوجه شكلا قبيحا، هذا فإن المخلوقات المسكينة قوية البنية، وتحرس المحاصيل، وهن صبورات على العمل كما تجمعن المحاصيل، ولا يمر عام إلا ويقوم الأسود بخطف بعض منهن، بعد أن يتسللن بين عيدان القمح ويقفزن على ضحاياهن ويحملوهن بعيداً .

١٨ أغسطس :

كان اليوم الثانى عشر من القمر الجديد والذى يوافق **السابع عشر من أغسطس** يعد عيداً عاماً واحتفالات عظيمة حيث يقوم الرجال الأغنياء كل حسب قدرته بتوزيع الملابس على أتباعهم، كما يقوم الشيخ بتوزيع ألف ثوب فضلا عن الكثير من الثيران والأغنام .

وكالعادة فى صباح يوم العيد الكبير وهو ذكرى مناسبة تقديم سيدنا إبراهيم لابنه إسماعيل قربانا، كما أنه لقاء الحجاج في مكة، وبعد الصلاة فى مكان بعيد عن المدينة يعود الشيخ إلى المدينة وأمامه جموع من الناس ولكن نظرا لأنه كان يعانى من نوبة برد، فإن هذا الاحتفال لم يتم، ومع ذلك فإن الناس يتوقعون سوء الأمانى من هذه الظاهرة، ويقولون إن عدم ركوب الشيخ مع شعبه والصلاة معهم أمر غير صحيح، وفى ثانى أيام العيد أرسل الشيخ إلينا يفيد أن الحاج على بوكالوم فى طريقه من كانو، وفى مدى يومين أو ثلاثة سيكون فى كوكا، وكان هذا أعظم خبر وصل إلينا لأن كل أرصدتنا قد نفدت تماماً، ونعيش كلية على المؤن التى يقدمها الشيخ إلينا باستثناء بعض اللبن وقليل من الدواجن التى نقوم بشرائها، وفى **اليوم الحادى والعشرين** وصل الحاج على، وتغير شكله تماماً إلى الأسوأ وأيضاً كل الناس الذين فى صحبته، كما كان كل رجال فزان يعانون من التعب والإرهاق والمرض حيث أثرت الاضطرابات على منع الكثير من تجار فزان وطرابلس أكثر من أى عام مضى، وظهر الشيخ وهو مسرور بعودة الحاج على، وتمنى أن يكون كل شىء منظماً وألا تتأخر الحملة من طرابلس طويلاً، وكان قد حدد العودة بالعيد الكبير، وكان عدم وصوله قد أحدث قلقاً لعدة أسباب، ويقال إن المعلومات الخاصة وصلت إلى الشيخ من مصادر مختلفة بأن الباشا كان يفكر فى إرسال حملة من أجل السيطرة على بورنو تحت القيادة المشتركة للمرحوم موكنى (mukni) ومصطفى السلطان الحالى لفزان، وأكدت الأخبار أنه إذا التقى بالبريطانى فسوف يكون فى أمان ولا يوجد أى داع للقلق على مصالح باشا طرابلس أو رعاياه، فلقد حصل على الرقيق من خلال وساطة مناطق الشيخ لأنه منذ أن تولى مقاليد الحكم كان أمنا على الرحالة بشكل كاف، وكان يغرى التجار الذين لديهم

رءوس أمـوال ضـخـمـة أن يمروا فى بلاده من بورنو إلى السـودان ، وقـد زاد عـدد القوافل بين هذه البلاد وفزان فى خلال السنوات الخمس الماضـيـة أكثـر من الفتـرة السابقة، كما أن الاحترام لهؤلاء التجار قد زاد عما لقيه تجار الفترة السابقة والذين كانوا يمرون عبر بورنو، ومن خلال البقاء والحديث مع هؤلاء التـجار وصل عدد كبير منهم إلى الداخل، واتسعت أفكار الوطنية وبالتالى ازدادت رغباتهم، وفى الحقيقة إن التجارة قد بدأت تزداد بين سكان السودان الشرقى، كانت السلع الأوروبية ترد من كل صنف يوميًا. وكانت كل المنطقة تكتظ بالتجـار من طرابلس نتـيجـة مـحاولة الباشا المستمرة للحفاظ على علاقات طيبة مع الشيخ، وبمعرفة هذه الحقائق كان من المستحيل التصديق على التقارير الخاصة بالحملة التى تشير إلى باشا طرابلس وكانت هذه التقارير كافية لإثارة الخوف الزائد سواء كقضية لسلامتنا أو بالنسبة لنجاح مهمتنا، وحاول الشيخ هنا وفى أنجورنو أن يحيط الجميع علمًا بأن القافلة التى على وشك أن تغادر كوكا إلى فـزان سوف تكون الأخيرة فى هذه السلسلة من النشـاط وفى الوقت نفسه لم يقلل من عطفه واهتمامه بنا .

واستمرت الأمطار الغزيرة والليالى العاصفة مثلما استمرت أمراضنا، وفقدان شهيتنا، وكان هيلمان يعانى من التهابات فى الجلد، وفى خلال الأيام العشرة الأخيرة مات ثلاثة من الإبل الخاصة بالدكتور أودنى وحصانه وكانت هى الباقية من حيواناتنا فى طرابلس وبقى ثلاثة إبل من تسعة عشر جملاً كانت معنا هنا، وأخلى سبيل الرجل الذى كان مسئولا عنها .

٢٧ أغسطس :

كانت هذه الأمور كئيبة وغير مشجعة حقًا فلا تزال هناك أمطار غزيرة ورغم شدة حرارة الشـمس التى تظهر لبضع ساعات وسط النهار فإن الجو رطب لدرجة أن البطاطين ظلت عدة أيام مبللة، وكانت الأمطار تسقط من سقف الكوخ ، ولقد أصابتنى حمى شديدة خلال الاثنى عشر يومًا الأخيرة وهى المنتشرة فى هذه المناطق أثناء الفصل المطير ، وقد شعرنا بعد ذلك بآثارها القاتلة سواء بيننا أو بين الأهالى لولا نصائح الدكتور أودنى العاجلة ومساعداته لنا، وكنت أبلع كميـة من الملح (أبسوم)

فى قليل من الماء مع ثلاث حبات من حامض الطرطير، ونتيجة لذلك كنت أتناول الجرعات اليومية من المياه والتمر هندى، وقد ساعد على شفائى فى أقل من ستة أيام، وجربت العلاج نفسه فى بداية المرض حيث كانت الأعراض نفسها التى ظهرت على خادمى كولبس، وكانت لها النتائج نفسها .

لقد وصل من المدينة لوجون (loggun) ابن سلطان باجرمى المخلوع ويدعى إبراهيم بورجوماندا وكان شابا لطيفا له ملامح وعيون براقة، وكان فى خدمة سلطان لوجون ووعد بأن يأخذ رسالة منا إلى سيده الذى كما قال سيكون مسروراً إذا قمنا بزيارته، وتوسل بشدة فى طلب بعض الهدايا البسيطة التى من إنتاج بلادنا لكى يعرضها بعد عودته على سلطان لوجون، وكما يقول إن كل شخص سيسأل عما إذا كان قد شاهد الرجل الأبيض وماذا قدم له .

إن المرض والأمطار والمساكن التى نعيش فيها لم تستطع أن تحمينا من الطقس بالإضافة إلى الأفكار البائسة عن فقرنا، مع عدم التأكد من الحصول على إمدادات الطعام، وقد أدى هذا إلى حالة من عدم الارتياح بيننا مما زاد من تعاستنا، وكانت الزيارات الصباحية والمسائية التى قمت بها مؤخرا للشيخ فى حديقته عندما يسمح الطقس، وأخذ درسا فى عمل الشاى والذى أعجب به كثيرا، وكان يتحدث فى كثير من الموضوعات ومن بينها موضوعات دينية يناقشها بكل حرية مثل أى رجل قابلته .

قال الشيخ فى يوم من الأيام إن دينكم هو أفضل المعتقدات من أى من هؤلاء التعساء الذين يسيرون فى الطريق الخاطئ، إن كتابه قد كتب عموما بأمر من الحق الأعلى لكن كلماته ليست الخاصة مثل القرآن - لكن سيدنا عيسى و (مخلصنا) أو الأنبياء عدا واحد حيث تلقى القوانين المقدسة ولكن حرفها اليهود .

وقد شجعتنى صراحته وحريته هذه فقلت على لسان المسيح "وعندئذ رد بالحجة القوية وهو يصيح" "إن هذا بين أخطاء عقيدتكم" ماذا تقول إذا عن القرآن الكريم؟ وكان ردى أننا لا نؤمن به، ولا نؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم، وقال لا ليس كل هذا جزءاً من معتقداتنا وكانت إجابته "الله يرحمكم ويفتح بصيرتك قبل أن تموت" آمين. ولكن تذكر أننا لا نحتقر ديانة أى إنسان، ونعلن ديننا بكل جرأة "وكان رده" هنا أنتم

على حق، إن أى شىء أفضل من الأكاذيب، وكان الشيخ يناقش بوضوح يبرر من أجل الحصول على معلومات بدلاً من أى دافع آخر وتجدد الحديث في يوم من الأيام فى حضور الجميع عن شكل الأرض خاصة وهل كانت الشمس ثابتة؟ ولم يصدق أقوالي وبكل طاقاتى رسمت شكلاً بيانيًا على الرمل فى أرضية بيته موضحًا قسمًا مخروطيًا وكان منتبهًا تمامًا، ويحاول فهم ما أعرضه، وكيف يدور جسم فى مقطع ناقص حول الشمس فى مركز واحد، وقال ، كيف لو افترضنا أن الأرض كروية عندئذ كيف يمشى الناس فى الجانب العكسى لنا وكيف يتحركون كما نفعل ؟

ولقد استطعت شرح ذلك من خلال الرجوع إلى كتلة حجرية كان يسلى نفسه بها منذ عدة أيام، وبهذه الوسيلة أعطيته فكرة عن الجاذبية والجذب، وقلت له أنه بفعل الجاذبية فإن الأجسام تسقط على أى جزء فى خطوط عمودية على مركزها "وقال الشيخ، إنه شىء مدهش، والتفت إلى خدمه، وقال أنتم لا تفهمون شيئًا من كل هذا" وأومأ الجميع بالرأس قائلين "لا يا سيدى" .

وهنا نظر بكل ارتياح وأضاف "إن هؤلاء الناس يعرفون كل شىء، وقد ثبت ذلك وإننى قد قمت بكل هذه الاستفسارات من أجل تأكيد معلوماتى أكثر من تحسين وتصحيح معلوماته" .

ظللت فترة من الزمن أنتظر يومًا أصطحب فيه اثنين أو ثلاثة من الشــوا فى تيراب (Tirab) إلى بحيرة تشاد بحثا عن الجاموس، حيث كانوا يذهبون عدة مرات ويقتلون بعضا منه رغم أننى لم أستطع إقناع أحدهم بإحضار الرأس لى وبعض اللحم وجزء من الجلد، وكان هذا كل ما تستطيع خيولهم حمله لعدة أميال، وكانت طريقتهم فى قتل هذه الحيوانات غريبة بل وخطيرة حيث يتعقبونها فى المستنقعات التى يتغذون منها وخاصة القريبة من البحيرة، وحيث أن خيولهم مدربة على الاقتراب جداً منها عندما تجرى، وعندئذ يتمكن الراكب أن يثبت قدمه تمامًا على ظهر الجاموس، وبمهارة فائقة يبدأ الضرب من خلف كتف الحيوان مباشرة بحربة أو اثنين، ويمكن للحيوان أن يجرى لمسافة مقيدة وبعد ذلك وبمساعدة رفاقه ينزل وحده ويسحب فريسته، ويحدث أحيانا أن الجاموسة تحرك رأسها بسرعة قبل الضرب وتقلب كلاً من الحصان وراكبه. ولقد ضرب حصان صديق لى من الشوا ومات فى الحال منذ عدة أيام نتيجة الدوران المفاجئ من جانب رأس الحيوان .

وبالأمس خاب أملي بسبب سوء الأحوال الجوية وذهب ثلاثة من الشوا ولكنهم نجوا بصعوبة من قبائل البيدوما (Biddomah) حيث ظهر مئتا قارب في أماكن مختلفة على شواطئ البحيرة يحمل كل منها ما بين عشرة أو خمسة عشر رجلاً، وكان البحارة من اثنين من القوارب على وشك القبض على الرياضيين قرب مدينة كووا (koua)، وفي الصباح ذاعت الأخبار بأنهم خطفوا ثلاثين شخصا من المناطق المجاورة لمدينة وودي (woodie) وكان من بينهم ابن أخ شيخ البلد (حاكم المدينة)، وفي هذه المناسبات عندما تقع أي شخصية ذات منصب في أيديهم فإنهم يطلبون فدية عنها من اثنين أو ثلاثة آلاف ثور، أو عدد مناسب من الرقيق، ولا يملك أي سلطان السلطة على سلطان هذه الجزر، وهم لا يدفعون جزية لأي شخص، كما لا يخضعون لأي حكومة معينة، وقام بعضهم بزيارة للشيخ مؤخراً، ورغم أنهم أحضروا إليه عدداً قليلاً من الرقيق الذين سرقوهم من باجرمي قرب المياه فقد استقبلهم استقبالاً حسنًا وأعطاهم ملابس أنيقة وقبعات حمراء، وكانت زيارتهم أساسًا للتأكد من التقارير عن سلطة الشيخ الحقيقية ولكنهم رغم حسن استقبالهم فإنهم خطفوا ثلاث فتيات عند عودتهم من منطقة في حدود عشرة أميال من كوكا .

وتقع هذه الجزر على الجانب الشرقي لبحيرة تشاد وعندما يبحر من الغرب، فإنهم يعرفون الرحلة لمدة خمسة أيام في البحر المفتوح قبل الوصول إلى هذه الجزر الكثيرة، وأكبر جزيرتين هما كوري (koorie) وساياه (sayah) ، ويتكلمون لغة خاصة بهم رغم أنها تشبه لغة كانم، وسلاحهم الحراب والدروع ويتحاربون مع أي شخص حولهم خوفًا من واداي أو بورنو، ويؤمنون بقوة مقدسة تحكم كل شيء لكنهم ليسوا مسلمين، ولديهم كما يقولون يد قوية ورأس ماكرة بدلاً من دولة واسعة والكثير من الماشية، ومع هذا فلابد أن يأخذوا من الذين هم أغنى منهم .

ويقول شعب بورنو إن المياه ملك لهم وماذا نستطيع أن نفعل، ويقال إن لديهم أكثر من ألف قارب صغير وهم ليسوا شعبا صعب المراس، وعندما يأخذون أناسا في الأسر أثناء الحرب فإنهم لا يقتلوهم بل يعالجونهم، وإذا لم يحصلوا على جزية فإنهم يقدمون لهم زوجات، ويصبحون أحرارا مثلهم .

٣٠ أغسطس :

عاد الحاج على بوكالوم منذ أكثر من أسبوع، ولم نحصل على أى شىء مفيد منه بخصوص الذى تركناه فى حوزة أخيه، وكنت أخشى من هذه الأمانة فى البداية، وطالبت بضرورة اتخاذ بعض الإجراءات الأساسية معه، وعلى هذا طلبنا منه المثول أمام الشيخ، وكانت النتيجة أننا فشلنا فى الحصول على الوثائق الكافية فضلا عن مراوغة العرب، وسوف نجد فى الملحق ترجمة من العربية للوثيقة الرسمية لهذه المحاكمة .

تلقينا عبارات مواساة من العديد من أصدقائنا فى بورنو والذين كانوا شديدى النقد للحاج على ويقولون، أليس هؤلاء أصدقاؤكم فى مرزوق والذين كانوا يساعدونكم فى كل شىء لماذا هذه السرقة ومع ذلك طلبوا من الله أن يشهد على ما يكذبون، وقالوا وسوف يموتون حالا انتظروا فقط يوما أو يومين .

١ سبتمبر :

والآن رقد الدكتور أودنى على صدره للمرة الثانية ووجد بعض الارتياح فى ذلك، ووجدت أن موقفنا يتطلب نوعًا من العزم والتصميم، فأرسلت إلى عبد الواحد، وهو عربى من زهرين (zehren) قريب لبوكالوم وهو الذى عطفت عليه فى مناسبتين سابقتين ولقد وبختة بشدة على جحوده وخداعه، ولم يكن لاحتجاجى عليه أى أثر، واعترف أن قلبه كان أكبر من معدته منذ أن غادر القصر وأن عيونه كانت معتمة وأنه لم ينعم بأى راحة لأنه كما قال "أقسم بنفسه على أن يظل مخلصًا لى مثل الأخ" وقلت، "إن هذا شىء لطيف، ولكن ما الدليل الذى سوف تقدمه على هذا الندم" وأجاب "أى دليل" إن الحاج على سوف يحضر ذلك اليوم ويعترف على المذنب وستكون هذه النتيجة .

ولقد ذهبت إلى الشيخ وعبرت له عن طريقة مساعدته وأقسمت أننى لم أره أبدا مخطئا "وكما توقع عبد الواحد هكذا حدث، فقد جاء كرواش (karouash) خلال اليوم ليقول إن عبد الواحد كان فى بيته وأخبره أن الدين صحيح، وأنه قد نقل الحديث

للشيخ، وكان رد الشيخ "إنه على حق بعدما قاله الريس خليل" وعلى كل شخص أن يعرف أين تكمن العدالة لأن الإنجليزى ليس لديه كلام كثير لكنه صادق والعرب كما تعرفون يكذبون قليلاً .

وفى المساء حضر الحاج على بنفسه ومع ذلك قدم عذرا غير مقبول قائلا أنه لم يسأل إطلاقا عن المبلغ، ولم يعرف عما إذا كنا قد أعطينا أى أموال إلى بوكالوم، ولكنه عرف الآن، والله لا يرضى إلا أن أكون صديقا للإنجليزى وأنه لا يوجد ألفين بل خمسة آلاف دولار فى خدمتنا ، ومع هذا انتهى كل ذلك بأن طلب منا الانتظار حتى يرسل قافلته إلى مرزوق، وأنه سيحاول إعطاءنا ثمانى مئة دولار أو ما قيمته ألف دولار من الأقمشة لأنه لا يمتلك حاليا سوى عشرة دولارات، وسوف ينتظر البقية حتى يرسل إلى السودان، ولم أكن راضياً من كل هذا وفكرنا أنه من الأفضل عدم المعارضة وقلنا فقط أننا لا نملك مالا، وطلبنا منه أن يسوى الموضوع بأسرع ما يمكن .

ومرة ثانية أصيب السيد كلابرتون بالحمى وكانت قوية لدرجة أزعجتنا جميعا، وجعلته فى حالة هذيان لمدة أربعة وعشرين ساعة، ولما ظهر أن المرض معد لم يقبل أهل بورنو الاقتراب من أكواخنا، وازداد ضعف الدكتور أودنى بينما استرد هيلمان جزءاً من صحته، ومع أننى أصبحت الأقوى فى كل الجماعة فإننى أعانى غالبًا من الصداع وآلام الصدر، وهذا ما جعلنى أكثرهم قلقًا واضطرابًا، وازدادت عتامة الرؤيا، ومع ذلك ظلت روحى المعنوية مرتفعة وزرت باركاجانا والماى (حاكم) ميجامى (meigamy) كل يوم تقريبًا، وكنت أجد ارتياحا فى الدخول فى كل مشكلاتهم واضطراباتهم خوفًا من أن يرسل الباشا حملة إلى الإقليم .

ومنذ يوم العيد الكبير أصبح هناك اجتماع لأشخاص أمام بوابة الشيخ حيث يحضر الرياضيون والعبيد الأقوياء ويتصارعون أمام أسيادهم وأمام الشيخ نفسه والذى يتخذ موقعه فى نافذة صغيرة فوق البوابة الرئيسية للقصر ، ويجلس كل من باركاجانا وعلى جانا وورما (Wormah) وطراب (Tirab) وكل الرؤساء عادة على الحصيرة فى الفناء الداخلى، وكنت أتخذ مجلسى بجانبهم، وكانت السرعة والقوة هى المؤهلات الأساسية التى تضمن النصر، وكانوا يصارعون بشدة لم نرها فى الصراعات المسلحة للجلادين الرومان، والتى كانت تزداد من خلال أصوات أسيادهم

الذين يحثونهم على بذل المزيد من قوتهم، ويبدأ الهجوم من خلال طبلة من جلد الجاموس، ويدخل المتصارعون الحلبة عراة عدا حزام من الجلد حول وسطهم، وكان الفائزون فى المباريات السابقة يلقون هتافات عالية من المشاهدين، ويتبارى العبيد من كل الدول ضد بعضهم بعضًا، وكان العبيد من أهل السودان أقلهم قوة، ونادراً ما يحققون انتصارات .

وكان أشد الصراعات بين زنوج موسجاوى وباجرمى، وبعض هؤلاء الزنوج خصوصا زنوج باجرمى رشيقو القوام، ويتمتعون ببنية ضخمة، لكن جولات اليوم انتهت بالمبارزة بين اثنين من باجرمى ضد بعضهم بعضًا، وتكون النتيجة إما فصل الأطراف أو الموت لهؤلاء المتصارعين، وتبدأ المبارزة بأن يضع أحدهما يده على كتف الآخر مع عدم استخدام الأقدام ومن حين لآخر يتم الانحناء إلى أسفل، ويمارسان مئات الحيل الخادعة لكى يلقى الخصم على الأرض، وعندما يمسك غريمه من الأفخاذ، وبعد أن يرفعه عاليًا يلقى به على الأرض بكل عنف حيث يرقد وهو مغطى بالدماء ولا يستطيع أن يواصل المصارعة، ويلقى الفائز تحية إعجاب وصياح مرتفع، ويحييه الجمهور وهى نهاية الانتصار، ويقوم العبيد الموجودون بالقرب من سيده بوضع سروال (روب) يساوى ثلاثين أو أربعين دولارا أو يقوم بارتداء أحد أرواب رئيسه بعد أن يخلعه كعلامة تقدير ويلقى به على ظهر الفائز، ورأيتهم ينزفون من الفم والأنف نتيجة الإجهاد والتعب، ويتنافس أصحابهم طوال الوقت باستخدام عبارات أكثر إثارة، وأحيانا يسحب أحد الرؤساء مدرسة، ويقسم بالقرآن أن عبده لن يعيش لحظة واحدة إذا انهزم، وبنفس اللهجة يقدم له مكافآت إذا انتصر، وأحيانا يتم تنفيذ هذه الوعود .

وقد قاوم أحد الزنوج المساكين ضربات وهجمات زنجى آخر ثقيل جداً أكثر منه قوة جاء من بعض المناطق جنوب ماندارا، واستمر يقاوم خمس عشرة دقيقة وكان يلتفت مستجديا سيده الذى يهدده، وفى لحظة عندما استل خصمه يديه أسفل من أكتافه إلى أردافه، ورفعه فجأة من على ركبته إلى صدره، سقط بكل وزنه على العبد المسكين الذى جاء من السودان، وأطبق على عموده الفقرى عند السقوط .

وتعد الجولات السابقة عديمة الجدوى إذا فشل مرة واحدة والعبد الذى يشترى بحوالى مئة دولارات بعد هزيمته يعرض للبيع فى السودان وهو معوق ولا يساوى بضع دولارات لمن يرغب أن يشتريه .

أرسل الشيخ لى جلد أسد ضخم كان قد اصطاده بالقرب من كابشارى (kabshary) ويبلغ طوله من الذيل حتى الأنف أربعة عشر قدما وبوصتين، وكان قد التهم أربعة عبيد، وأخيراً أمكن صيده بالخدعة التالية .

اجتمع السكان معًا، وطردوه من المكان الذى كان يستمتع فيه بوليمة وذلك بالصياح والأصوات العالية، ثم حفروا حفرة عميقة جداً مستديرة الشكل وممتلئة بعيدان مدببة قوية، وتم وضع حزمة من القش مغطاة بثوب من القماش فى المكان وبحركة لطيفة مثل رجل يلتفت فى نومه، ويتم ذلك من حين لآخر من خلال خيط من مسافة بعيدة، وعندما غادروا المكان، وتوقف الصوت، عاد الأسد إلى مأواه، ولاحظوه وهو يقترب رويداً رويداً، وأخيراً قفز على فريسته المزعومة، وارتمى فى قاع الحفرة، فى الحال اندفع الكابشاريون إلى المكان وقبل أن يسترد أنفاسه، أمطروه بوابل من الحراب .

لقد ازداد مرض السيدات والسيد كلابرتون بدرجة عالية حيث استمرت الحمى لمدة أربع وعشرين ساعة مع رعشة دون توقف، وكانت النوبات فى ذلك الوقت من الفصل المطير قد أوشكت على الانتهاء، لكنها تكون مميتة للناس البيض القادمين من البحر كما يسميهم العرب، وكيف لا تؤثر هذه بعنف على سكان مناطق أكثر اعتدالا ؟

ومرة ثانية هاجمت الملاريا السيد هيلمان مع اضطراب فى الذاكرة جعلته يعود إلى حالته السابقة من الضعف، وعلى مدى يومين من الأيام الثلاثة الماضية كنت أنا وحدى الذى أظهر فى صالة الطعام فى وجبة المساء، حيث يعانى اثنان من زملائى الرعشة فى السرير، كما عانى الدكتور أودنى لمدة ثلاث مرات فى اليوم، ولم يغادر كوخه إلا للضرورة القصوى .

لقد كانت هذه لحظات قاسية وكافية لتحطيم شهية رجل بكامل صحته أكثر منى، ولا زال هناك الكثير من الواجب شكر الله عليه ، وحاولت حمد الله وأدعوه أن آكل بكل ارتياح .

لا زلنا نعيش خمسة أيام بدون مطر والحرارة مرتفعة إلى ١٩ درجة وسط النهار فى الظل، وبدأنا نعتقد أن الصيف قد عاد ثانية، ويبدو أنه من غير المعقول مع مثل هذه

الحرارة أن نطلب المزيد لكن رطوبة الجو والملايين من الذباب والناموس تجعل من الصعب الاستمتاع بأى راحة سواء بالليل أو النهار .

لقد مارست مضايقات هذه الحشرات فى لشبونة ونابلى وأجزاء أخرى من إيطاليا وصقلية، لكن ليست بهذه الأعداد وهذه المضايقات، وفى المساء أشعلنا نارا من الأعشاب والقش المبتل، وكانت هذه الوسيلة للحصول على بضع ساعات للراحة لكن العلاج نفسه لم يكن مناسبا، بل كان يقودنا إلى اليأس، ومع ذلك فإن نارا من هذا النوع نادرا ما تفشل فى طرد هذه الحشرات نتيجة كثافتها ودخانها الخانق الذى يرتفع فى الهواء .

وكانت الخيول أيضا تعانى من الآلام نفسها ولكى نجعلها بعيدة عن إيذاء نفسها بقدر ما نستطيع كان الزنوج يشعلون النار فى الجزء الأكبر من اليوم خاصة فى ساعات التغذية، وبالقرب من رءوسها ورغم كره هذه الحيوانات للهيب والدخان فإنها كانت تمد رءوسها على النار حتى تحصل على بعض الراحة من الحشرات التى تطاردها ، ولم نشهد من العقارب سوى القليل، أما النمل الأبيض والأسود يشبه الرمل فى عدده، وكان النمل الأبيض يشق طريقه فى كل جذع شجرة .

وأى نوع من الخشب ينشره وكأنه ورق، وفى الحملة الأخيرة وأثناء توقفى لمدة ثلاثة أيام فى نقطة كانت أعداد النمل أكثر من المعتاد، وقام النمل بتدمير حصيرة وسجادة كنت أنام عليها، وسمعت قصة رجل عربى جلس لينام بالقرب من بيرنى القديمة فوق عش من هذه الحشرات المدمرة وغطى نفسه بمفرش من القماش، وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه عارياً فقد أكل النمل الفراش عن آخره. وكانت الأعمدة الخشبية التى أقمتها لتشييد كوخى بعد ثلاثة أشهر كانت هذه الحشرات المدمرة قد زينتها بملايين الثقوب وحولتها إلى بودرة، وكان لابد من وضع أعمدة جديدة، ولا يقل النمل الأسود خطراً فى الهجوم علينا وكانت لدغته ضارة مثل العقرب، ولمدة أسابيع كان جلدى ملتهباً من هذه الحشرات مثل شخص مصاب بالحصبة، وللأسف ليس لدينا زيت وهو علاج وقائى وكان البديل قطعة من الدهون التى أحك بها جسمى وكانت تحدث بعض الارتياح .

وفى يوم ١٣ أغسطس غادرت القافلة المتجهة من كوكا إلى مرزوق، وكان بعض العرب قد عزموا على البقاء لبعض الوقت هنا، إلا أنهم رحلوا خشية أن يقوم الباشا بزيارتهم، وفى حالة غياب مخابرات ذكية يصبح كل شيء مزعجًا وفوضى. جاءت تقارير من كل نوع تقول إن القافلة التى كانت متوقعة أكثر من شهرين لا يمكن أن تتأخر لأى سبب سوى النوايا العدائية للسلطان، وتم وضع أناس موثوق بهم فى بداية الصحراء للإدلاء بالمعلومات الأولى عن أى شيء يقترب، وكان عدم التأكد من قدومنا قد ترك الأثر لتهدئة مخاوف الأهالى . ازداد مرض السيد كلابرتون، وفى إحدى الليالى وبينما كنا نائمين شق طريقه إلى الكوخ الذى ينام فيه الخادم الوحيد والذى لم يصبه المرض ليطلب الماء لأن داخله كما يقول يلتهب، وأن الرعشة قد زالت، وكان ضعيفًا جداً لدرجة أنه لم يستطع العودة دون مساعدة من كولبس الذى سانده من ذراعيه، وكان لا يزال مريضا جدا وكان أربعة من مجموعتنا فضلا عن الدكتور أودنى قد لازموا الفراش فى ذلك الوقت وبنفس الاضطرابات والأعراض المتشابهة عند الجميع .

٢٥ سبتمبر :

بعد ليلة من القلق استيقظت من النوم مع طلوع النهار وأخذت الزنجى باركا وتحركنا فى اتجاه مدينة دورجو (dowergoo) ، وكان المحصول وفيراً حيث بدأ محصول شجر التمر هندى الذى فقد الكثير من أوراقه مع بداية الأمطار وكانت البراعم جميلة وذات ألوان براقة مع بداية الأمطار، وكانت الأمطار قد انحسرت بشكل معقول، وصار الموسم مناسبًا للقيام بحملة فى أحد الممرات التى لم نطأها من قبل، لكن كان كل شيء صعبًا، فبالإضافة إلى الفقر الذى نعيشه كنت أنا الوحيد من مجموعتنا الذى يستطيع ركوب الخيل، وعند عودتى زرت المرضى لأن الدكتور أودنى لم يستطع مغادرة الكوخ، كما انتشر الجدرى بين اثنين من العبيد أصدقائنا فضلاً عن حمى الموسم، وقد مات اثنان من العبيد الاثنى عشر الذين قبضنا عليهم كما أن الطفل الوحيد لمحمد الوردى قد أصيب بالجدرى من عبده، وهم لا يجهلون التطعيم وهو يتم بالطريقة نفسها بيننا وذلك بوضع الحافة المحدبة للخنجر وبه المرض، ولا يعطون أى دواء بل فقط يلفون المريض فى ملاءة ويضعونه فى ركن من الكوخ حتى ينتهى الدور .

وتنتشر أشجار الخروع فى هذه المناطق المجاورة وهو يستخدم عموما كعلاج ودواء، وهناك شجرة أخرى يمضغون أزهارها أو يغمسونها فى الماء ولها تأثير مثل الدواء المقيئ وكانت ثمار أشجار التمر هندى وكربونات الصوداء هى الأدوية الرئيسية بل وأفضلها، وكان هناك فقيه حاضر البديهة وله تأثير قوى ومهنته مطلوبة، وكان دواء الصدر يتكون من بعض الأعشاب، ورغم ذلك فإن الناس ظرفاء وفى صحة جيدة، وليس لدينا أى حالات من الأمراض المزمنة التى نواجهها فى كل جولة فى وطننا، كما أننا لا نصاب بأى من الاضطرابات الوراثية المختلفة التى تظهر فى أوروبا بصفة مستمرة، والنصيحة رخيصة والعلاج يطبق عادة من الخارج بدلاً من أن يشق طريقه إلى داخل أمعاء المريض، وعلى هذا فلا حذر من استخدام وصفات العلاج المتداولة ومع ذلك فإن كتاب التعاويذ لم يتوقفوا عند هذا الحد، بل إنهم يساعدون على الحمل أو يسببون العقم بفضل سحر أقلامهم بل وإن أى شخص يشك فى إخلاص زوجته أو خادمته فإن عندهم عشبا يوضع تحت وسادة المرأة النائمة فى وقت معين عند الظهيرة، ويجعلها تقر ليس فقط بعدم وفائها لزوجها بل أيضًا كل رغباتها الدفينة، وإذا لم يؤثر المناخ على فضائل هذا العشب فسوف نجرب آثاره فى إنجلترا .

لقد بدأ الجو فى التحسن رغم ازدياد الحرارة وكان الترمومتر ما بين ٩٧ ، ٩٨ درجة لكن قلّت نسبة الباعوض وصار الجو صافيًا .

وكان الدكتور أودنى قد أصيب أولا تحت الأعين ثم فى عينه اليسرى بالتهاب تركه يعانى طوال الليل والنهار، ومع ذلك فإنه خلال آخر يومين استيقظ وأخذ يمشى لمدة ساعة فى المساء، وأيضا السيد كلابرتون الذى كان فى حالة خطرة لعدة أيام قد شفى من الأزمة وانساب الدم البارد مرة ثانية فى عروقه، وعادت إليه الذاكرة لكنه كان فى حالة سيئة من الضعف كما أن عيونه لا تملك تعبيرا عن الحياة، وكنا نساعده فى الخروج من كوخه طوال اليومين الأخيرين، وبدأنا نشعر بالأمل فى شفائه .

٢٨ سبتمبر :

وأثناء فترة احتجاز الدكتور أودنى فى سريره كنت أرى الشيخ من حين لآخر كل أسبوع، وكان دائماً قلقًا في استفساراته، وكان أكثر دهشة وقال إنه يملك أدوية كثيرة لعلاج الآخرين لكنه غير قادر على علاج نفسه، وعندما قال الطبيب إنه أحسن قليلاً ذهبنا معًا لمقابلة الشيخ، وفى الحال أخبره الدكتور أودنى أنه يرغب في الذهاب إلى السودان، ونظرًا لأن الشيخ لم يبد أى اهتمام بهذا الأمر فقد كنت مندهشاً مثل الشيخ نفسه، وقال الشيخ "ما هدفك؟ لماذا؟ إن الرسول لم يحضر بعد تعليمات الباشا" وأجاب الدكتور أودنى، إن رغبتي أن أشاهد المنطقة، ولا أستطيع العيش هنا، سوف أموت أثناء السفر إننى دائمًا أحسن. أما هيلمان فكان مشغولاً لفترة طويلة فى صنع حاملة من البندقية كان سلطان فزان قد أحضرها له كهدية الشيخ – لكن واجه ندرة الحديد، وقلة خبرة الحدادين الزنوج وسوء عملهم وبعد الانتهاء من العمل لم يكن ممكنًا مقارنة ذلك بالصناعة الإنجليزية، ولم يكن هيلمان مقتنعًا بالعمل رغم إعجاب الشيخ به، وبعد الظهر أخذنا الحاملة إليه وكان مسروراً جداً، بل وتعجب بالسهولة التي تمت زيادتها أو نقصها وكانت الحاملة مثار دهشة كبرى، وأثناء إعداد الحاملة كان الشيخ يرسل لهيلمان هدايا من العسل والأرز واللبن والقمح والكعك، وكان زملاؤه يشاركون فيها.

وفى إحدى المناسبات أرسل الشيخ إليه حقيبة من صنع بلده، وبعد أن استفسر هيلمان عنها وأعادها بكل كبرياء البحار الإنجليزى قائلاً لا : إن ملك إنجلترا يدفع لى المقابل، وأنا لا أريد ذلك، لكننى شاكر جداً للشيخ.

لقد كان الموسم غير صحي سواء للمواطنين أو لنا، وفى كل يوم كان يتم نقل ما بين ستة إلى عشرة جثث من المدينة، وهاجم المرض صديقى المسكين المای ميجامی مع البقية من زملائه، وأرسل لى مع بداية الصباح، ووجدته مصابا بالحمى بشدة مع نوبة من الملاريا فى الوقت نفسه، وبعد استشارة الدكتور أودنى الذى لم يتمكن من زيارته، أعطيته جرعة قوية من الطرطير وبعد يومين سعدت بشفائه، وكان تأثير الطرطير مثار دهشة كبيرة، وسألوا عما إذا كان مسحوق أبيض كهذا استطاع أن يفعل كل هذا له، وباختصار اقتنع بأن ما وصفته كان كافياً وقال ما هذا الدواء المدهش وماذا لو بلعت

كمية كبيرة بعد أن أخذ قليلاً من الرمل فى يده، ماذا سيحدث لى؟ مدهش، مدهش. إن الإنجليز يعرفون كل شىء لماذا لا يعتنقون الإسلام؟"

وفى هذا اليوم أحضر لى أحد رجال الشوا تمساحًا صغيرًا مع طائر بحرى تم صيده من شواطئ نهر شارى على مسافة خمسة أيام من السير وكان منظره جميلاً ومحفوظًا جيدًا وقمت بتجفيفهما بالطريقة التى ذكرها السيد بورشيل (Burchell) ورغم أن هذا موضوع لم أجربه من قبل إلا أننى أصبحت كل يوم أكثر اهتماما بجمع وحفظ عينات من الطيور والحيوانات الأخرى .

أرسل الشيخ ثلاثة طيور تم أخذها من عشها فى لوجون (loggun) ، وكانت نادرة ولها قيمتها حيث تستخدم لحومها كدواء لعلاج الكثير من الاضطرابات، كما توضع ساخنة على الجزء المصاب خاصة عند تضخم الطحال، وهى تتغذى على الحشرات والسمك والثعابين والأفاعى التى تتميز هذه الطيور باكتشافها، ويعرف عشها وتتغذى على بعضها، ورغم أنها أكبر من الديك الرومى إلا أن حجمها صغير لدرجة أننى قررت ترك واحد منها لكى ينمو ويكبر ويزداد جماله .

لقد كان عندى بالفعل معرضًا للوحوش، ولو عرضته فإن الشيخ كان سيقدم له الكثير يوميًا، ووجدت فيه تسلية كبيرة، وتتكون هذه المجموعة فضلاً عن طائر لوجون من فردين، وخمسة من الطاووس، وقطة متوحشة، وضبع صغير، وصار الجميع متآلفًا، ولهم ركن خاص فى الحوش المخصص لى حول الكوخ عدا الببغاء والقرود التى تعيش طليقة بينما أقدم لها وجبة الطعام من الأرز واللبن، كنت أعود بخاطرى إلى إنجلترا، وأتذكر الفرص الوحيدة فى حياتى والتى وضعتنى تقريبًا فى مكانة تشبه مغامرات البطل الشاب روبنسون كروزو .

لقد التأم الجميع، والتقينا فى المساء عند غروب الشمس أمام أبواب الأكواخ، واستمتعنا بالهواء العليل لمدة ساعة وانضم إلينا الدكتور الذى شفيت صحته، وهو لقاء افتقدناه لشهور عدة، وقد أصيبت والدة خادم كلابرتون وهى زنجية قوية بالحمى بعد أن أخذتها من ابنها الذى ظل راقدا على ظهره لمدة شهر، وأوصلها تقريبًا إلى باب الموت، وهى من كورى (koorie) أحد جزر شرق تشاد، وأرسل إلىّ كثير من الفقهاء،

وبعد كتابة كلمات غامضة، تقرر أن حالتها يائسة، وأخيراً طلبوا من حاج عجوز يزيد عن السبعين عاما بالحضور إليها، وكان رجلاً عادياً لم يحمل شيئًا سوى زجاجة من الحبر مع بعض أقلام البوص، وبدأ عمله بمظهر السيد المحترم، وفى المساء حضرت إلى زيريجا (zerega) زوجة الزنجى خادمي وهى فى حالة من النشوة والطرب لهذه القصة المدهشة، وقال إن المرأة كانت تحت تأثير السحر ربما من الكفار يعنى الإنجليز – لكن بشرف ورأس النبى" استطاع طرد الشيطان منها، وكتب لها حجاباً مغطى بآيات من القرآن الكريم وغسلها بالماء وشربته، وقال "بسم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم الله" أربعين مرة مع كلمات أخرى، وعندما صرخت أخرج مباشرة طائرين صغيرين أحدهما أبيض والآخر أحمر، وقال إنهما خرجا من المرأة .

وقال الفقيه :

"ماذا فعلت مع هذه المرأة المسكينة إنها ليست شابة لماذا تضايقونها؟ لماذا لم تخرجوا منها من قبل؟" وقالت الطيور "نحن لا نرغب فى إيذائها كثيرا لكنها كانت كافرة رغم أنها مسنة ويجب معاقبتها وهناك الكثيرون يحسدها ولن يخرجوا بسهولة ولكن نظرا لأنك حضرت فلن تموت، بل يجب أن تهتم بالمستقبل، ولقد نظرنا إلى جسدها وهى ذاهبة إلى السوق، وهى تعرف ما فعلته هناك" .

وذرفت المسكينة الكثير من الدموع، واعترفت أنها فقدت الذاكرة فى اليوم السابق للسوق، وتمت مكافأة الفقيه بهذا التحول السودانى العظيم لها، وكان الجميع سعيدا بأخبار شفائها .

٧ أكتوبر :

عاد مؤخراً حوالى ثلاثة آلاف من فرسان الشيخ من تشاد، وشارى ومختلف المدن جنوب وغرب أنجورنو وذلك لإجراء التفتيش العام وكانت الخيول فى حالة جيدة، وقام الشيخ بنفسه بهذا الفحص الكامل وكان العقاب يوقع على من يملك حصانًا صغيراً ولا يهتم به، ويتم إعفاء أصحاب الخيول المسنة (كبيرة السن) بعد تغييرها .

٨ أكتوبر :

بالأمس حدث شيء أعترف أنه أثار مشاعرى حيث أعطى تاجر من طرابلس إلى رجل من مسراته طردا من المرجان لكى يأخذه معه إلى أنجورنو، ومع ذلك لم يصل للمرسل إليه وأعلن أنه فقده فى الطريق، وفى هذه الحالة فإن القرآن الكريم لا يلزم فاقد الشيء أن يدفع ثمن المفقود على أنه شيء فقد بإرادة الله وليس لأحد يد فى فقده ومع ذلك فإن خادم صاحب الطرد شاهده فى منزل المسراتي، وعلى هذا لجأ التاجر إلى القاضى، وإذا نجح فى إثبات ذلك ترد له القيمة، وكان هذا الخادم بلا عمل لفترة من الوقت، ويعمل فى الأكواخ أثناء مرض عدد من جماعتنا، وطلب القاضى من الخادم حلف اليمين، وكان على وشك إصدار الحكم عندما قال أحد الحاضرين "إنه أكل طعامهم لأنه لا يوجد شخص آخر يقدم لى الطعام" لكنى لا أكرههم قال القاضى، أخرجوه واستغفروا الله" إن الله يمنع أى شخص يأكل مع المشركين أن ينال عدالة شريعة الرسول وعلى هذا تم رفض الدليل، وخسر التاجر القضية .

وكان صديقى من بورنو حاضراً وسأل القاضى بكل بساطة هل حقًا هؤلاء المسيحيون أناس سيئون، وقال إنهم طيبون، وإذا كانوا سيئين لماذا جعلهم الله أغنياء جداً، ويعرفون أشياء أكثر مما نعلم؟ وقال القاضى، لا تتحدث عنهم من فضلك إن كل الذين هنا سيموتون مسلمين .

أما بالنسبة لثرواتهم فدعهم يتمتعون بها، إن الله يسمح لهم بالأشياء الحسنة من هذه الدنيا، أما المسلم فله الجنة والخلود" حقا..حقا". كان هذا رد الجميع وقرأ الكل الفاتحة بصوت مرتفع .

تلقينا أخباراً أن القافلة التى غادرت هذا المكان إلى مرزوق منذ شهر قد حجزت فى وودى (woodie) لأن التيبو قد خربوا الآبار بين هذا المكان وبيلما (bilma) وكان العربى الذى ظل معنا لمرافقتنا بعد عودته من مونجا قد غادر كوكا مع أول قافلة إلى طرابلس وكانوا جميعًا أصدقائى لكن نظراً لحالتهم السيئة لم أجد وسيلة لمساعدتهم لأن الدولارات التى أخذها كل واحد من الباشا عند مغادرة طرابلس قليلة وضاع كل الذى يمتلكونه فى ماندارا، وهم يعرفون أننى فى الوضع نفسه تماماً وأخذ من الأربعة

بندقيته التى تعد كنز العربى الكبير من أجل الحصول على الماء والجلود والقمح طوال الرحلة، وإذا أضفنا إلى ذلك نتيجة المرض والضعف والجروح، وضياع الثروات الخيالية التى كانوا سيحصلون عليها بعد انتصار بوكالوم على الكفار ، وهم على وشك العودة إلى أوطانهم بعد غياب عام أكثر فقرا مما تركوا أهلهم عليه، ولم أكن مندهشًا من اليأس الطبيعى الذى يحس به أى عربى فى مثل هذه الظروف، ومع ذلك فقد حذرتهم من العودة إلى طرابلس بأيادٍ خاوية، وذكروا أن هذا كافٍ جدا بل وارتعدوا عندما ذكرتهم بطريقة الباشا فى العقاب .

ومع هذا اتجه الجميع إلى بلاد التيبو ووصلوا إلى بئر جيشخا الذى أرشدهم إليه بوكالوم أثناء رحلته الأخيرة من خلال مينا طاهر (mina tahr) وهو الطريق الذى عرفوه جيداً، وهاجموا جماعات التيبو فجأة وقتلوا ثلاثة من رجالهم، وأخذوا أربعمئة من أفضل خيولهم وقد تضايق التيبو إلى درجة الجنون بهذا العمل، وغطوا كل الآبار، وأقسموا أنهم سوف ينتقمون وأنه لن تمر قافلة فى بلادهم بعد ذلك .

لقد أصابتنا هذه الأخبار بحالة من القلق على مؤن الطعام لكن يبدو أن الشرور تتجمع فوقنا من كل مكان، فلقد اكتشفنا أيضًا أنهم يعاملوننا بدرجة أقل من الاحترام وكانوا أكثر إسرافا فى استخدام ألفاظ "كافر وكلب" سواء بالنسبة لى أو لخدمنا، وأقول فى النهاية إننا فقدنا أيضاً احترام وتقدير الرئيس وكان أحد أبناء بورنو والذى اعتاد الحضور إلىّ لأخذ بعض المعلومات يوميًا، وكان يتحدث لغة البورنو وجد أن الناس يصفونه باستهجان، وعندما طردناه من الأكواخ لسرقته دولارين من القماش وهى عملة هذه المنطقة صاح الناس ضد هذا التصرف مع غير المسلمين وقالوا إنه لص قد حلت عليه لعنة الله .

١٠ أكتوبر :

فى هذا اليوم هبت نسائم منعشة من الشمال الغربى، ووعد الأهالى ببعض الأيام من الطقس البارد الجاف الذى يزيل كل أنواع الحمى والملاريا ، ويذكرنى هذا بأهل الريف الإسبانى فى مدينة قشتاله القديمة أثناء شهور المرض فى يوليه وأغسطس

يشـعـرون بنفس الآلام، وهم مـثل هذه الشـعـوب لا يتناولون أيه أدوية ودائمـا يقـولون "عندما تهب الرياح الباردة سوف نتحسن" ، والرياح فى بورنو منتظمة وموسمية . وقبل أن نذهب إلى مونجا كانت الرياح الشرقية والجنوبية الشرقية مستمرة، وعندما يبدأ فصل المطر تهب الرياح من الجنوب الغربى مع جو كثيف رطب، وقبل العاصفة تأتى سحب سوداء تـهب بقوة من الشمال الشرقى لكن هذه الرياح لا تصحبها أمطار غزيرة أو دائمة ولكن عندما تتجمع السـحب فى الجنوب الشرقى تصبح عنيفة وتتـجمع بكل قواها وتدريجيًا يشتـد سوادها ويصـحـبها رعد قـوى يهز الأرض تحت أقدامنا مثل الزلازل، ودائما يسقط المطر غزيرا ويستمر أحيانا لعدة ساعات بينما تهب رياح عنيفة نفس الناحية تجعل أسقف الأكواخ تطير فى الهواء، وبعد هذه الأمطار تتحول الأحواش حول الأكواخ إلى برك من المياه يصل عمقها حتى الركبة، وعند اكتمال وتغير القمر تظل هذه الرياح فى عنفها .

١٦ أكتوبر :

كيف تؤثر التربية عادة فى الرجل، إن الوحدة والبؤس وكل اهتـماماتى وتطلعاتى وحياتى شبه المتوحشة جعلتنى غير قادر على إدراك الهدوء الذى تسير فيه حياتى كما فقدت الشهية التى كنت ألتهم بها الأرز أو الفطائر التى كانت كل طعامى لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل رائحة الطعام فضـلاً عن الأمراض، وكان الرضـا الذى أشعر به فى صباحى ومسائى من تلك الزيارات التى كان باركاجانا يقوم بـها، وكلها أفكار عن الماضى والمستقبل حول نجاح مهمتنا والتى تجول فى مخيلتى عندما أضع رأسـى على الوسادة بالليل، وكانت أحاسيس الكبرياء تثور فى ذهنى .

لقد كنت مـشـغولاً بإبراز أهمية المهمة التى أقوم بها والنية الحسنة لدى الشيخ خلال اليومين الآخرين وذلك بصناعة خراطيش البنادق، وقد نجحت فى ذلك لكن عملية الإطلاق لا تزال صـعـبـة، وبعـد أن جـربت عـدداً من الطلقـات فى كـيس مـصـنوع من الصـوف، ونجـحت فى الحـصول عليـها من الحداد بين الزنوج من خلال نماذج ورقـية وكانت هذه الأمـور هامة جداً بالنسبة للشيخ وذلك لاستخدامـها فى الأعمال الحربية،

وصار قلقًا ويريد مشاهدة البنادق بعد تجربتها، وعرضت عليه ستة من أفضل عبيده، بحيث يخصص ثلاثة على كل بندقية وسأقوم بتدريبهم بقدر ما أستطيع على إطلاق النار بأسرع ما يمكن، وكان الشيخ يستعد للحرب منذ الشهرين الأخيرين بحماس شديد، حيث جدد كل أسلحته وقال لى إن لديه مئتى بندقية ومسدس وأن أربعين رجلاً يعملون يوميًا فى سن الرءوس الجديدة للحراب وأن التفتيش يتم على كل الفرسان ومدن شوا وبورنو وكل البلاد .

وخلال الشهرين الأخيرين تم استبدال أكثر من ألف حصان بدلا من تلك التى لم تعد تصلح للخدمة، وسواء كانت هذه الاستعدادات مقدمة لهجوم جديد على باجرمى أو أن الهدف كان مجرد نوع من الدفاع فى حالة قيام الباشا بحملة أخرى لقد تفاوتت آراء الناس في هذا الصدد، وكان من العبث إقناع الشيخ بهذه السياسة الخاطئة لأى محاولة ضد باشا طرابلس لأنه يعرف تماماً الدوافع التى تحكم السياسة التركية وأنهم عندما يفكرون بأن مواطن الثروة صارت فى متناول اليد فإن تقدير السياسة المستقبلية أو حتى النتائج البعيدة لا تؤثر فى مثل هذه الإجراءات .

وهكذا فإنه بزيادة سلطاته، وتقويتها أصبح الكانيمى مستعداً للعمليات الدفاعية أو الهجومية، وبالنسبة لحكومته فإن هذا الوضع صار مطلبًا خاصًا، والحرب المتواصلة والناجحة وزيادة الرغبة فى التوسع كل هذا يساعد كثيرا على تشكيل وبناء شعب محب للحرب، ولقد نجح إلى حد ما فى إعطاء الثقة لدولة مهزومة وضعته على رأسها .

وكانت المعارك التى كسبوها على أعدائهم صعبة المنال قبل أن يقودهم شيخهم لخوضها، وكانت هذه الانتصارات مثار دهشة وبهجة لهم، كما أن الغنائم التى يوزعها عليهم مناسبة لميولهم وهواهم لدرجة أنهم يفكرون فى الحصول على المزيد من هذه الغنائم الجديدة أكثر من تفكيرهم فى الأخطار الناجمة عن الحصول عليها .

رغم أن النتيجة كانت لها فوائد ملحوظة للصالح العام، وإذا نظرنا إلى اللحظة الحالية فإن شعب بورنو لم يكن راضيا وكان سبب هذا الغضب من جانب الغرباء الذين كان هدفهم الوحيد هو السلب، وهذه طبقة كبيرة ولها قدر كبير من النفوذ .

وفى بداية غزواته وجد الشيخ مزايا تشجع السكان الغاضبين من الدول الأخرى على الاستقرار فى مدنه الجديدة مثل الذين يعولهم ويعتمد كثيرا على الكانمبو الذين رافقوه وأيضًا جماعات الطوارق والتيبو والعرب وأهل باجرمى، لكن دراسة هذه الروح الحربية لم تكن كل ما يهمه أو يرغبه لأنه إذا انغمس فيها فإنه لن يربح كثيراً ويصبح شعبه غنياً، وتزداد قوته لكن يأمل فى جعلها مصدراً للقوة والرخاء والسيادة فى كل مملكته .

ورغم أن مسألة الحرب كانت تشغل بال الشيخ إلا أن قلقه من أجل الإصلاح على أنه رجل طاغية لم يكن عمليًا خاصة بين العنصر النسائى سهل الانقياد، ولهذا تأثير كبير على فكره وآرائه فمثلاً عندما سقطت اثنتان من الفتيات التعيسات فى يديه واللتان كان غناؤهما فوق الشك نتيجة نشاط الجواسيس الذين وظفهم لمراقبة هذه الأعمال ورغم أن قراراته فى الأمور العادية كانت تميل إلى الرحمة إلا أنه حكم على هاتين الفتاتين بالشنق من الرقبة حتى الموت(*) .

وقد أثار شنق البنتين اللتين لم تتجاوزا السابعة عشر من العمر نوبة من الغضب بين كل الناس وكانت هذه المشاعر معبرة عن حزنهم رغم أنهم فى مناسبات أخرى كانوا على طرفى نقيض لكن فى هذه الحالة صار الحكم فيها علنا وكان الرجال ينطقون عبارات الرجل المعجب بإحدى البنتين أنه سوف يطعن أى رجل يحاول وضع الحبل فى عنق الفتاة وعرض قراءة الفاتحة معها أى يتزوجها لكن تم رفض هذا العرض، وكانت الشفقة هى الشعور العام، كما أن قسوة الحكم جعلت الكل ينسى الخطيئة، ومن الطبيعى أن يشعر الناس بالعطف رغم أنه درس فى الأخلاق للجميع إلا أن الناس لم ينسوا هذا لأنه فى كل الأحكام التى يقدر ضد الجنس اللطيف تفسح العدالة الطريق للرحمة والإنسانية، والمخلوق ضعيف بطبيعته وحسب كلمات صحفى شعبى المرأة مخلوق يخطئ ويجب أن يشعر الجميع بكل العطف نحو هذه المشاعر الطبيعية، وكان قرار الشيخ الناس فى هذه القضية مثار كراهية له، بل منذ أن حضرت إلى هذه البلاد، وفى اليوم التالى كان التركيز على التكفير عن جرائمهم، ولكن أخذ فقيه يشبه الشيخ فى ذكائه وعلى عاتقه عملية التوبة وأعلن أن مثل هذه العقوبات

(*) وفى طرابلس يكون الأب أو الأم هما منفذا الحكم انتقامًا للخطيئة ، وفى الوقت نفسه مسح آثار العار من العائلة وضع تنفيذ الحكم أمام الجمهور .

بالنسبة للحريم خطيئة حيث أنه لا يوجد في القرآن الكريم إشاره لمثـل هذا الحكم، وإن أى اتهام على مثل هذه الجرائم هو تـأثيم هؤلاء المجـرمين وليس الإعدام حسب الشـريعة المحمدية، وأنه إذا تمت مـعاقبـة هؤلاء المذنبين بالقتل فـإن الله سوف ينتـقم لموتهم وتنتشر الأمراض فى البلاد وتسوء المحاصيل، واستمر الشيـخ فترة طويلة صعب المراس، ولاحظ أن الثروات الوفيرة والرخـاء دون فضـائل لا تسـاوى شيـئًا ، ولا تستـحق الحصول عليها ، ومع ذلك فإن عقوبة البنتين فى النهاية كانت حلق شعر الرأس وهو عار كبير لأنه يتم فى الشارع العام .

أما احتفـال تجربة البنادق النحاسية. وبعد استشـارة السيد كلابرتون الذى كان مريضـاً ، فقد نجحت فى تولى المسئولية، وبدأت عملية الحشو للبنادق بعد الظهر أمـام الشيخ وألف متفرج، وكانت المسـافة التى تصل إليـها الطلقات والأصوات التى تصـدر مثار دهشـة كبرى، ولكن لم أستطع إقنا ع الشيخ بأن يعانى من تجربة الإطلاق ثانية، وقـال لا .. لا، إنها غـالية جدا ولا تقدر بمال، يجب ألا نلقيـها بعيداً ، لعن الله جنسـهم، كيف تستطيع هذه البنادق إثارة أهل باجرمى وإجبـارهم على القفز، فقد قطعت قطعة من طقم الفرس على الورق والتى كـانت مصنوعة من الجلد وأرفقت واحدة لكل بندقية مع رجل يمتطى بغلاً . وكـان للبندقية مظهر جميل وتـأثير أكثر مما توقعت وكانت خزانة البنادق منتظمة، وكنت أشد الأسف لأن هيلمان المسكين الذى يرجع إليه الفضل فى كل هذا لا يزال راقداً على مرتبته، وغير قادر على مشـاهدة رد الفعل، لكن قلق الشـيخ لم يحتمل الانتظار والتأخير .

وإلى جانب استعدادات الشيخ للأمور الحربية الدفاعية كانت عملية إصلاح أسوار المدينة تتم بشكل إيجابى وكانت مثـار دهشـة الجميع، وقد تم تخـصـيص جزء لكل رئيس يقوم هـو وأتباعه بالعمل فيه لمدة سبـع أو ثمان ساعـات يوميًا ، ويشرفـون بأنفسـهم على السـور كنوع إضـافـى من الدفا ع وتم رفـع السـور عدة أقدام ، ووجدت نفسـى قلقًا عند الأسوار وكأننى أدافع عنها من هذه الأعمال المتهورة .

وأرسل الشـيخ لى ليعرف رأيى فى سير العمل وطلب منى باركاجانا المسئول عن الجزء الأكبر أن أنظر بعين الرضـا الآن وبعد ذلك عن شـعبه، ومع هذا فقد كان السـور جيدا ولا يحتـاج شيـئًا سـوى رجال أقوياء للدفا ع عنه ويسـاندونه ويتـحدون مـحاولات المحاصرين أو على الأقل صد الأعداء الذين يصلون إليه .

٩ نوفمبر :

لقد ساعدت الرياح الباردة التى سادت لمدة خمسة عشر يوماً الماضية على تنقية الجو لدرجة أن المرض قد اختفى، وحل موسم من الصحة كله، واستمرت هذه النسائم التى هبت حوالى العاشرة صباحاً حتى الساعة الثانية بعد منتصف النهار، وكان لها تأثير على السكان وساعدت على انتعاش صحتهم بمساعدة العصا لكن لا زال الضعف والهزال واضحا عليهم .

لقد كان لدى الشيخ الدليل على قدرة شعب باجرمى على إعداد هجوم مفاجئ منذ خمس سنوات عندما كان يعبر نهر شارى قبل أن يتقدموا، وقد وصلوا إلى مسافة قريبة من أنجورنو، وهم يدمرون ويحرقون كل شيء أمامهم، وهرب كل سكان أنجورنو فضلاً عن سكان كوكا الذين تراجعوا مع الشيخ بعيداً إلى نهر يووا (Yeau) ومع ذلك فإن أهل باجرمى كانوا يخشون متابعة هذا النجاح، أو أسر عبيد الشيخ وثرواته مع كل الرؤساء، وتركوا كل شيء فى منازلهم، أما بعض سكان الكانم فبعد أن رأوا تقاعس العدو استمروا فى قرع الطبول فى أنجورنو طوال الليل والنهار ويحاولون من حين لآخر الظهور خارج المدينة، وهكذا أزعجوا العدو لدرجة أنه تراجع إلى جانب المياه حتى يجدوا فرصة أفضل للانتقام لأنفسهم من الشيخ أكثر مما كان من قبل .

لقد كان سكان بورنو جنوداً ممتازين، كما أن سكان باجرمى قد تلقوا ضربة عقابية مخيفة قامت على يد قافلة سلطان فزان، لقد تدمرت كل من بابليا (Babbaia) (وهى مدينة واسعة كثيفة السكان بالقرب من حدود دولة باجرمى) وأيضاً تدمرت مدينة جورى مع الناس الذين انضموا إلى سكان باجرمى فى تقدمهم، وتفرق كل السكان أو قتلوا أو تم بيعهم أسرى .

والآن تستعد حملتان للرحيل إحداهما إلى كانم والأخرى إلى باجرمى بعد العيد الكبير - الذى سيبدأ فى السادس عشر - بيومين، وقد صممت على مرافقة إحداهما سواء وصلت إمدادات المال أم لا ؛ لأن هذا الموسم من السنة عظيم لدرجة أننا يجب ألا نضيعه، وكانت هذه أول فرصة للتحرك إلى الشرق ويجب ألا نضيعها، وكان عندى جمل واحد وحصان وحيد، وكنت قد نويت أن آخذ فرصتى مع الحملة وأرتحل حين تسمح الظروف، واستهل الناس العيد بالفرح والسرور وقام الرجال الكبار بتوزيع

الجوائز ، ولم ينسنا الشيخ الذى أرسل لنا ثورين يصل قرن أحدهما قدمين وست بوصات، وأيضًا ثلاث نعاج وزلعتين من عسل النحل وهذه تعد هدية قيمة فى وضعنا الحالى لأنه مع انحسار المرض ازدادت الشهية نحو الأكل .

٢١ نوفمبر :

يتم الاحتفال سنويًا بالعيد (عام ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) بالبهجة والفرحة نفسها مثل الأعياد الأخرى لكن بدلاً من المصارعة بين الرجال فإن النساء فى هذه المناسبة يرقصن حسب تقاليد الدولة وكانت حركات نساء كوكا أكثر متعة رغم أنها أقل رشاقة ومع ذلك فإنها تختلف عن الرقصات الأكثر إثارة فى رقصات العرب أو البرابرة (Barbary) وكل شىء هنا متواضع .

ويمارس الشوا رقصات داخل حلقات تتخللها حيل بارعة، والناس سعداء بهذه الخدع التى تتم بأشكال مختلفة سواء بالجلوس أو الدوران على جانب واحد أو الانحناء إلى أسفل، ولم أشهد نساء أجمل من هؤلاء منذ مغادرة إنجلترا لأنه إذا قارناهم بالزنوج فإن الشوا بيض اللون تقريبًا وملامحهم جميلة، وكان مثل هذا الحفل جديدًا وعظيمًا بالنسبة لنا، ومع ذلك فإننى أحيانًا أصاب بالدهشة أو أجد نفسى تعودت على هذا الجمال لدرجة أننى أصبحت أنظر إليهم بكل ارتياح . وترقص النساء فى بونور وباجرمى بحركات أكثر بطءًا ويصحب الغناء هذا الرقص، وترتدى المجموعة الأولى إشاربات زرقاء اللون على أكتافهن ويمتد الواحد إلى الأذرع، ويضعن أنفسهن فى أوضاع رشيقة وأنيقة بينما تقوم المجموعة الأخرى بوضع أيديهن فوق بعضها وأحيانًا تتطابق معا وأحيانًا تتعانق على الصدر، وأحيانًا أخرى تتلاقى أطراف الأصابع، ويغنين قصة طويلة تلفت انتباه الحاضرين، ويصحب هذا النزول بالجسم وانحناء الرأس من جانب لآخر وينتهى الكل بالجلوس وتغطية الوجه عندما تقوم النساء الأكبر سنا بأخذهن خارج الحلقة .

مرت بعض الشهور منذ أن أرسل الشيخ المؤن والطعام، وخلال هذه الفترة كنا ندفع ثلاث دولارات ثمنًا للخروف فى السوق، ومع ذلك فإن هذا السعر يفوق إمكانياتنا، رغم أن الضأن هو اللحم الوحيد الذى يمكن أكله دون أن نعانى من آلام سوء الهضم، واضطرابات المعدة، وكان من الأفضل الابتعاد عن هذه الأمور .

وفى المساء جاء إلى كوكا العرب والرؤساء من أنجورنو والمدن المجاورة، وحضر الشيخ وبصحبته ألف من الفرسان، ومر حول الأسوار تسبقه سبعة أعلام، وبعد أداء الصلاة على بعد مسافة عدنا إلى القصر حيث حضر المشاة الجدد ومعهم البنادق، وأطلقوا النيران، وعندما سألنى عن كيفية إطلاق النار وقال إننى أملك مئتى بندقية كاملة ، أين سكان باجرمى الآن؟ الكلاب" ، وظل هذا الموقف يتكرر لمدة يومين وكانت دعوات مباركة الحملة عند رحيلها . ورافقت الركب لمدة يومين وكنت أسير بجانبه وكنت مسروراً بأن يوجه الاهتمام لى ، ولم تصل أية أخبار ، ومع ذلك كنا فى حالة نفسية سيئة بسبب فقدان المرشد فى الطريق .

٢٥ نوفمبر :

لقد جاء الموسم الذى يخرج فيه كبار القوم إلى المعركة ، وكان الخوف من حملة الباشا قد منعت الشيخ من التوغل داخل باجرمى ، وعلى هذا فإنهم انتهزوا فرصة مهاجمته رغم هزيمتهم فى خمس حملات سابقة حيث تم ذبح أكثر من عشرين "مسكينا" كما تم طرد ثلاثة أرباع هذا العدد ووقوعهم فى الأسر ، ومرة ثانية جاء سكان باجرمى إلى جنوب نهر شارى ، وأغروا شعب لوجوم بالانضمام إليهم ، وكانت قوارب لوجوم تحضر وتنقل الباجرميين فوق النهر ، ثم يتجمع الكل فى مناطق نفوذ الشيخ وأصبحنا فى فوضى حزينة داخل مدينة كوكا عند سماع هذه الأخبار ، وبدأ الشيخ يعد قواته بكل طاقاته لمواجهة الموقف .

٢٩ نوفمبر :

فى هذا الصباح توقفنا بعض الوقت بينما كانت تعرض قضية محاكمة العديد من رؤساء الكانمبو لعدم معاملتهم شعب الشيخ برفق فى المناسبات السابقة ، وقد تم سحب المتورطين فى هذا ، وفى حضور أهل بورنو أصدر الشيخ أمراً بمعاقبة ثلاثة من أسوأ الرؤساء وإعدامهم فى الساحة ، وفى مثل هذه الحالات يحرك الشيخ إصبعه فقط كعلامة لتنفيذ الحكم فوراً .

٣ ديسمبر :

رغم وصول رسول من مونجا يفيد أن الخوف المباشر من هجوم الفلاشا من الجنوب الغربى قد تعطل بشكل معقول إلا أنهم استمروا فى مضاعفة القوة ، وعلى بعد مسيرة خمسة أيام ، ولازال أهل باجرمى على الشاطئ الجنوبى لنهر شارى بالقرب من النهر ، ولولا الخوف من استعدادات الشيخ لكانت لديهم النية لمهاجمته عندما تنحسر المياه بشكل يجعل الهجوم عمليا وهو ما يتوقعونه فى أقل من شهر ، وعلى هذا تحركت الحملة من كانم فى هذا اليوم تحت قيادة على جانا أحد مماليك الشيخ السود ، والثانى فى القيادة بعد باركاجانا ، كما تحركت حملة أخرى متجهة نحو الجنوب الغربى .

لقد كانت أخبار الشهر الماضى من جانب باجرمى والكانم سواء من الجنوب الشرقى أو الشرق سيئة للغاية ، حيث دارت حرب إبادة لعدة سنوات بين بورنو وباجرمى ، ولم تنته أو تتوقف مخاطرها ولم يترك أى ذكر من كل من الطرفين إلا بشروط أسوأ من الموت ، ولقد أخذ سلطان بورنو أكثر من مئتين من الشباب فى عمر أقل من عشرين عامًا من أهل باجرمى بينما استولى سلطان باجرمى على ثلاثة أضعاف هذا العدد من أقزام بورنو والكانم (ويقال أنه كان عنده أكثر من ألف زوجة) اختارهم من أقوى الشباب الذين وقعوا فى يديه كأسرى حرب ، ونجوا من المذبحة العامة لكى يعملوا فى خدمته كما أخذ الشيخ أكثر من ثلاثين صبيًا تم تدريبهم للعمل داخل غرف زوجاته والأميرات .

وبينما كنت أحتمى يومًا فى مدخل حديقة الشيخ بسبب عاصفة ممطرة قوية أحضر لى أحد هؤلاء الرؤساء المتميزين مجموعة من المحاصيل لألقى نظرة عليها والتى نجت من المحنة التى مرت عليهم ، ولكنها كانت ضعيفة رغم الرعاية الكاملة لتغذيتها ، وبالتالى أصبحت ذات قيمة كبيرة ، وسوف تباع لأى تاجر تركى بحوالى مئتين وخمسين أو ثلاثمئة دولار ، وكان هؤلاء التجار الشبان يمرون أمامى ، ولم أستطع تمالك عاطفتى أو أخفى الحزن الذى ظهر على ملامحى لدرجة أن الرئيس المسكين الذى أصبح سعيداً لأن كثيراً من بنى جلدته قد وصلوا إلى مرتبة متدنية من المستوى مثله ، وصاح " ماذا أيها المسيحى ماذا يعنى كل هذا ؟ افهم فقط من الباجرمى ـ كلاب

– كفار – أعداء يجب أن يمزقوا إلى أربعة أجزاء وهم أحياء ، والآن سيشربون القهوة ، ويعيشون فى القصر طوال حياتهم " .

إن الاستخبارات الأخيرة من جانب واداى ، وهى الطريقة التى كنت دائماً أتعشم أن تزودنا بمعلومات عن تقدمنا بعض المسافة على الأقل لكن يبدو أنها خيبت آمالنا ، لقد كان الصراع عنيفًا بين واداى والشيخ من أجل السيطرة على حكم كانم طوال العامين الماضيين ، وبدأ الآن عداء مكشوف بينه وبين السلطان ، ولم تمر قافلة بين واداى وبورنو لمدة خمس سنوات ، والشخص الوحيد الذى غادر بورنو منذ وصولنا إلى واداى هو الفقيه الشاب من تمبكت فى طريقه إلى مصر (القاهرة) واصطحب معه أحد الفقراء عند عودته إلى واداى .

وفى الحقيقة فإنه ذات مرة حضرت جماعة من الشوا من حدود واداى بعد إقامتنا فى كوكا لبيع بعض الإبل ، ولكن المفترض هنا أنهم جاءوا كجواسيس وكانوا مجموعة غير شرعية ، وكان التقرير الذى قدموه عن الطريق هو لإغراء بعض التجار العرب لأن يأخذوا بنصيحتهم عندما يكونون هم أول من يسرقونهم .

وبعد ذلك مباشرة عرضت على اثنين من العرب كانا فى واداى من قبل بأن أعطى لكل واحد منهما مئتى دولار إذا رافقنى ، وهذا مبلغ يجعل أى عربى يسعى من أجله ، لكنهما رفضا قائلين " لا لا .. ما قيمة المال بدون حياة ، إن سكان واداى سيقتلوننا جميعا" .

ومنذ وفاة السلطان سابون (Sabon) الرجل الطيب كما يسمونه لم تتم أية مراسلات أو اتصالات أو حتى من فزان ، والرجل الوحيد الذى هرب من القافلة الأخيرة منذ خمس سنوات موجود هنا وقدم التقرير التالى عن المعاملة التى لقيها ، ويدعى هذا الرجل عبد النبى (Abdel nibbe) وهو الخادم الموثوق فيه من حاكم القصر (قصر الباشا) وكان قد ذهب من طرابلس إلى واداى عن طريق مرزوق ، ومعه مبلغ معقول جداً من حاكم القصر ليتاجر فيه ، ووصل إلى واداى فى سلام وفى وارا (wara) العاصمة ، وبعد أن استقر لأكثر من عشرين يوماً اشترى خلالها سبعة وعشرين عبداً ، وكان على علاقة طيبة بالأهالى ، وفى يوم من الأيام دخلوا كوخه واستولوا على

ممتلكاته وقيدوه وخلعوا ملابسه وحملوه كالطفل أمام ابن سابو السلطان ، ووجد عبد النبى أربعين شخصاً مقيدين بالطريقة نفسها ، وبعد أن استجوبهم فى كل الأمور الممكنة طردوهم خارج المدينة لقطع رءوسهم أما عبد النبى وكان شخصاً قوياً من مدينة طورقا (Towergha) وهى مدينة قرب مصراته فبعد أن شهد الكثير من رفاقه وهم يعانون آلام الشنق ، أحس أن الحبل الذى يربط يديه واسع فقرر القيام بمحاولة للهرب أو على الأقل إنقاذ حياته ، وقطع الحبل وأسرع نحو التلال ، وحاولوا القبض عليه مرتين وكان قد أصيب بثلاثة جروح من الحراب وواحد من سكين كان على وشك فصل ذراعه الأيمن من جسده ، وحل الليل وزحف داخل حفرة كانت مأوى للظباء وظل هناك ثلاث ليال وثلاثة أيام ، حتى اضطره الجوع أن يترك المأوى ، ولكن أين سيذهب ؟ كانت هذه مشكلة بالنسبة له ، ومن يثق فيه بين هذه الشعوب المتوحشة ؟ وجال بخاطره رجل واحد يمكن أن يثق فيه فى هذه المناطق والذى يمكن أن ينقذ حياته.. هل هو أخوه أو صديقه الحميم . لا.. إنها امرأة كان رحيما بها أثناء رخائه ، وكان على علاقة ودية معها ، وشعر أنها لن تكون ناكرة معـــروف ولن تخون ثقتـــه بها هل أخطأ فى هذا ؟ لا... لقد استقبلته، وأطعمته، وغسلت جروحه، وأخفته لمدة سبعة أيام وأخيرا تم اكتشافه وأخذوه ثانية إلى الرئيس، وبعد استجوابه عن كيفية هروبه قال الحاكم "سوف أحتفظ بك فى خدمتى وأسلمك حصاناً وسأرى هل ستحارب من أجلى كما حاربت من أجل نفسك؟" وظل عبد النبى لمدة أكثر من شهرين فى هذا الوضع يجلب الماء أو يحمل الخشب، وعندما تسمع عن أن قافلة على وشك مغادرة واداى وتضم بعض التجار فقط والجزء الباقى من رفاقه الذين باعوا حياتهم بثمن مرتفع جداً انتهز هذه الفرصة وذات ليلة مظلمة هرب مرة ثانية وانضم إليهم وأعاروه بندقية وبعض الذخيرة ليحمى نفسه من الحيوانات المفترسة الكثيرة جداً، ونصحوه عند ترك القافلة والسير فى الغابة أن يتحرك موازياً لهم وكان ينضم إليهم بالليل وبهذه الطريقة واصل الرحلة لمدة خمسة أيام حتى تخلى فرسان واداى عن مطاردته، وعادوا بدونه .

١٤ ديسمبر :

غادر كل من الدكتور أودنى والسيد كلابرتون مدينة كوكا فى ذلك اليوم متجهين إلى مدينة كانو مع الإضافة إلى قافلة تتكون من عشرين تاجراً تقريباً إلى جانب الخدم ، وكانت هذه هى القافلة الثامنة المتجهة إلى السودان منذ وصولنا هناك ، وحيث إنه من غير المتوقع أن تذهب قوافل أخرى لعدة شهور بسبب عدم وصول أى من مرزوق وأى مناطق أخرى من فزان رغم هذا فإن الدكتور أودنى وهو بحالته المتدهورة هذه قرر مرافقة هذه القافلة إذا سمح الشيخ بذلك ولم يوافق الشيخ الكانيمى فوراً بل بذل كل ما فى وسعه لتأمين سلامته ، وكلف محمد الوردى الشخص المسئول عن القافلة بأن يساعدهم بكل الطرق ، وأعطاهم خطابات إلى سلطان كاتاجم وإلى سلطان كانو ، وإلى أحد المغاربة المقيمين فى كانو ويسمى الحاج صلاح الذى كان له نفوذ كبير ، والذى يثق فيه كصديق لهم ، وأن يحسن معاملة المسيحيين .

١٦ ديسمبر :

بالأمس تحرك باركاجانا ناحية الجنوب الغربى على رأس حملة من ١٢٠٠ من الرجال الأقوياء إلى مكان يدعى كاكا (Kaka) ، ومنه يتقدم لمواجهة مدينة للفلاشا تسمى مونانا (Monana) والتى تعد مركزاً لأعداء الشيخ ، وكانت أوامره التأكد من قوة الفلاشا بدلاً من الهجوم عليهم .

٢١ ديسمبر :

لدهشتى وسرورى الذى لايمكن التعبير عنه جاء كرواش (Karouash) يحمل أخباراً بأن قافلة قد وصلت إلى وودى (Woodie) من مرزوق وأن رجلاً إنجليزياً بصحبتهم ، وسوف يلحق به رجل آخر ، أكثر من واحد تركوهم فى مدينة زوو (Zow) .

لقد كان اليوم التالي يوم قلق كبير ، وفي يوم ٢٣ من الشهر ، وبعد شروق نور الصباح كنت مسرورا جدا عند رؤية ذلك السيد تيروت (Tyrwhit) الذي كنت أشك في اللحاق به وهو رجل قوي شاب وسيم المنظر ومعه بندقية ذات خزنتين تتدلى على ظهره، وعندما جاء رسول إلى أكواخنا يقول بأنه قام بصيد ذكر فيل ضخم لمدة خمس ساعات أنهم أخيراً أحضروه إلى موقع بالقرب من برى التي تبعد عشرة أميال شمال شرق كوكا في الحال كنت أنا والسيد تول (Toole) وبرفقتي مرشد من الشوا ووصلنا إلى المكان الذي وقع فيه الفيل وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . ورغم أن سنه لا يزيد عن خمسة وعشرين عامًا إلا أن أنيابه كانت تصل إلى أربعة أقدام وست بوصات ، وكان حيوانًا ضخمًا .

وقد شاهدت أفيالاً أكبر من هذا وهي أحياء عند حملتي الأخيرة إلى تشاد ، وأعتقد أن بعضها يصل إلى ستة عشر قدمًا في الارتفاع وله أنياب يزيد طولها عن ستة أقدام ، أما الفيل الذي أمامي يعد الأول الذي أراه ميتًا ، وانتظرنا حتى جاء الكانمبو من مدينة برى (Bree) وقد لفت انتباههم بالصراخ وأخذوا يغمسون الحراب في الأجراء ، وقاموا بربط الحيوان المسكين وجذبوه إلى الأرض ، وبدأوا تقطيع أجزاء من البطن والزلومة وكانوا قد وجهوا خمس طلقات رصاصية إلى مؤخرته أثناء المطاردة لكنها اخترقت عدة بوصات من لحمه .

طوال اليوم التالي كان الطريق المؤدي إلى المكان الذي نقيم فيه عبارة عن سوق أو معرض يسعى الجميع فيه إلى الحصول على قطعة من اللحم ويأكلها الناس دون شئ ، ولكنها كانت أفضل من أي لحم بقري وجدته في بلادي ، وتحركت عائلات كثيرة مع بناتهم اللاتي ركبن الثيران في هذه المناسبة واللاتي يأملن أن يكون نصيبهن دهن رءوسهن بالشحم وكانت عيون هذا الحيوان المسكين صغيرة رغم جسمه الضخم وكانت أكثر تعبيراً عن موته .

ومن حسن حظي في اليوم التالي أن أشهد رأسه التي أحضروها إلى المدينة وعندما فتحوا الرأس ورأيت مخه الصغير الذي يتناقض مع النظريات أن حجم العضو يتناسب مع ذكاء الحيوان ، أما جلده فكان سمكه بوصة ونصف ولونه بني غامق أو يميل إلى السواد ، وكان صلبًا ، وكانت أذنيه واسعة متدلية ، وتتميز بأنها الجزء الشاذ

فى جسده خصوصاً السهولة التى يحركها إلى الأمام والخلف ، وكانت أقدامه مستديرة غير منقسمة وبها أربعة أظافر أو حوافر لأنه لا يمكن أن نسميها أصابع أقدام ، واثنان فى مقدمة القدم حوالى بوصة فى العمق وبوصتين فى الطول وتتصل ببعضها بعضاً بخفين آخرين على كل جانب من القدم .

وفى أفريقيا نادراً ما يأخذونه حيا لكن يصطادونه كنوع من الرياضة من أجل الحصول على لحمه ، وأيضاً لكى يحصلوا على أسنانه رغم أنها صغيرة عموماً لكن تباع للتجار بأثمان تافهة ، وطريقة صيد الفيل بسيطة حيث يقوم عشرة أو اثنا عشر فارساً بعزل أحد الأفيال من مجموعة الحيوانات المتجولة وفصله عن القطيع من خلال الصياح ويجبرونه على الجرى بأقصى سرعة ، بعد أن يجرحونه تحت الذيل إذا استطاعوا وضع حربة هناك ، وعندئذ يثور الحيوان ويقوم أحد الفرسان بالركوب فى المقدمة ويتابع إثارته بغض النظر عن الذين يضغطون على مؤخرته رغم الجروح التى تؤلمه، ومن النادر سحبه من أول مطاردة، وأخيراً بعد أن يرهق ويرتبك من الحراب يلفظ أنفاسه الأخيرة تحت نصل السكين لأحد الصيادين المهرة والذى يدفن خنجره فى الجزء المكشوف من البطن، وبهذا الغرض فإنه يقفز بين رجليه الخلفيتين، ويعرض نفسه لخطر عظيم إذا لم يتحقق ذلك، ثم يقوم رجلان بربطه بينما يعذبه آخر فى المقدمة، عندئذ يصبح هذا الحيوان الضخم فريسة سهلة للقائمين بقتله .

١٢ يناير :

فى هذا المساء حضر إلينا كرواش بعيونه العربية الســوداء التى تلمع بشىء أكثر من حيويته، ولم تمر فترة طويلة قبــل أن نعرف الحقيقــة، إن سكان مدينة جولفى (Gulphi) الذين يسكنون قريباً من شواطئ نهر شارى لا يجدون وسيلة لرفع حبوبهم (فالأرض المحيطة بأسوار المدينة أصبحت تابعة للشيخ) ولم يستطيعوا سوى زرع المحصول على الشاطئ الجنوبى للنهر، ويحصدون المحصول فى فصل الحصاد ويحملونه إلى مدينتهم بواسطة قوارب مسطحة القاع ومؤخراً لم يجدوا مضايقات من القوارب فى المدن المجاورة لدرجة أن قرية من الأكواخ قد نمت ونشأت على هذا الجزء من الأرض، ويسكن العمال الذين يبلغ عددهم ثلاثمئة أو أربعمئة هناك بصفة مستمرة،

ومع ذلك فإن الحركات العدائية من باجرمي جعلت الناس التابعين للشيخ أكثر يقظة وحرصًا عما كانوا من قبل، ويسيرون فوق النهر في قواربهم الخاصة ويتعقبهم العديد من الصحراويين من جولفي والذين وقفوا على حمل الأسلحة ضد أصحاب الأرض التي نشأوا فيها، ويهددون أعداءهم بسلب إخوانهم أما سكان مافانيا (Maffatai) وكوسيري (Kussery) فقد هاجموا منذ عدة ليال القرية وقتلوا كل أبنائها من الذكور أثناء نومهم، وكالعادة سحبوا النساء والأطفال إلى قواربهم وعادوا إلى منازلهم دون أن يفقدوا رجلاً واحدا بعد أن أشعلوا النار في كل الأكواخ وأكثر من أربعمئة كومة من القمح .

لقد كانت آثار هذه الحملة في منتصف الليل والتي يتم الاحتفال فيها بالغناء في كل أنحاء كوكا ذات الطبيعة المقبولة لأهالي وطموحاتي .

كان سكان باجرمي الذين يقطنون الشواطئ الجنوبية لنهر شاري لعدة شهور يجبرون شعب لوجوم على تزويدهم بالطعام كما أخذوا حذرهم من هجوم رجال الشيخ لدرجة أنهم أخلوا معسكرهم وعادوا فور سماع الأخبار ، وبسرعة أرسلت دولة اللوجوم وفدا إلى الشيخ مع ستين عبداً، وثلاثمئة ثور يهنئونه على هذا الحادث .

لقد صممت على تقديم طلب السماح لي بزيارة هذه الدولة، وكنت شديد الاهتمام بسبب موقعها ولأنها غنية بالمياه الوفيرة، ويجب ألا نضيع الوقت لأن عودة العدو ربما تكون مفاجأة كالبرق، ومرة ثانية أصاب بإحباط، وكنت أحاول منذ أحد عشر شهراً زيارة هذه الدولة لكن هذا يتطلب تسلق تلال منحدرة بخطوة بطيئة في البداية .

١٨ يناير :

لم يهمل الشيخ أي مناسبة لتنفيذ أمنياتي ولم يوافق على طلبي لانتهاز هذه الفرصة لزيارة لوجوم، بل أرسل في هذا الصباح كرواش ليتشاور معي على طريقة تقدمي، وأوصى بأن أذهب دون أي ضياع للوقت وقال "إن بلال سيذهب معك" وهو الذي كان محل ثقتي لمدة سبعة عشر عاما أثق فيه بكل حياتي وأطفالي الذين هم أعز بالنسبة لي من الحياة ذاتها .

وفى الصباح وجدنا حصانًا بنى اللون حمل السيد تول (Toole) أثناء خدمته من طرابلس ميتًا داخل الحوش الخاص بنا، وأيضًا مات حصان أسود كان يركبه أحد العرب مع الباشا لأنهما لم يأكلا أى شىء منذ وصولهما، ولهذا تأخر رحيلنا فى هذا اليوم وتعددت المشكلات، ففى المساء ضاعت الإبل التى كنت أنوى أخذها معى، ورغم أن الناس خرجوا للبحث عنها حتى منتصف الليل لكن لم نجد شيئًا وأثناء الليل استدعونى لأن حصان السيد تول الآخر قد مات، ولم ينزف نقطة دم، وبعد أن ترنح بطريقة تشبه القسم مات قبل طلوع النهار .

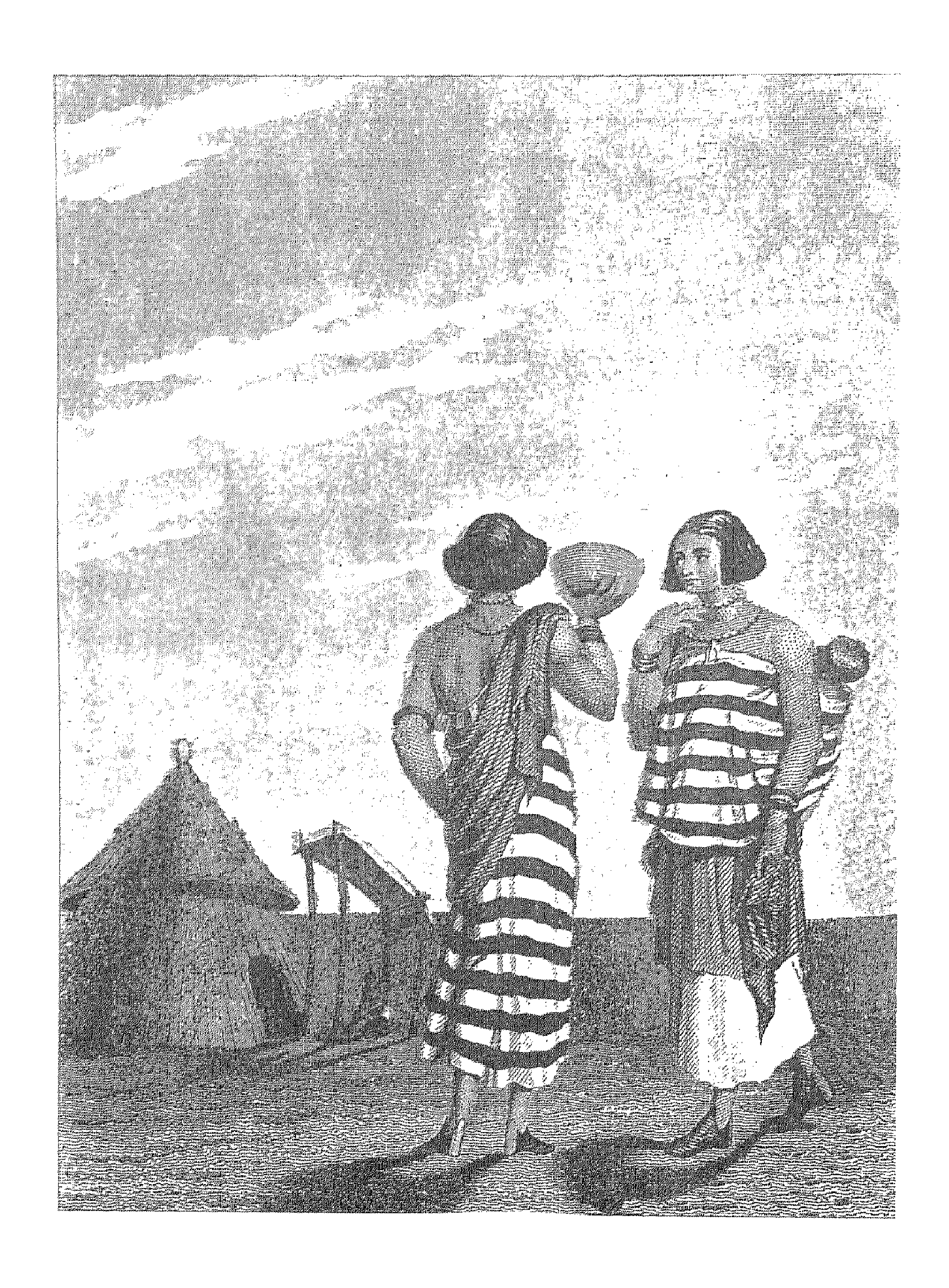
٢٢ يناير :

والآن أصيب كاروش وبن طالب وحتى الشيخ بالدهشة لخروجنا وقالوا: "مدهش . مدهش. مكتوب ألا تخرجوا" . لقد أربكنى التأخير رغم الذهاب وبسرعة كما قررت يكون الوقت ثمينًا لأننى لا أرغب أن تسقبنى أخبارى .

ومع حلول الليل وجدنا الجمال، وعندما سمعنا الشيخ بأننا نسأل عن حصان لكى نشتريه أرسل حصانًا أسود اللون للسيد تول كهدية، وهكذا وجدنا على مدى تسعة أشهر موت ثلاثة وثلاثين جملاً وستة خيول وأحد البغال .

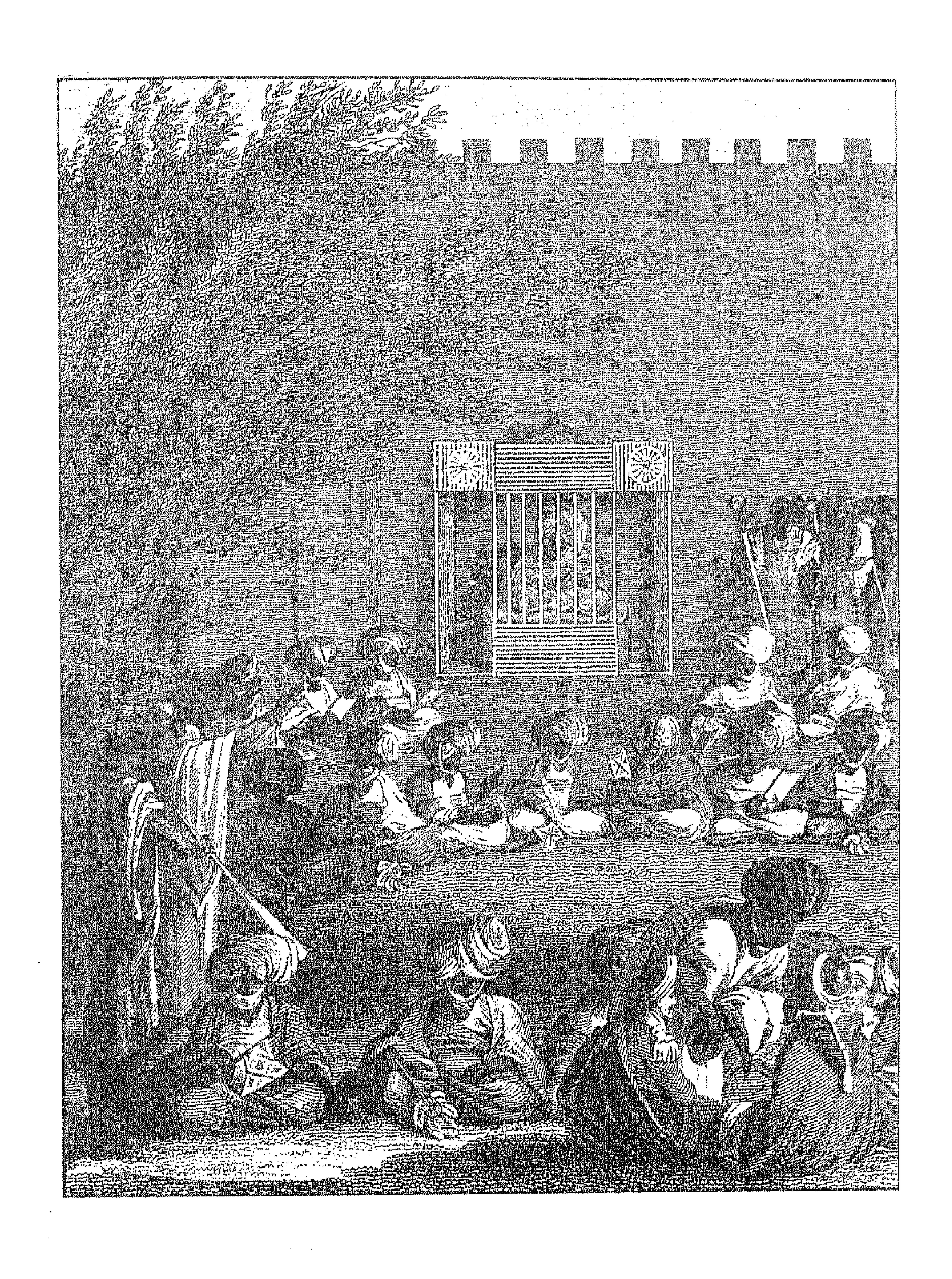
وفى يوم **٢٣ يناير** نويت الرحيل مع طلوع النهار ولكن حققت رغبتى فى فترة ما قبل الظهر حيث أعطانى الشيخ بلال ليصحبنى وقال "سوف يطيع الأوامر فى كل شىء. إنكم سوف تمرون على شعوب ليس لى عليها تأثير كبير"، وكان بلال من أكثر الزنوج الذين رأيتهم رشاقة ، وهو شخص مخلص يرافقه ستة من عبيده اثنان يركبان الخيل معنا مع جملين وهؤلاء هم كل جماعتنا، وبينما كنت أنتظر إذن الشيخ بالمغادرة جاءتنى مذكرة من الدكتور أودنى عن طريق أحد البورنويين من كاتاجم ولكنها ليست مؤرخة، وكانت آخر محاولاته، واعترف بأنه لا زال ضعيفًا وعاجزًا لأنه طوال كل الأزمة وشكواه التى لم تغادر شفتيه، وعندما طلب من الشيخ الرحيل برفقة القافلة أجاب "إن صحتك ليست بالدرجة التى تُخاطر بها فى مثل هذه الرحلة" وقلت "ولماذا؟ إذا مكثت هنا سوف أموت وربما بسرعة لأنه مع السفر والرحلة تتحسن صحتى دائمًا".

وكان خطابه رغم قصره يعبر عن ارتياح كبير فى المعاملة التى قابلناها فى الرحلة، وأيضًا السكان فى هذه الدولة .



SHOUAA WOMEN

KINGDOM OF BORNOU



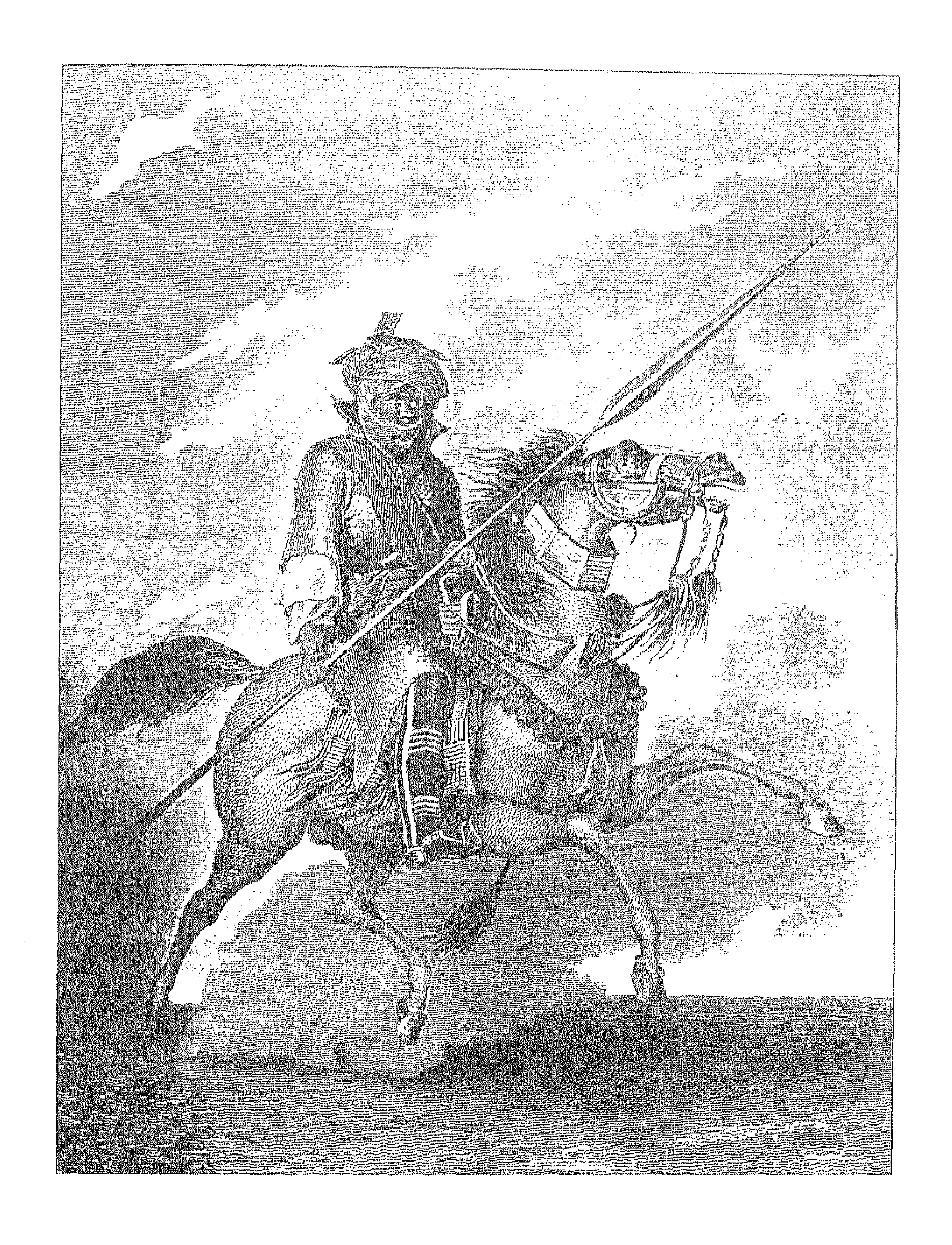
RECEPTION OF THE MISSION

BY THE SULTAN OF BORNOU



ALAMEEN BEN MOHAMMED

EL KANEMY



BODY GUARD

OF THE SHEIKH OF BORNOU

قائمة المجلد الأول

رواية الكابتن دنهام

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١ - الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢ - التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣ - الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤ - ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥ - العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦ - الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر ألن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت . أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار ڤاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ –الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو ڤيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو–أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أورين	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد منديثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	روميولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنونًا	يوربيديس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بــوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريــوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين ستيفن جراى ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا نبيل مطر ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك ناتالى ساروت ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام نصوص قديمة ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء جوزايا رويس ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣ على أصغر حكمت ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل نادين جورديمر ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس بيتر بلانجوه ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن بونه ندائى ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر رشاد رشدى ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون جان كوكتو ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١ محمد فؤاد كوبريلى ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق جوزايا رويس ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية) باسيليو بابون مالدونالد ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية) باسيليو بابون مالدونالد ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران حجت مرتضى ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر بول سالم ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس نصوص قديمة ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية نخبة ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس أفلاطون ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة آلان جرينجر ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بايتبرج هاينرش شبورال ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى ريتشارد جيبسون ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير إسماعيل سراج الدين ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس شارل بودلير ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا ت : مصطفى محمود محمد

٢٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البراق عبد الهادى رضا
٢٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٢٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٢٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٢٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٢٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٢٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٢٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٢٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٧٩ – ملك فى الحديقة	ستيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٢٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٢٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٢٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٢٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٢٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٢٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٢٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : نخبة
٢٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٢٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٢٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٢٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٢٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر

٤٠٤ - تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ - إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ - الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ - انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٣	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا جـ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩١٢١ / ٢٠٠٢





رحلة لاستكشاف أفريقيا

يعالج هذا الكتاب قصة الرحلة التى قام بها ثلاثة من الرحالة البريطانيين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى شمال ووسط أفريقيا من أجل الكشف والبحث عن هذه المناطق من القارة الأفريقية، وبالتالى فهو أول سجل تاريخى يحكى قصة هؤلاء المغامرين الذين تحملوا الكثير من المشاق والمتاعب فى هذه الفيافى والصحراوات ذات الحرارة العالية والأمراض الفتاكة التى أودت بحياة أحدهم، وهو الرحالة الدكتور أودنى بعد صراع طويل مع المرض والطبيعة القاسية.

لقد كان هؤلاء الرحالة من أوائل الأوروبيين الذين توغلوا فى ممالك السودان الغربى فى الكانم والبرنو، وقدموا وصفًا تفصيليًا لحياة هذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وخيراتها بالتفصيل الذى لا غنى عنه لأى باحث يريد الحديث عن هذه الشعوب، ولقد زاد من قيمة هذه الرحلة التى استمرت ثلاث سنوات أنهم توغلوا فى قلب دولة سوكوتو الإسلامية وأقاموا عند الخليفة محمد بلو وتعرفوا على الكثير من العادات الإسلامية مع وصف دقيق للحياة فى هذه الإمبراطورية التى كان الأوروبيون يجهلون الكثير عنها وعن الحضارة الإسلامية الزاهرة فى قلب القارة.

لقد كانت هذه الرحلة التى تقع فى جزأين بداية رحلات أخرى للرحالة هنرى بارث الألمانى الذى زار هذه المناطق، وأكمل الصورة عن هذه الشعوب، وكانت هذه الرحلات والاستكشافات هى التى مهدت الطريق للأوروبيين لاستعمار واحتلال الكثير من مناطق وسط القارة وغربها.